

موسوعة الأديان القديمة

كُنَانَةُ اللَّهِ يَا فِرْعَوْنَ

د. كامل سَعْفَان



دار الندي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كنانة الله يا فرعون

الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ ١٩٩٩ م

حقوق الطبع محفوظة

ولا يجوز طبع أى جزء من هذا
الكتاب أو تخزينه بواسطة أى نظام
خزن المعلومات أو استرجاعها أو
نقله على أية هيئة أو بأية وسيلة
سواء كانت إلكترونية أم
شرائط ممغنطة أم غير ذلك ، أو
أية طريقة معلومة أو مجهولة إلا
بإذن كتابى صريح من الناشر .

دار الندى

٢٩ عمارات حدائق العبور - صلاح سالم - مدينة نصر
تليفون وفاكس : ٤٠٣٥١٣١

موسوعة الأديان القديمة

كُنَّا نَبِيَّ اللَّهِ يَا فِرْعَوْنُ

د. كامل سَعْفَان

دار البندى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة فرعون قد تحتاج إلى تقييد ، حتى لا يمتد المعنى إلى يومنا هذا ، لو أننا صرفنا المفهوم الفرعوني إلى الطغيان ، وتجاوز الحدود الإنسانية إلى الإلهية المدعاة ، آخذاً بما جاء في القرآن الكريم عن فرعون موسى الذي ﴿ اسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ﴾ ، ثم أعلن في الناس : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ ، ولما كان ثمة أكثر من إله مزعوم قال لهم ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ .

فرعون موسى هذا وغيره من ذوى الأوتاد : ﴿ الذين طغوا في البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ﴾ - لا يمثلون تاريخ مصر ، وإن صاروا رمزا شائعاً لهذا التاريخ .

إن الحضارة التي هي أسبق حضارات العالم ، وإن التفوق في جميع مجالات الحياة ، فنوناً وصناعات وأبنية وآداباً وقوانين وعادات وتقاليده - لا يمكن أن تتحقق في زمن الطغاة ، لأن الطغيان يغفل القدرات ، ويقتل الملكات والمواهب ، ويكبح جماح الشهوات الراغبة في إبداع الحياة ، وفي الحياة المبدعة . . قد يحدث في زمن الطغاة بعض مظاهر الحضارة ، لكنه استمرار لما ترسب في الوعي والوجدان من أزمان خالية ، وهو ما يسمى بقوة الانطلاق الذاتي .

إن كلمة فرعون في المصرية القديمة - كما يقول جاردنر - هي (بر - عو) ، وتعني البيت الكبير ، وكانت تشير أحياناً إلى القصر الملكي ، ثم على الملك نفسه ، باعتباره ساكن القصر ، كما هو شأن لفظ (الباب العالي) الذي يطلق على حكومة العثمانيين من سلاطين القسطنطينية - مصر الفراعنة ص ٧١ .

وإذا وضعنا فى الاعتبار أن مصر منذ ما قبل التاريخ المدون مهجر كثير من الشعوب والأجناس : سوداناً وأحباشاً ونوبيين وليبيين ومغاربة وعرباً ، ومن شعوب دجلة والفرات وآسيا الصغرى وما فوقها ، وجزر البحر المتوسط واليونان .

وإذا عرفنا أن هذه الشعوب كانت مزيجاً من شعوب أخرى تدفعها الحاجة إلى المراعى وإلى مناخ أفضل ، وإلى الاستيلاء على ثروات الآخرين .

إذا كان الأمر كذلك ، سواء أكانت مصر بوتقة انصهار ، أو كانت لها القدرة على الطرد بقدر القوة على الامتصاص - فإن (الفرعنة) ليست صفة أصيلة فى مصر . . قد يكون مردها إلى تعلق المصرى بالأرض ، وإلى حاجة الأرض إلى أنظمة للرى تمسك الحكومة بمفاتيحها ، وقد أدى طول ممارسة المصرى للفلاحة ، واتخاذ الأرض أما وأبا ، وممارسة الحاكم التحكم فى مصادر المياه ومجاريها وكمياتها - إلى ولاء الفلاح وخضوعه ، وإلى تسلط الحاكم وتجبره .

لكن الفلاح بقى على وعى بقدراته . . ولعل فترة الفيضان التى كانت تطول شهراً ، كانت تعينه على المراجعة والتأمل ، وحساب الأرباح والخسائر ، وتقويم العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

من هنا اكتسب الحكمة و (الدهاء) ، ووضع قواعد السلوك الاجتماعى والاقتصادى والسياسى ، وكان إبداعه الفنى والصناعى ، واشتهر بالعمل الجماعى ، بل كان العمل الجماعى ضرورة حياة ، فى مقاومة الفيضان ، وفى الزراعة ، وفى مقاومة الآفات ، وفى الحصاد ، وفى التصدى للغزاة والمغامرين .

ولقد دون التاريخ المصرى بالكلمة والصورة كثيراً من مظاهر التعاون ، سلماً وحرباً ، كما دون التاريخ المصرى أحداثاً ضد المتجبرين من أجل الحصول على حقوق العاملين . . ثم إن التاريخ المصرى مر بأكثر من حقبة اضطرابات ، ليس بسبب قصور الحاكم فقط ، بل بسبب ضيق الشعب به ، والرغبة فى الخلاص منه .

من هنا فإن عنوان الكتاب لا يعنى تاريخ الطغيان فى مصر ، وإن كان يشير إليه ، ولا يعنى الوقوف عند بعض الملوك ، مادام لفظ (فرعون) يعنى (البيت الكبير) ، وهو فى الوقت نفسه يؤكد مفهوم العمل الجماعى الذى يدار عن طريق (صاحب القصر) ، وهو ما لا يزال معمولاً به حتى اليوم ، إذ تخضع جميع الأجهزة والمؤسسات لتوجيهه أو لإرادة من يجلس على القمة ، سواء أكان ملكاً أو عمدة أو (خولى) زراعة ، وهو نظام قادر على تخليق البكتريا القاتلة ، كما أنه قادر على التحكم فى عجلة الإنتاج ، من غير نظر إلى تقويم عرق من يديرون هذه العجلة ، وإلى أين تذهب ثمرة هذا الإنتاج .

ولعل ثمة توازناً يحدث بين القدرة على الإنتاج والقدرة على الاستهلاك ، كما يحدث التوازن بين الفيضان والتحريق ، فقد تعلمت الأرض والفلاح من هذا التوازن قدراً كبيراً من الصبر ، وقوة الاحتمال ، دخل أحياناً هذا القدر فى باب الفضائل المردولة ، مع أنه هو الذى حمى البلاد من كثير من النكبات ، وإن مكّن بعض الحاكمين و (عمور الورق) من ادعاءات كثيرة باطلة .

لهذا كله أجد أن عنوان (كنانة الله يا فرعون) يعبر أدق تعبير عن أبعاد هذا التناول ، من حيث إن (الفرعون) صناعة مصرية كبقية الصناعات ، لأن (فرعون) لم يستخف قومه إلا وقد استخفه قومه ، وما زال التعبير بالسلب أشنع التعبيرات ، ولعل الدوائر الانتخابية الفارغة خير دليل .

إن انصراف الفلاح إلى عمله ، غير آبه بهذا المتعنت الغبى ، هو اعتراف صريح بقشرية هذا المتعنت ، وأنه لا يلبث أن يجف ويسقط وحده ، لأنه يحمل فى كيانه عوامل موته ، والبقاء دائماً لأولئك الذين لا يفتنون يتجون ، ويتمتعون بالقدرة على الإنتاج ، وإن حُرّموا ثمرة هذا الإنتاج .

إن هذا المستهلك الذى لا ينتج ، وإن تجبر ، لا يعدو أن يكون آفة من الآفات ، كالجراد ودودة القطن ، لاتلبث أن تموت أو تسقط فى المحارق ، أو يطردها ضجيج ضربات الصفيح ، وتظل الأرض والفلاح فى العمل الدءوب الخصب ، وتظل السنابل وكيزان الذرة ولوزات القطن تتسابق فى نور الله .

إن قول الرسول الكريم (إذا قامت القيامة وكان في يد أحدكم فسيلة فليغرسها)
يرفع من قيمة هذا السلوك ، فالعبرة دائماً بالعمل ، وبيان ان العمل ، أما ما بعد
ذلك فلا يتجاوز حدّ (الفضلات) ، وحسب الطغاة والطفليين أنهم
منغمسون في هذه (الفضلات) !!

تحذير ..

لابد من الوقوف عند حقيقة لاحيلة لنا فيها ، وهى أن التعرف إلى التاريخ المصرى القديم تعرفاً صحيحاً ، جامعاً مانعاً - حلم ليلة صيف .

ذلك لأن جميع معابد الوجه البحرى قد ضاعت تقريباً ، وكثيراً من معابد الوجه القبلى - إرمان - ديانة مصر القديمة ص ١٠٣ .

وكما يقول جاردنر - مصر الفراعنة ص ٧٢ - يجب ألا ننسى مطلقاً أننا نتناول حضارة تمتد آلاف السنين ، لم يبق منها سوى مخلفات ضئيلة ، وأما مايزداع فى فخر أنه تاريخ مصرى فليس فى الواقع سوى مجموعة من الخرق البالية .

ويقول ص ٧٥ : إن ملوكاً معينين لم يأخذوا الأحجار بغير اكتراث من مبانى أسلافهم فحسب ، بل إن كثيراً من النقوش القيمة والمناظر اختبأت نتيجة لذلك وراء جدران المعبد الذى اصطنعوه لأنفسهم ، بل إنهم لم يترددوا فى أن ينسبوا لأنفسهم أعمال البطولة أو التقوى التى اختلسوها - من غير شك - من آخرين .

ومن البديهي - كما يقول الدكتور منير مجلى فى كتيبته (الجزيرة المسحورة ص ٩ و ١٣ و ١٨) - أن ماوصل إلينا من البرديات التى حفظت هكذا فى المقابر عدد ضئيل ، وذلك لعوامل عدة ، منها يد الزمن التى جعلت هذه الأوراق تبلى ، ويد الإنسان الذى لم يكن يعرف قيمة هذه الأوراق ، فاستعملها - من عهد غير بعيد - فى إشعال النار للتدفئة أو لطهو الطعام .

وهناك كلمات كثيرة لاتساعدنا حصيلتنا من النصوص على أن نعرف معناها

على وجه التحديد ، وكذلك فإنه - رغم الضوء الذى تلقيه اللغة القبطية على الفقه والنحو القديم - مازالت معلوماتنا عن كثير من التركيبات اللغوية واللفظية تحتاج إلى دراسة طويلة .

إن البردى المكتوبة عليه هذه النصوص نالت منه يد الزمن كثيراً ، فبهت لون الحبر ، حتى ضاع أو كاد ، كما حدثت فيه فجوات اختفى ماكان مكتوباً عليها ، مما يكسر من سياق الكلام .

وقد أكد ديودورس - مصر الفراعنة ، جاردنر ، ص ٢٢/٢٣ - أن اللغة الهيروغليفية ليست نطقية ، بل هى مجازية ، على وجه التحقيق ، وقد تابعه فى هذا «خايريمون» معلم نيرون ، فى كتاب لم تصلنا منه سوى مقتطفات موجزة .

وقد وصلنا عن الهيروغليفية كتاب من يدعى (حورابوللو) ، وهو أديب مصرى من القرن الثامن للميلاد ، جاء فيه عن الروح : (وأكثر من ذلك فإن الصقر يوضح مكان الروح ، من دلالة اسمه ، ذلك لأن الصقر يدعى لدى المصريين «بايث» ، وحين تقطع هذه الكلمة نجدها تعنى الروح والقلب ، ذلك لأن كلمة «باي» تعنى الروح ، و«يث» تعنى القلب ، والقلب عند المصريين هو وعاء الروح ، ومن ثم كان الاسم فى تركيبه يعنى الروح فى القلب) .

والواقع أن بعض الحقيقة يكمن فى هذه الفقرة ، لأن كلمة «الروح» كانت تكتب لدى المصريين بعلامة تمثل طائراً ، لكن التفسير المجازى مُضَلَّلٌ لأبعد الحدود .

ولاشك فى أن الاعتماد على قراءة الرُّسوم ، وهى ذات دلالات مشتركة ، وبخاصة أنها صور متشابهة ، مع تداخل النصوص واختلاف مصادرها ، فى لغة بدون حروف ساكنة تضبط النطق وتحدد المعنى . . يذهب بالظنون مذاهب .

ثم إن التعرف على هذه اللغة الهيروغليفية تم عن طريق نص كتب فى عهد بطليموس الخامس ، على حجر جمع بين لغات ثلاث : الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية ، والموازنة بين لغة معروفة وأخرى شبه معروفة وثالثة غير معروفة يترك مجالاً كبيراً للقفز فوق الحقيقة .

كل هذا جعل علماء المصريات يضربون فى أكثر من متاهة ، ودفعهم إلى سد فجوات عن طريق الاستنتاج والحدس والتخمين ، وجرأهم على لى وتحريف بعض المفاهيم ، وصولاً إلى ما لم يصل إليه الآخرون ، وأتى آخرون فسلموا واستسلموا ، وأخذت الحقيقة تدور فى أكثر من متاهة .

وما نحن نحمد عالم المصريات الكبير السير إرمان (ديانة مصر القديمة ص ١٣) يقول (ومن الغريب أن المصريين لم يستطيعوا أن يجمعوا كتاباً مقدساً يشبه إلى حد ما واحداً من كتبنا المقدسة التى نعتبرها نبراساً لنا يحدد الكمالات الخلقية للبشر ، ومن أجل ذلك لم يكن الدين المصرى - فى يوم من الأيام - ذا صيغة محددة ، ولم يتصف هذا الدين بصفة العقيدة ذات الأصول الثابتة ، كما أنه لم يحاول فى يوم من الأيام أحد الحكماء أو الرسل أن يرجع إلى هذه الديانة ، وأن يتفهم أصولها) .

وكان هذا العالم الكبير لم يمر بخاطره ما أصاب التراث المصرى القديم ، وما أصاب علماء المصريات من صعوبات ترجمة النصوص المصرية التى وجدت ، وكأنه لم يقرأ شيئاً فى نصوص «كتاب الموتى» التى لا يمكن أن تصدر إلا عن معرفة بقانون ثابت مكتوب ، أو بكتاب مقدس جار عليه الزمان .

أما كان أولى بهذا العالم الكبير أن يسأل نفسه عن «صحف إبراهيم» ، التى نزلت عليه بعد نشأة الديانة المصرية بقرون طويلة ؟

لهذا كله ، أرجو من القارئ الكريم أن يكون (كيّساً فطنا) ، وأن يضع بين يديه دائماً أن التاريخ أوسع الأكاذيب ، وهى مقولة صادقة عن المسار التاريخى كله ، لأن الأباطرة مايزالون حريصين - إلى اليوم - على كتابة التاريخ بتوجيهاتهم ، أو إعادة كتابته بأهوائهم ، بحيث يعلل أمراضاً خبيثة ، ومن ثم وجب الانتقاء بعد طول أناة ، والحكم بعد طول مقارنة واختبار .

ليست كل كلمة مكتوبة يسهل الوثوق بها ، وسنرى من خلال هذه الدراسة أن كثيرين من علماء المصريات روّجوا أخباراً كاذبة عن المعتقدات المصرية ، كما

روج كثير من المستشرقين أخبارا كاذبة عن التراث الإسلامى ، وعن معتقدات الدول الأفريقية والآسيوية التى نزحوا خيراتها .

إن الذين يشغلون سماء العالم عن الإرهاب الإسلامى ، ليضربوا اقتصادنا ، ويجعلونا نخرّب بيوتنا بأيدينا ، هم أنفسهم الذين يزودون هذا الإرهاب بالمال والسلاح ، وهم الذين يحتضنون هذا الإرهاب ، ويتولون تدريبه وتوجيهه ، وهم أنفسهم الذين لا تجرؤ على السير فى شوارعهم فى ليل أو نهار ، بسبب الجريمة المنتشرة فى كل مكان ، وبسبب العداوات العنصرية المتنامية .

لهذا وجب أن نثق بترائنا ، قبل أن نثق بترائهم ، وأن يكون مردنا إلى سلامة منطقنا قبل الوقوع فى براثن منطقهم ، إنهم يتحدثون بأكثر من لسان ، ويتحركون بأكثر من سياسة ، وفى أكثر من سرداب !!

البداية ..

الحديث يطول عن « آدم » فى الفكر الدينى ، وفى الفكر الأسطورى .
وقد يتحدث التراث الإنسانى عن أكثر من آدم ، بل عن ألوف ، وقد يتسع
الحديث لأن يكون « آدم » الذى ورد فى الفكر الدينى سبقه إلى الوجود سلسلة
آدمية فى تاريخ التطور البشرى .

وتبعاً لهذا قد تصل أولية الإنسان إلى نصف مليون ، أو مليون ، أو خمسة
ملايين من الأعوام ، وقد ترجع صلة الإنسان بالنيل إلى مائة ألف عام ، وترجع
بداية الحضارة المصرية إلى خمسة عشر ألف عام قبل الميلاد .

إن العلم لا يملك غير الفروض والتخمينات ، لأنه لا يملك الأدلة المادية التى
تنهض بما هو من الإرهاصات التى تمهد لما يسمى علماً ، وإن جهد الباحثين يدخل
فى دائرة المحاولات (الظنية) التى تقيس ما لاتعرف على ماتعرف ، وبخاصة أن
التطور الإنسانى فى المرحلة (التاريخية) ذات الأدلة المادية ، لا يمثل - خلال
خمسة عشر ألف عام - أكثر من خطوط ضبابية فى نطاق العلاقة بين الإنسان
والطبيعة ، وليس بين الإنسان والإنسان .

وقد ولدت تتبع العلاقة بين الإنسان والإنسان خلافات عن طبيعة الإنسان ،
هل هو خير بطبعه أو شرير ؟ هل كان نزوعه إلى الخير أو الشر بدافع الخوف
والطمع ، أو بسبب من تعاليم دينية أو وساوس شيطانية ؟

واصطنع الفلاسفة من طبائعهم وتأملاتهم أحكاماً لاتخرج عن كونها مجرد
آراء أجادوا التعبير عنها ، أو أجادوا لقها فى أغشية ذات بريق ، وهذه الآراء

تختلف من فيلسوف لآخر ، ولأنها إفرزات فردية فهي تظل تدور مع الهواجس والظنون .

ومن طريق الهواجس والظنون قد نرى الإنسان الأول - منفرداً ، أو فى قبيلة - يعانى أشد المعاناة من عدم القدرة على تفسير الظواهر الطبيعية ، ومن صعوبة حماية نفسه من أخطار كثيرة ترتبص به ، أو تدق بابه ، فيبحث عن (القوة) التى تقف من وراء هذه (المخاوف) ، أو التى تستطيع التغلب عليها ، متمثلاً إياها فى صور مختلفة ، يشكلها (خياله) من البيئة التى يعيش فيها ، ومن ثم فهو يحاول الاقتراب من هذه (القوة) بالابتهالات ، وبألوان من الأدعية والتعاويذ والطقوس ، وقد يستعين بـ (هيكـل) هو واسطة بينه وبين (القوة) القادرة ، وقد يأخذ هذا الهيكل شكلاً من أشكال الطبيعة ، يوحى بالقدرة أو التميز . . . قد يكون إنساناً كاهناً أو ساحراً ، أو ملكاً ، استطاع بقدر من المهارة والدهاء ، أن يستحوذ على مشاعر (الآخر) أو على (فكره) .

وقد يحدث لقاء حقيقى بين هذا الإنسان وبين (القوة) القادرة عن طريق (الرؤيا) ، وعن طريق (الإلهام) . . . وقد يتحقق (الوحى) بوساطة قوة أخرى قادرة على التشكل ، أو قادرة على نقل (الرسالة) .

من هنا يكون (الدين) الذى يقوم السلوك ، ويقيم الأسس ويصدر التعليمات ، ويحدد الثواب والعقاب .

ومع مرور السنين يأخذ (الدين) - بفعل (التحولات) الإنسانية - صورة (مغلّقات) أسطورية ، أو (تجريدات) ورموز ، سرعان ما تندخل أو تتخالف ، وسرعان ما تحمل من المعانى ما يبعد بها عن البدايات والغايات .

ولعل سبب وقوفنا حائرين أمام (الرموز) الإلهية فى الديانات القديمة - مصرية ، وسومرية ، وبابلية ، وهندية ، وصينية ، ويونانية - يرجع إلى البعد الزمنى بين الرمز وتفسيره ، بل إن التطور الثقافى هو أهم أسباب (الحيرة) ، أو الوقوف موقف (التعالى) والرؤية (المغايرة) .

انظر مثلاً إلى ماسمى (أساطير) عن الثلاثى المصرى (إيزيس وأوزيريس

وحورس) ، وعلاقته بالإلهين « شو » و « تفنوت » ، وعلاقة « شو » بالإلهين « نوت » و « جب » ، ثم الانتقال بحورس إلى (فكرة وجود الإله الأزلي الكوني ، منذ بدء التاريخ المصري) ، وأن حورس (ظهر في الوجود البدائي قبل أن تخرج إلى الوجود السماء والأرض) . . هذا مع شيوع علاقة أوزيريس بالطبيعة الخيرة ، و « ست » بالطبيعة الشريرة ، وإيزيس بالقدرة على إعادة الحياة ، وانتقال هذه الأفكار إلى ديانات فارسية وبرهمية ، بل إلى المسيحية كذلك .

وقد يأخذ (رع) مكان (حورس) ، وتتوحد فيه آلهة الأقاليم الاثني والأربعين ، فنسمع عن (سوبك رع) ، و (أمون رع) ، ثم يتحول (رع) إلى (آتون) ، وقد يتشكل ثلاثي من (الملك ورع وآتون) ، كما حدث سنة ١٣٧٠ ق.م ، وقد يصبح الثلاثي من « رع حراحتي » صاحب هليوبوليس و « أمون رع » صاحب طيبة ، و « بتاح » صاحب منف .

إنها تطورات سياسية تتبعها تطورات دينية ، أي إن الدين صار تابعاً للسياسة ، مع احتفاظ الكهنة بالدور الأول في هذه التشكيلات .

وهذا لا يعني أكثر من أن الدين حاجة اجتماعية ، نشأت وتطورت ، واتسعت وانحسرت ، وساء فهم رموزها أو خفي ، تبعاً لتباعد الزمن ، واختلاف الثقافة ، وكذلك تبعاً لتسلط بعض الملوك ، وتأمر بعض الكهنة ، وتطفل بعض المفكرين .

وحسبك أن الملكة حتشبسوت أرادت أن تجعل لها نسباً (إلهياً) ، فزعمت أن الإله « أمون رع » أنجبها من الملكة أحموس ، ثم أمر « اخنوم » أن يصوغها على عجلة الفخرا (في أحسن تقويم) ، وجاءت الإلهة حتحور (البقرة) فقدمتها إلى أبيها « أمون رع » ، وقامت بإرضاعها ، وجاء رمسيس الثاني فصنع مثلما صنعت ، وبهذا أصبح الفرعون إلهاً أو ابن إله ، وحين يموت يصعد إلى السماء هو وحاشيته من الكهنة ورجال القصر ونسائه ، أما الرعية البائسة فينقلها الموت من شرق الأرض إلى غربها فقط لاغير .

ومع احتمال أن يكون أمنحوتب الرابع (أخناتون) قد استفاد من تجربة (حتشبسوت) ، فقد جاء بعض المفكرين وخلعوا عليه النبوة والوحي ، وزعم آخرون أنه أول داعية إلى (التوحيد) ، مع أن شواهد التوحيد تمثلت من قبل في «حورس» و «رع» . . . وذهب آخرون بالتوحيد إلى الألف الرابع قبل الميلاد ، معتمدين على (مسرحة منفية) تشيد بعظمة مدينة منف وسيادتها .

ومهما يكن من شيء فإن هذه (الأساطير) الدينية التي وجدت بشكل أو بآخر في حضارات معاصرة ، أو سالفة - لا تمثل إلا رموزاً طال بها العهد ، فصعب معها التفسير .

يقول ولز في (معالم التاريخ الإنسانية مح ١ ص ١١٨ / ١٢٥) عن نشأة بعض الطقوس الدينية : (نشأت في أذهان الناس - من قديم الزمان ، بسبب إلمام الأمراض المعدية بهم إلماماً لم يكونوا يعرفون له سبباً - فكرة النجاسة ، وفكرة الإصابة باللعنات ، وفكرة تجنب أماكن خاصة ، وأشياء ، وأشخاص ، في أدوار خاصة من أدوار الصحة) .

(وتظهر إلى جوار فكرة النجاسة فكرة التطهر وإزالة اللعنات ، وتتم عملية التطهر بإرشاد الحكماء من المسنين أو العجائز المحنكات ، وفي مثل هذا التطهر تكونت بذور الكهانة والسحر . . . ولرفع اللعنات وإزالة الشرور كان لابد من فعل أشياء ذات قوة وبأس ، تتمثل في القتل وإراقة الدماء ، ومن هنا نشأت فكرة الضحية والقربان) .

(وبعد أن صارت الزراعة أهم الأحداث الاقتصادية ارتبط البذار في ذهن البشرى بالقربان والتضحية) .

(وقد تتبع السيرج . ج . فريزر تطور هذا الترابط ، وواصل بينه وبين فكرة الأشخاص المخصصة للقربان ، الذين يقتلون في أوان البذار ، وفكرة طبقة من الناس مطهرة تطهيراً خاصاً يؤهلها لقتل هؤلاء الضحايا ، وهى طبقة الكهنة ، وفكرة «عشاء مقدس» أو وليمة طقوسية ، تأكل منها القبيلة أجزاء من جسم الضحية ، لكى تأخذ نصيباً مما للقربان من مزايا ، وتتقمص تلك المزايا أو توق (تقمص) .

(ولفظ الدين فى الإنجليزية Religion مأخوذ من الكلمة اللاتينية Religate ، ومعناها « الربط » ، لم يكن ذلك بالشئ البسيط ولا المنطقى ، بل كان طائفة معقدة مختلطة من الأفكار التى ينظر بها الناس إلى الكائنات والأرواح الأمرة والآلهة : ومن جميع ضروب « مايجب وما لايجب » ، وقد نمت الديانة كما تنمو كل مصلحة إنسانية) .

(وحدث فى العصر الحجرى القديم « الثانى » والعصر الحجرى الحديث تطور غريب ، هو التثكيل بالنفس ، إذ شرع الناس يقطعون أجزاء من أجسامهم ، بجذع الأنوف ، وصلم الأذان ، وجذم الأصابع ، ونزع الأسنان ، وما إليها ، وأخذوا يعلقون على هذه الأعمال كثيراً من الأفكار الخرافية . . ويمر الأطفال اليوم فى دور مشابه لهذا ، أثناء تطورهم العقلى ، فقد تمر بمعظم البنات الصغيرات فى حياتهن مرحلة يجب ألا يتركن فيها بمفردهن ، ومعهن مقص ، خشية أن يقصص شعورهن ، وما من حيوان يفعل شيئاً من هذا القبيل ، وهذا أيضاً أمر بقيت آثاره فى منسك الختان فى الديانتين اليهودية والإسلامية) .

* لكن قصة الغراب الذى هدى قابيل إلى دفن أخيه دليل على أن الإنسان تعلم كثيراً من الحيوان الذى سبقه إلى الحياة ، وإلى تكوين علاقات اجتماعية . . فمما لايسهل إنكاره أن آدم وحواء قلدا الحيوان فى أول لقاء جنسى ، وتبع هذا التقليد تتبع العلاقات الحيوانية فيما هو من الحمل والولادة والرضاعة ، وفيما هو من الحيض والنفاس ، وتربية الأبناء ، بل وفيما هو من العلاجات العشبية . . وهذا التتبع لا يغفل المقارنة بين أعضاء التذكير والتأنيث ، ولما كانت أعضاء التذكير عند الحيوان بدون قلفة أو غرلة ، فثمة مايدعو إلى إزالة هذه القلفة عند الإنسان ، للتعرف على نتائج الإزالة ، وبخاصة أن هذه القلفة - مع إهمال النظافة - كانت تسبب متاعب لم تكن تراعى عند الحيوان ، ثم إن من اليسير تبين عدم جدوى هذه القلفة عند الإيلاج ، إذ كانت تنكمش أحياناً ، فتسبب للمرأة قدراً من الضيق ، ولعلها هى التى سعت إلى التخلص منها ، مستدلة بحرمان الحيوان منها .

وإذا كان قد خيف على الصبية - فى دور المراهقة - من الأدوات الحادة ،

فليس بسبب مواريث التخلص من الأطراف تقرباً إلى الله ، بل بسبب الاضطرابات النفسية والعصبية التي تصاحب هذه المرحلة ، وأيضاً بسبب الانفعالات والتصورات التي تزين تقليد الآخرين ، فالمرأهقة تقلد امرأة ناضجة ذات تأثير خاص ، والمراهق يبحث عن مظاهر الرجولة ، متعجلاً الظهور بها بين رفاقه .

* ولعله عن طريق السحر والكهانة نشأت طقوس الموت والدفن في الديانة المصرية ، (فلقد نتج التطور المرموق للقبور والشعائر الجنائزية في مصر - خلال الألف الثالث قبل الميلاد - عن نمو واسع النطاق لفكرتين أساسيتين : كانت الأولى عقيدة أن الأموات يواصلون بعض أشكال الوجود الطيفي ، يمكن أن يكونوا به مصدر خطر أو خير لأخلافهم من الأحياء ، كما كانوا أنفسهم فيه عرضة لمختلف الأخطار . وكانت الفكرة الثانية ماأظنه الدافع البشري الطبيعي لإمداد المتوفى بما يخصه ، وما يحتاج إليه ، وما كان يحبه على الأرض ، حتى يتمتع به ويستخدمه طالما وكيفما استطاع) .

(لقد نشأ تطور هاتين الفكرتين الأساسيتين في المقر الملكي ، وليس في أي منهما أن الروح أو النفس البشرية خالدة ، وربما كان اتخاذ البناء للقبور ، وعمق غرفة الدفن ، بما فيها من ودائع ، وإقامة القرابين الدائمة ، والأدعية ، وصور الحياة اليومية على الحوائط ، والشعائر الجنائزية ، والتمثال أو التماثيل للمتوفى ، وغير ذلك من السمات ، بما فيها التحنيط - مُعيناً على الهدف الوحيد بتهديتهم ، وإمدادهم بما اعتادوه خلال حياتهم) .

(ولما كانت هذه العادات والهدايا والقرابين مقامة من أجل الأبدية ، فلقد تطورت تدريجياً فكرة الحياة الخالدة ، فيما وراء الممات ، وفضلاً عن ذلك فلقد كان القبر يبنى إلى جوار الهرم ، ولما كان الهرم مسكناً لجسد الإله العظيم ، وهو الملك الإله المتحول ، فلقد نطقت نقوش القبور عن الرغبة في أن يقبل المتوفى الذي كان خادماً صادقاً لمليكه أثناء حياته ليكون في رحابه ، وأن يَكُن من «المسير على سبله المقدسة») .

(وكان هدف نصوص التوابيت إعطاء هؤلاء الذين استكتبوها على توابيتهم

قوة على أن ينالوا إما شكلاً من الوجود فيه قدر من النعيم فى الآخرة ، وإما - وهو الأرجح - أن ينالوا تأليها من أجل حياة أبدية ، لم تكن محتوياتها أسطورية فقط ، فكثيراً ما أضيفت حواش إلى المتلوات الفردية ، لإعلام الميت لأى غرض سحرى تتلى ، وفضلاً عن ذلك فقد كانت هناك متلوات أنسب للأحياء منها للأموات ، وفيما عدا تلك الأخيرة فإن الحواشى المضافة إلى المتلوات إنما تمثل نظرة التشاؤم السائدة بالنسبة للوجود فى الآخرة ، إذ يوصى بها على سبيل المثال - لإبقاء عمل القلب وسائر الأعضاء ، والحصول على الهواء الذى يتنفسه ، وعدم المشى مقلوباً ، أو أكل الغائط ، وتجنب موت آخر ، ثم متلوات أخرى جعلت لتحويل النفس إلى أى شكل ممكن ، منها على سبيل المثال التحول إلى الصقر الإلهى ، وإلى الإلهة حتحور ، أو إلى تمساح ، أو لهب ، أو « إلى أى إله شاء ») - أساطير العالم القديم - كرىمر - ص ٤١ / ٤٣ .

ولارىب فى أن ماجاء فى « متون الأهرام » ، وفى « كتاب الموتى » ، وفى غيرهما من النصوص الدينية لا يخرج عن صناعة الكهنة السحرة الأدعياء ، ومن ثم كانت معجزة موسى - عليه السلام - قائمة على هذا اللون من (التحويل) المبهز ، كأن تصبح العصا حية تأكل ما يأفك سحرة فرعون ، وأن تخرج يده من جيبه بيضاء من غير سوء ، وأن يضرب البحر بعصاه فينفرق كل فرق كالطود العظيم .

لقد استغل الكهنة السحرة بساطة الشعب وتلقائيته وتعلقه بالإله الشمس ، والإله الربيع ، والإله النيل ، بكل ماهو مصدر الخير والحق والعدل ، بل بكل ماهو مصدر الشرور كذلك - فصاغوا له وسائل القُربى والنجاة فى الدنيا والآخرة ، ووثقوا علاقة الشعب بالآلهة ، عن طريق الحيل والتعاويد ، وعن طريق سيطرتهم على الشعب سيطروا على الحكام ، وجعلوا بينهم وبين الآلهة نسباً ، وأكثروا من صناعة الآلهة ، محلية وعالمية ، ليتسع بذلك نفوذهم ، وتتسع مدخراتهم ومدخلاتهم .

وهذا هو شأن الكهنة مع كل دين ، حتى مع الأديان السماوية ، فكيف والدين وآلهته من صناعة هؤلاء السحرة الكهنة ؟!

إن (السحر) محاولة للسيطرة على المادة من خلال الروح ، واستغلال الطقوس الدينية لأهواء دنيوية ، فهو يعد تابعاً للدين ، مستغلاً له ، وليس سابقاً عليه .

لقد ارتبط الدين بالرجاء والخوف ، وقامت الطقوس للتقرب إلى القوى الفاعلة في الكون ، وجاء المحتالون والأذكىاء الشريريون لاستغلال هذه الطقوس ، واصطناع طقوس أخرى متولدة عنها ، ليتحقق سلطان الفرد على الجماعة ، ومن هنا لبس الساحر - على مدى تاريخ طويل - مسوح الكاهن . . ولأن السحر كان ذاتى الحركة والهدف فقد انفرد - فى مرحلة من مراحل التطور - عن الكهانة ، وأدى هذا الانفراد إلى وقوع الصدام بين السحر والكهانة ، لأن شعور الساحر بالاستعلاء وبالقدرة على العمل وحده ، وموقفه المتعجرف من القوى العليا ، وادعاؤه الوقع بالسيطرة والتسلط - نقر منه رجال الدين ، وخشوا منه على مملكتهم المؤسسة على طاعة الجماهير وعلى اقتناعها بدورهم وسطاء لدى الآلهة ، يستنزلون المن والسلوى ، ويفتحون طرقاً إلى آخرة رضية مرضية ، ويغلقون أبواب الشياطين .

وهذا الفصل بين السحر والكهانة لم يكن إلا فصلاً (وظيفياً) ، من واقع الأثرة ، والرغبة فى الاستئثار بالثمرة ، مع أن كلا من السحر والكهانة نشأ من موقع (العيلة والتطفل والادعاء والاستهواء) ، ثم افترقت الطرق ، وتشابكت ، وتشابهت ، وتخالفت ، واستعان كل فريق بما ينتج الآخر من حيل وتعاويز . . وإذا كان الكهنة قد سيطروا على المعابد ، واتخذوا من حجاب الموت ستاراً لكثير من طموحاتهم التى نصبوها مسارح لعرائس الآلهة وابتهالات الموتى - فإن السحرة ادعوا لأنفسهم (القدرة على إخضاع أعظم الآلهة لرغباتهم ، بل إنهم كانوا يهددون الآلهة فعلاً بالدمار إذا لم يستجيبوا لهم ، كما كانوا يهددون فى كثير من الأحيان ببعثرة عظام أوزيريس ، والكشف عن قضيبته المقدسة إذا أظهر الإله شيئاً من العناد أو التمرد ، ولكنهم لم ينفذوا ذلك التهديد أبداً) ، لأن أوزيريس لم يكن إلا (خيال المائة) الذى يخوفون به الطيور أكلة الثمار .

(وفى الهند نجد أن الثالوث الهندوكى الأعظم الذى يتألف من براهما وفشنو

وشيفاً لايزال خاضعاً لقوة السحرة الذين يتمتعون بفضل تعاويذهم بنوع من الشعور بالاستعلاء على أقوى الأرباب ، مما يضطر هذه الأرباب ذاتها إلى الخضوع لهم والاستجابة لما يأمرها سادتها السحرة وتحقيق مطالبهم فى الأرض أو فى السموات ، وثمة قول شائع فى كل أنحاء الهند من أن « الكون كله خاضع للآلهة ، وأن الآلهة خاضعة للتعاويذ ، وأن التعاويذ خاضعة للبراهمة ، فالبراهمة إذن هم آلهتنا » - الغصن الذهبى - فريزر - ج ١ ص ٢٢١ .

ولاشك فى أن فرض سلطان السحرة على الآلهة لا يتحقق إلا عن طريق الكهنة ، لأن الملعب واحد . والكرة واحدة ، والفريقان لا يلعبان بالكرة إلا بقدر لعبهما بمشاعر الجماهير .

* وإذا صح - كما يقول برستيد (فجر الضمير ص ٣٧ / ٣٨) - (أن الدين فى طوره الأول لم تكن له علاقة بالأخلاق ، كما نفهمها الآن ، كما أن المبادئ الأخلاقية الأولى لم تكن سوى عادات شعبية ، قد لا تكون لها علاقة بالشعور بالآلهة أو الدين ، وقد كانت مظاهر الطبيعة أول ما أشعر المصرى بوجود الآلهة ، مثله فى ذلك مثل الشعوب الأخرى القدامى ، فكانت الأشجار والينابيع والأحجار وقمم القلال والطيور والحيوانات فى نظره مخلوقات مثله حلت فيها قوى طبيعية غريبة لاسلطان له عليها ، ومن ثم كانت الطبيعة أول مؤثر مبكر فى عقل الإنسان ، فوصف له العالم الظاهرى أولاً بعبارات دينية رهيبة ، وصارت مظاهر الإلهية الأولى فى نظره هى القوى المسيطرة على العالم المادى ، فلم يكن فى تصورات الإنسان القديم - بادئ أمره - معنى لمملكة اجتماعية أو سياسية ، بل ولا معنى لمملكة روحية تكون السيادة العليا فيها للآلهة ، وكان أبعد ما يتوهمه عباده من هذه الآلهة أن إلههم يحمل فى نفسه فكرة الحق أو الباطل ، أو أنه يرغب فى وضع هذه المطالب على كاهل عباده الذين كانوا يرون من جانبهم أن غاية ما يطلب لإلههم منهم هو تقديمهم القرابين زلفى له ، كما كانوا يفعلون لرئيسهم المحلى ، سواء بسواء ، على أن أمثال هذه الآلهة فى جملتها آلهة محلية ، كل منها معروف لدى منطقة معينة فقط ، ولكن كثيراً ما يمتد الاعتقاد فى إله إلى جهات بعيدة فى العالم القديم ، بسبب الهجرة أو انتشار السكان) .

إذا صح هذا (التصور) - وقد ذكر برستيد أنه (حقيقة متفق عليها الآن) - فقد أصبح الدين ، وهو مجرد من الأخلاق ، ميسراً أظهره لركوب المشعوذين والمحتالين والخبائير ، وحين يقتصر سلطان الآلهة على القوة ، فقد أصبح الطريق ممهداً ليتحول الأقوياء إلى آلهة .

ولعل هذا ما شجع اليهود على أن يتخذوا من الإله (يهوه) رب الجنود القادر على الإبادة والمحق لكل الشعوب ، من أجل نصرة (شعبه المختار) !! بل ، لعل هذا ما شجع بعض الفلاسفة على عبادة القوة ، أو على استمراء الشهوة .

وقد يكون هذا التصور من واقع الإيمان بالفطرة الخيرة ، وأن الشرور أعراض على هذه الفطرة ، تولدت عن التطور الاجتماعى الاقتصادى .

وقد جاء فى الجزء الأول من كتاب (التحولات) لأوفيد :

(فى البدء كان العصر الذهبى ، عندما كان الإنسان جديداً ، لم يعرف الحكمة ، بل العقل السليم .

وكان بالفطرة ينهج نحو الخير .

لم يعرف رهبة العقاب ولا الخوف .

كانت كلماته بسيطة ، ونفسه صادقة .

وكان القانون المدون غير لازم ، لعدم وجود مضطهدين .

كان قانون الإنسان مكتوباً فى صدره .

ولم تظهر جموع الناس أمام القاضى .

ولم تكن المحكمة قد أنشئت ، ولم يسمع بكلمة دعوى .

وكان كل شئ بآمان ، لأن الضمير كان هو الحامى) .

كلام شاعر يقارن بين ماض لا يعرفه بحاضر يضيق به ، ونسى أن حب الامتلاك غريزة ، وأن الطمع غريزة ، وأن الغضب غريزة ، وأن الإنسان الأول

لا يختلف عن الإنسان اليوم إلا من حيث اختلاف شكل المؤثرات والوسائل ،
وصدقت الملائكة : ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ ١٩ . . إنها
طبيعة (المجتمع) حتى فى عالم الحيوان ، حين يكون اللقاء على فريسة يكون
الصراع ، وحين تجتمع الذكور والإناث يحتكم الذكور إلى القوة . . كأن الأمر
لا يعدو النظر إلى الماضى نظرة الأسى على مافات !!

حتى الفيلسوف « سنيكا » أخذ مأخذ « أوفيد » ، وقال :

(فى المجتمع البدائى عاش الناس معا بسلام وسعادة ، وكان كل شئ مملوكا
لهم ، على الشيوخ ، ولم تكن هناك ملكية فردية . . ويمكننا الاستدلال على أن
العبودية لم تكن موجودة ، وكذلك الحكومة المستبدة ، وكان النظام على أحسن
مايرام ، لأن الناس اتبعوا الطبيعة بشكل حتمى ، وكان حكامهم هم أكثرهم
حكمة ، وكانوا يوجهون الناس ويرشدونهم إلى مافيه خيرهم ، وكانوا
يطاعون برضى ، لأن أوامرهم كانت حكيمة وعادلة ، وبمرور الزمن
اختفت البراءة البدائية ، وأصبح الناس جشعين ، ولا يكتفون بالمتعة العامة
بالأشياء الجميلة فى الدنيا ، ورغبوا فى أن يحتفظوا بهذه الأشياء لأنفسهم
ويمتلكوها ، ومزق الجشع المجتمع السعيد إربا إربا ، وحل الطغيان محل مملكة
الحكماء ، واضطر الناس إلى خلق القوانين التى تقيد حكامهم) .

ألا يتحدث هذا الفيلسوف بلسان من يقول كانت البيضة بجليم ، والشوارع
ملأى بإعلانات (شقق للإيجار) ، أو كان القتال بالسيوف ، ولم تكن الطائرات
والصواريخ ، مع أن لكل زمن إمكانياته وقدراته ومتاعبه ومسراته ، والإنسان
بغرائزه وشهواته هو الإنسان .

ألم يخطر ببال هذا الفيلسوف أن قابيل قتل أخاه فى بداية التاريخ الإنسانى ؟
ألم يرصد ما يصنع الأطفال إذا لم تكن إلا لعبة واحدة ؟ ألا يكون مجتمع
الأطفال مؤشراً إلى الطفولة الإنسانية (الأولى) ١٩ ؟

وذهب جودوين فى كتابه (العدالة السياسية) الذى نشر لأول مرة سنة
١٧٩٣م (إلى أن شرور المجتمع لم تنبع من طبيعة الإنسان الخاطئة والفسادة ،
بل من الآثار السيئة لمؤسسات القمع ، فالإنسان يملك قدرة غير محدودة على

التقدم ، وإن مؤسسات القمع والجهل هي وحدها التي تعترض هذا التقدم -
فكرة القانون - دينيس لويد - ص ٢٤ .

ولم يسأل المفكر (الشهير) نفسه من أين جاءت مؤسسات القمع ، ومن الذي
أعانها وعمل تحت لوائها .

ويدخل في إطار (الماضى السعيد) الذى هو أشبه (باليمن السعيد) قول السير
هربرت ريد : (إن أفضل رسومات كُهوَف ألثاميرا ونيو Niaux ولاسكو تكشف عن
مهارة بيراندلو أو بيكاسو) .

وقال : مونتياجو معلقاً على قول ريد (البداية - ص ١٧) :

(إن فى الأعمال الفنية التى أنتجها إنسان ما قبل التاريخ الذى عاش ما بين
١٥٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ سنة خلّت أوضح دليل على أن هذا الإنسان - بوصفه
فناناً - قد بلغ من الرقى ما بلغه أى إنسان عاش بعده . وعندما نتذكر أن هذه
الأعمال لم تخلق كأعمال فنية ، بل كجزء من الطقوس السحرية الدينية التى
قصد منها النجاح فى الصيد ، وأن الظروف التى خلقت هذه الأعمال فيها كانت
من أصعب الظروف ، سواء حين كانت ترسم على أعالي الجدران ، أو على
السقوف ، بينما يستلقى الفنان على ظهره ، ويعمل تحت الضوء الباهت المنبعث
من لهيب الزيت الداخن . . عندما نتذكر ذلك ، فإن تلك الإنجازات لابد أن تثير
فينا العجب ، وليس من شك فى أن الأفراد القادرين على استخدام مثل تلك
المهارات كانوا يتميزون بدرجة من الذكاء لا تقبل روعة عن تلك التى يملكها
الإنسان المتمدين المعاصر) .

وهذا قول لا يتجاوز قول أوفيد وسنيكا ، لأن الفن - وإن نشأ فطرياً - لابد
من أن يتطور بتطور الأدوات ، وتطور المواهب ، وإعجابنا بالفن البدائى لا يخلو
من وضعه فى إطار إمكانياته المحدودة ، وإلا فمن غير المعقول أن تتطور الآلات
وتجسد الملكات ، إلا إذا وضع فى الاعتبار أن للحضارة دورات . . وإذا كان
الإنسان قد وجد منذ عشرات الآلف من السنين أو مئاتها ، فلا يمكن أن يظل هذا
الزمن الطويل غير قادر على التطور ، حتى يسكن وادى النيل أو أى واد آخر ،
ثم يكتشف الزراعة ، ويأخذ فى التطور . . ألا ينبغى الوقوف عند قصة نوح -

عليه السلام - الذى صنع السفينة متعددة الطوابق ، بحيث تحمل من كل زوجين اثنين ، من صنوف الحيوان والنبات ، غير من آمنوا به من قومه ؟!

ولعل القول بأنه لا وجود لشيء اسمه (الإنسان البدائي) أو (العقل البدائي) ، بل بوجود بشر يعيشون فى ثقافة «بدائية» ، أو مجتمع «بدائي» ، أقرب إلى الصواب ، وفى هذه الحالة (تُعزى مسؤولية انعدام التقدم إلى غياب الفرص ، لا إلى العجز الطبيعى) - البدائية - ص ٣٥ .

وهذا يعنى أن الإنسان يولد مزوداً بالموهب والملكات التى تحميه وتعينه على تسخير الطبيعة ، لتحقيق رسالته (خليفة الله فى الأرض) .

وحسبك ما يذكره العلماء عن مملكتى النمل والنحل ، وما يؤكدونه عن قيام النمل بزراعة الأرز ، حرثاً وبذراً ورياً وحصاداً وتخزيناً .

يقول إركسُنْ - البدائية ص ١١٧ : (وقد أوضح اكتشاف النظم البدائية لتربية الأطفال أن المجتمعات البدائية لا هى بالمرحلة الطفولية من تطور البشر ، ولا هى انحرافات متوقفة عن النمو عن المعايير التقدمية الفخورة بنفسها التى تمثلها نحن ، إنها شكل كامل من أشكال الحياة الإنسانية الناضجة التى غالباً ما تتصف بالتجانس والاكتمال بشكل حرى به أن يستثير فينا الحسد) .

وبدون (حسد) فإن الإنسان ابن بيئته ، وكما أن الحيوان يتشكل بشكل البيئة ليحمى نفسه ، كذلك الإنسان تشكله طبيعة المناخ ، ونوع الطعام ، ولون الثقافة ، والمهنة التى يمتثلها ، والزوجة التى تكيفه أو تتكيف معه ، والحكومة التى تحكم به أو تتحكم فيه .

وذوو المواهب المتميزة يتحولون فى المجتمعات البدائية إلى متنبئين وسحرة ومصلحين ، ويتحولون فى المجتمعات الراقية إلى مخترعين وكهنة ومتاجرين فى الأغذية الفاسدة والأبنية الفاسدة والأسلحة الفاسدة والشعارات الفاسدة .

ذوو المواهب المتميزة - كما لاحظ ماكس فيبر - يجرءون (على كسر طوق العادات القديمة ، التى لم تعد صالحة للأوضاع المتغيرة) ، وكشف (اتجاهات جديدة) ، قد تكون أفضل من سابقتها ، وقد تأتى على الأخضر واليابس .

لقد امتلك الإنسان منذ البداية القدرة على أن يباشر الحياة ، وأن يرقى بها وترقى به ، أو أن ينتكس بها وتنتكس به ، وصدق الله سبحانه ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿ ، وقد قدم - جل شأنه - «الفجور» على «التقوى» لأنه الأقرب إلى الهوى ، وإلى إشباع الغرائز . . ومن هنا كانت القوة الحقيقية هي القوة الفاعلة في كبح جماح الهوى ، وأن يمك الإنسان نفسه عند الغضب ، أو عندما تنزوبه نزواته ، غروراً ، وتكبراً ، وتحجراً .

ومن هنا أيضاً كان لابد من تدخل السماء في تعديل مسيرة الإنسان .

* حين اتهم الملائكة الإنسان بالإفساد وسفك الدماء ، أعطاه الله القدرة على المعرفة ، ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ ، وسخر له كل مافى الأرض والسماء ، حتى يمارس (الخلافة) ممارسة واعية رشيدة ، وزوده ببوصلة مغناطيسية ، تسمى (الضمير) ، أو الحاسة السادسة ، أو (الوعى) ، لتحديد الاتجاه الصحيح ، وأتى علماء الأنثروبولوجيا ، والإثنولوجيا ، والأركيولوجيا ، والإيكولوجيا ليزعموا أن الضمير تكونه العادات والأعراف ، أى أنه مكتسب ، وأنه موجه ، وليس جبلة بشرية . (١)

أما ما قاله ت. هـ. جرين من (أنه لا يمكن لإنسان أن يكون لنفسه ضميراً ، وإنه يحتاج دائماً إلى الجماعة لتكون له) - فإن (تكوين الضمير) يقصد به مجموعة الأخلاقيات التي تكون موضع الرضى والسخط بالنسبة للآخرين . . لكن هذا لا يمنع الوجود الفطري لهذا الشيء الذى يستشعر هذه القيم ، ويتلقى منها .

ولعنا نجد (أثارة) حيوانية ، تتمثل فى كثير من الضواري والزواحف الخبيثة ، التي لاتعتدى على طفل ، بل قد تحتضنه ، ولا تقتل نائماً ، فى كثير من الأحوال ، وبالإضافة إلى هذا كله يرسل الرحمن الرحيم رسله إلى الناس مرشدين هداة ، مبشرين ومنذرين .

(١) ذكر توبى هاف (فجر العلم الحديث ج١ ص ١٥٦) أن فكرة الضمير غير معروفة لالدى المشرعين ولا لدى الفلاسفة المسلمين ، فاعجب لهذا المؤلف الذى قامت قيامة تحرير سلسلة عالم المعرفة (مقدمة الجزء الثانى من هذا الكتاب) دفاعاً عن أفكاره واستنكاراً لموقف المترجم الذى اختاروه فسقه مثل تلك الأفكار .

العلاقة بين السماء والأرض لم تنقطع ، ولن تنقطع ، لأن خطوات الإنسان على هذه الأرض لاتأخذ طريقاً آمناً ، ولهذا قال الرسول الأمين (يرسل الله على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة دينها) .

يقول ماكس مولر : (مهما نرجع بخطوات الإنسان إلى الوراء ، فلن يفوتنا أن ننبين أن منحة العقل السليم المستفيق كانت من خصائصه ، منذ أوائل عهده ، وأن القول بإنسانية متسلسلة على التدرج ، من أعماق البهيمية ، إنما هو قول لن يقوم عليه دليل) .

ومصادقاً لهذا الرأي - كما يقول الأستاذ العقاد - الله ص ١٧ - يرجح مولر أن الإنسان قد تدين منذ أوائل عهده ، لأنه أحس بروعة المجهول ، وجلال الأبد الذى ليس له انتهاء ، وأنه مثل لهذه الروعة بأعظم ما يراه فى الكون ، وهو الشمس التى تملأ الفضاء بالضياء ، فهى محور الأساطير والعقائد ، كما ثبت له من المقابلة بين اللغات واللهجات .

وإذا قيل لمولر إن (الأبد) أو اللانهاية معنى لاتوجد له كلمة فى اللغات الهمجية ، ولا الحضارة الأولى ، قال إن الإحساس بالمعنى يسبق اختراع الكلمات ، وقد ثبت أن الإنسان الأول لم يضع فى لغاته كلمات لبعض الألوان .

ويؤيد مذهب مولر - كما يقول الأستاذ العقاد - الله ص ٣٠ - أن الإنسان ولد مزوداً بجميع الملكات النفسية ، وإن احتاجت إلى مرانة وصقل ، مثل الشعور على البعد ، والتوجيه على البعد ، والتنويم المغناطيسى ، وقراءة الأشياء أو معرفة الأخبار عن الإنسان من ملامسة بعض متعلقاته ، كمنديل أو قلم أو خاتم أو علبة ، أو ما شاكل هذه المعتقدات ، وتفسير الأحلام ، والاستيحاء الباطنى ، والوسواس ، واستطلاع المستقبل ، واستطلاع الماضى ، والكشف ، وتحضير الأرواح .

(وكل هذه الملكات قديم معهود فى جميع الأجيال والعصور ، لم يجد عليه إلا التسمية العصرية ، ومحاولة العلماء أن يحققوه بالتجربة والاستقصاء) .

(وربما كان أشيع هذه الملكات وأقربها إلى الثبوت ، وأغناها من أدوات المعالجة والتناوب بأساليب التلقين والتدريب هو الشعور على البعد ، أو

التلباثنى ، كما سُمى فى أواخر القرن التاسع عشر ، تركيباً مزجياً من كلمتى البعد والشعور فى اللغة اليونانية) .

وكان الكاتب الأمريكى سنكلير ، الذى يؤمن بالفلسفة المادية دون غيرها ، يجرب الشعور على البعد بينه وبين زوجته على ملأ من الشهود . . كانت تجاربه فى معظمها تدور على الرسوم والأشكال ، فيطلب من بعض الحاضرين أن يختار له شكلاً هندسياً أو حيوانياً ، ثم يحصر ذهنه فيه ، وزوجته فى بلد آخر تتلقى عنه شعوره فى تلك اللحظة ، فإذا هى ترسم الشكل بعينه ، وقلمما يكون الاختلاف فى غير الحجم أو درجة الإتقان . . وقد سُمى سنكلير هذه الظاهرة بظاهرة الإشعاع الإنسانى ، لأنه لا يؤمن بأسباب لنقل الأفكار والأحاسيس غير الأسباب التى من قبيل أجهزة البرق والمذياع - الله ص ٣٢ .

وقبائل الهوتنتوت الإفريقية لم تفارق مرتبة الهمجية حتى اليوم ، ولا يزال أناس منها يأكلون لحوم البشر ، تعرف إلها واحداً فوق جميع الآلهة يسمى أبا الآباء .

وقبائل البانتو الأفريقية يقسمون المعبودات إلى ثلاثة أنواع : نوع هو بمثابة الأطياف الإنسانية الراحلة ، ونوع هو أرواح لم تكن قط فى أجسام البشر ، ويزعمونه قابلاً للتفاهم والاتصال بالعرافين والحكماء ، ونوع مفرد لا جمع له ، وليس من الأطياف ، ولا من الأرواح المتعددة ، لا يمثلونه فى وثن ولا تعويذة ، ولا تفلح فيه رقية الساحر ، ولا حيلة العراف ، وفى يديه الحياة .^(١)

وكفار العرب كانوا قبل البعثة المحمدية يسمون أبناء هم بعبد الله وتيم

(١) جاء فى كتاب (الديانات القديمة ص ٢٩ / ٣٥) للدكتور/ رشدى عليان ، أن الدراسات التى قام بها (هوايت) فى قبائل استراليا الجنوبية الشرقية ، والتى قام بها (مان) فى القبائل الأفريقية البدائية ، كالبوشمان والهوتنتوت والزولو وغيرها ، من قبائل جنوبى أفريقيا ووسطها ، وبعض قبائل الهنود الأمريكيين ، وكتابات مسز باركر عن بعض قبائل استراليا وقصصهم - قد أوصلت هؤلاء العلماء وغيرهم إلى أن هذه القبائل تؤمن بوجود إله أعلى .

وعلى هذه الأبحاث والدراسات استخلص (لالنج) أن أول ديانة إنسانية ظهرت فى الوجود هى ديانة التوحيد ، باعتبار أن هذه القبائل تمثل أكثر القبائل بدائية ، وأقربها إلى الحالة الأولى التى كانت عليها الإنسانية .

ويقول (لالنج) : إن الإنسانية عاشت فترة حياة مليئة بأسمى المعانى ، ولكن ثمه تحلل حدث بعد =

اللَّهُ ، ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ ، ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ - ومع هذا كانوا يعبدون أسلافهم ، إذ يقال إن أصنام الكعبة تماثيل قوم صالحين ، كانوا يطعمون الطعام ، ويصلحون بين الخصوم ، فماتوا ، فحزن عليهم أبناؤهم وإخوانهم عليهم ، وصنعوا تلك الأصنام على مثالهم وعبدوهم من فرط الحب والذكرى ، لكنهم لم يعبدوهم إلا ليقربوهم إلى الله زُلْفَى - الله للعقاد ص ٢٢ .

فالحقيقة التي لا مرية فيها أن (الوعي بالله الواحد) فطرة : وصدق الله سبحانه ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾ .

= ذلك في عهد من العهود البدائية .

كانت فكرة الإله الخالق ليست بحاجة إلى العطايا والمنح ، وكانت تنهى عن الشهوات والعداوات ، وتمنع الناس عن الظلم والجور ، ولا تهمد العون للبدائي في حروبه ، ولا تهيب القوة تجاه الأمراض السحرية ، وكثيراً ما كان البدائي يضحي للإله لكي يحقق عملاً من الأعمال ، فلا يتحقق ، فيندفع إلى التماس مطلبه من موجودات خفية ذات صفة طلسمية ، وكانت أولى هذه الموجودات هي الأشباح ، والنفوس ، وقطع الإنسان شوطاً كبيراً في التوجه إلى هذه الموجودات ، فنشأ عن ذلك أنه : ١ - أهمل فكرته الصافية عن خالقه . ٢ - اعتبر خالقه أحد القوى الكبرى بجانب القوى الأخرى الأسطورية ، ونسب له كثيراً من صفات تلك القوى ، وقدم له القرابين كما قدم لها .

وقطعت الإنسانية شوطاً ظهرت فيه فنون ومهن ، فأصبح لكل فن ومهنة إله ، وظل هذا الحال حتى جاءت الديانات السماوية بالتوحيد في آجل مظاهره .

ونظرية (شميدت) التي تقوم على المنهج التاريخي في علم الأجناس ، طبقها على أقزام وسط أفريقيا ، وجزائر الإنديمان ، وبعض جزائر الفلبين ، فبحث حالتهم الاجتماعية والدينية ، وانتهى إلى أن الأقزام يؤمنون بوجود إله أعلى ، وأن بعض القبائل الاسترالية والسكان الأصليين في أمريكا ، يؤمنون بوجود إله في السماء .

وقد نسبت هذه القبائل البدائية إلى هذا الإله العلم والقدرة والأزلية والأبدية ، كما نسبت إليه الخير والثواب والعقاب ، وأنه الذي أقام دعائم الأسرة بتحديد علاقة الزوج بالزوجة والأولاد ، كما أنه مصدر القواعد الخلقية التي تحقق الخير والفضيلة . . هذا بالإضافة إلى الاعتقاد بأنه ليس ثمة إلا إله واحد ، وقوة واحدة تسيطر على جميع المجتمعات .

* عيب هذه الدراسات افتراض أن هذه المجتمعات البدائية تمثل أولية المجتمع الإنساني ، مع أن علم التاريخ وعلم الآثار يؤكدان أن فترات التخلف التي يعانيها مجتمع إنساني سبقت بحضارة مزدهرة ، وأن هذه الحضارة قامت على أنقاض حضارة بائدة ، قديمة أو بعيدة !!

يقول الأستاذ العقاد - الله ص ١٨٧ - إن البراهين جميعا لاتغنى عن «الوعى الكونى» فى مقارنة الإيمان بالله ، والشعور بالعقيدة الدينية ، وإن الإحاطة بالحقيقة الإلهية شئ لاينحصر فى عقل إنسان ، ولا فى دليل يتمخض عنه عقل إنسان ، وإنما الترجيح هنا بين نوعين من الأدلة والبراهين ، وهما نوع الأدلة والبراهين التى يعتمد عليها المؤمنون ، ونوع الأدلة والبراهين التى يعتمد عليها المنكرون ، فإذا كانت أدلة المؤمنين أرجح من أدلة المنكرين فقد أغنى الدليل غناه ، وأدى القياس رسالته التى يستطيعها فى هذا المجال ، وهى فى الواقع أرجح وأصلح للاقتناع بالفكر ، فضلا عن الاقتناع بالبداهة ، كما يبدو من كل موازنة منصفة بين الكفتين .

* إن مفهوم « الفطرة » ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ لاتعنى أكثر من الشعور بالحاجة إلى قوة عظمى تنجيهم من ظلمات البر والبحر والجو ، ومن فتنة المحيا والممات . . وهذه (القوة العظمى) - إذا لم يكن (وعى) ، أو إذا تقادم عهده - تتشكل من خلال مشاعر وهواجس وأحلام واجتهادات عقلية ووجدانية ، فيكون الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى ، متصفاً بالكمال (المطلق) ، وبالوحدانية (المجردة) من كل مايقع فى وهم واهم ، وفى الوقت نفسه يمكن أن يصير شمسا ، أو بوذا ، أو المسيح ، أو أحد سكان القبور ، وقد يتحول إلى أفراد الشجر والمدر ، كما يحدث فى الكوابيس !!

وكان الأجدر بالباحثين فى الآثار والحفائر أن يضعوا فى الاعتبار ما صنع آدم ونوح وإدريس وبقية الرسل والأنبياء ، حتى يجدوا إجابات عن كل ما طرحوا من أسئلة عن سر تلك الطفرات الإنسانية فى مراحل وفى أنحاء مختلفة من العالم ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ - صدق الله العظيم .

تخرصات

- ١ -

يقول أدولف إرمان (ديانة مصر القديمة ص ٤) :

(لقد استطاع الإنسان أن يميز نفسه عن الحيوان بصفات عدة ، استمدتها فى أول الأمر مما يحيط بالحيوان من انفعالات ، فصراخ الحيوان ، ومناداة الذكر للأنثى ، تطّور عند الإنسان ، وجعل منهما لغة التخاطب ، كما أن غريزة التجمع عند الحيوان فى قطع هى التى دفعت الإنسان إلى إنشاء الأسرة ، ومنها تكونت الدولة ، أما ذلك الدافع المبهم عند الحيوان للإبقاء على النسل فهو الذى أئمنى العاطفة ، ودفع الإنسان إلى الزواج ، وكذلك كان الشعور الغريزى بالخوف والفرّ عند الحيوان من كل ماهو مجهول سبباً دفع الإنسان إلى احترام كل القوى التى تؤثر فى حياته ، دون أن يتعرف كهنها ، ومن هذا الشعور بعينه نشأت الديانة التى لم تكن إلا الاعتقاد المسيطر على ذهن الإنسان من أن هناك قوى تحيط بالإنسان وتؤثر فيه) .

ونسى إرمان أن الإنسان حيوان ، ويتميز عن غيره من الحيوانات بأنه عاقل ناطق ، أى أن الصفات الحيوانية غريزة فيه ، لا تحتاج إلى تقليد ، وإن كان يمكن الاستفادة من تجارب الحيوانات لأنها الأسبق وجوداً ، لكنه الأقدر على التطور والتحضر والانطلاق فى مجالات التجريب والإبداع ، وتسخير كل الكائنات سواء ، بل تسخير الأقوى للأضعف فى عالم الإنسان .

ومن هنا فأى حديث عن الإنسان يعطيه الأصالة ، أما ما هو من انفعاله

بالبيئة وتأثره بها فأمر هو من طبيعة أصالته ، أى إن ما أوتى من مشاعر وعواطف ورهافة وسعة إدراك تجعله يميز بين الجمال والقبح ، وبين الخير والشر ، فيغضب ويثور ، وينبسط ويرق ويلين ، وقد يسعفه الخيال فيبالغ فى التميز ، ويصل بالجمال والجلال إلى حد القداسة ، ويصل بالقبح والدمامة إلى حد التعاسة ، وقد يبلغ به الانفعال حد الجمع بين القداسة والتعاسة ، فيزاوج بينهما .

ولعل هذا من عوامل مايعرض من تناقضات يقع فيها الإنسان ، حين يخضع للظواهر التى لايجد لها تفسيراً (مألوفاً) لديه ، فيلجأ إلى الخيال ، مصطنعاً تفسيراً أو أكثر يريحه ، أو يجد له صدقاً فى نفسه ، ويتم توارث هذه التفسيرات مع الإضافة ، أو الانتقاء ، أو التحريف والتعديل ، وكثيراً مايضفى القدم على (الموروثات) هالات مضيئة ، تشعّ معانى مجردة ، لها فى الحياة العملية أكثر من جاذبية ، وأكثر من إحياء .

وهذا ما يمكن أن يشير إليه قول إرمان (ص ١٥) :

(إذا أراد رجل من عامة الشعب أن يفكر فى شئ لا يدركه ، ولا يستطيع فهم عناصره ، فهو لا يستعين فى تفكيره بالمنطق ، بل يعتمد على الخيال ، فمثلاً لا نراه يبحث مدققاً فى ماهية السماء ، أو الأرض ، بل يعتمد بما له من شاعرية متوثبة أن يقارن السماء بشئ مما تعود فى بيته ، دون أن يتساءل عما إذا كان هناك أى تقارب بينهما ، فهو يسمي السماء بالبقرة ، وفى ذلك لم يفكر إطلاقاً أن يحقق هذه المقارنة تحقيقاً دقيقاً . . وأصبح من المعتاد التحدث عن السماء على أنها بقرة ، وجاء الفن فرسمها على هذا الشكل وجرى العرف على هذا التمثيل سواء فى اللغة أو الفن) .

ومع أن عبارة (أصبح من المعتاد التحدث عن السماء على أنها بقرة) ليست (علمية) ، لأن (الباحث) استنطق بعض الصور بما أراد - فإننا نقف عند عبارة (رجل من عامة الشعب) ، وإن كان (الخيال) الذى ينزع إلى هذا (التشخيص) التقريبي هو من شأن الشعراء والفنانين فى أزمنة الحضارة المتقدمة ، حتى اليوم ، ومن هنا فالذين أوثوا حظاً من سعة الفكر ودقته ، ومن بعد الخيال وطموحه - توحى لهم السماء بما هو أعظم من البقرة ، وقد يصل الأمر إلى حد (التجديد) ،

والوقوف عند باب (المطلق) ، وهذا هو ما هدف إليه ابن طفيل في قصته (حتى بن يقظان) .

* أما ما ذهب إليه فرانسوا دوماس (آلهة مصر ص ٢١ / ٢٢) من أن اللغة المصرية لم تكن (في العصر القديم تعرف التجريد ، وعندما كانت تريد التعبير عن فكرة كانت تستخدم لفظاً معيناً محسوساً ، وعلى هذا فإن معنى التفكير والذكاء كان يعبر عنه بلفظ « قلب » الذي كان يظن المصريون أنه مقرهما) .

فكان العالم الكبير قد فاتته أن المعاجم الحديثة - على مستوى اللغات العالمية - تعبر عن كثير من (التجديدات) بألفاظ المحسوسات ، وإذا لم يكن ينسب إلى (القلب) في لغة فإنه ينسب إلى (المخ) في لغة ، وإلى (الحس) أحياناً .

ثم إنه يعلم أن الكتابة المصرية (مصورة) ، فكيف ترسم مجرداً كالحب والبغض والجمال والقبح إلا عن طريق الصورة؟! إننا إلى اليوم كثيراً مانستعين بالمحسوسات في تصوير المجردات ، نستعين - في عصر الألكترونيات وغزو الفضاء - بالغزال والقمر ، وبالسيف والرمح . . وهذه ظاهرة غير منكورة في جميع اللغات ، وفي جميع الآداب .

(إن جزءاً كبيراً من ألفاظنا المجردة ترجع إلى هذا المصدر عينه - هكذا يقول دوماس - إن ألفاظ فكرة وفهم وعقل كانت في الأصل أموراً أو عمليات معينة محسوسة تماماً) .

(ولهذا كان على المصرى أن يبحث عن صور لتأدية آرائه وقد لجأ للتعبير عن قدرة الله إلى القول بأنه ثور ، دون أن يزعجه عدم توافق الصورة مع مجال النص ، وعلى هذا النحو قال عن « تحوت » إله القمر إنه « ثور النجوم » ، كما لجأ للإيحاء بالعناية الربانية إلى تصوير الله في صورة راع) .

(ويصف شاعر لاهوتى « آمون » في منظومة تتحدث عن قدرته المطلقة المخيفة على التعاقب بأنه أسد ذو نظرة متوحشة ، وثور في حالة انتصاب ، وتمساح يسرق ويذهب بمن يهاجمه) .

وهذا الشاعر وغيره لا يمثل معتقداً ، ولا يُعَدَّ حكماً على لغة ، ومادام

الإجماع على ضياع أكثر المأثورات المصرية بفعل الزمن ، أو بفعل (الجهل)
باللغة ، فإن هذه الأمثلة التي أوردها دوماس لاتزيد على كونها مجرد (لَقَى) عثر
بها فى طريق مجهول .

ومع هذا ، فلجلال الدين الرومى قصة (شعرية) تقول إن موسى - عليه
السلام - مر براع ، فإذا الراعى ينادى ربه قائلاً : ليتنى أعرف مكانك فأقوم على
خدمتك ، أقم لك البيت ، وأغسل ثيابك ، وأعدّ طعامك ، فنهزه موسى ،
وقال له : لقد كفرت ، فإذا الله - سبحانه - يعاتب موسى قائلاً له : كيف تنفّر
أحبابى ؟

أراد الجلال الرومى أن يقول ليست العبرة بما تقول ، إنما بما تحسّ به من خشية
ولجلال .

وهل فاتنا ذلك الشاعر الذى قال للخليفة الأموى :

أنت كالكلب فى وفائك للود .: وكالتيس فى قراع الخطوب

لو أننا حذفنا أداة التشبيه لنصل إلى مايسمونه « التشبيه البليغ » ، وحكمنا
على الشاعر بعقلية دوماس ، لوجب شنق الشاعر ، مع أن الخليفة أجزل له
العطاء !!

ومادام الإنسان يفعل بما حوله ، وقد نتوسع فنقول إنه (ابن بيثته) ، فليس من شك - كما يقول إرمان فى (ديانة مصر القديمة - ص ٥) - (أن الشعب الذى يعيش مستقرا فى حقوله الخصبة يفكر فى آلهة تختلف - فى كُنْهها - عن تلك التى يتخيلها شعب صحراوى لا يعرف الاستقرار) .

ولقد حظيت مصر بظاهرتين عظيمتين طبيعيتين : (أثرا - كما يقول بريستيد فى فجر الضمير ص ٤٣ / ٤٧ - أعظم تأثير فى سكان وادى النيل ، هما الشمس والنيل ، فقد تصور القوم فى هاتين الظاهرتين إلهين ، هما إله الشمس «رع» ، وإله الخضرة «أوزير» ، وقد دخلا فى دور التنافس ، منذ عهد مبكر جداً ، فكان كل واحد منهما ييغى لنفسه أسمى مكانة فى ديانة القوم) .

(ومن المحتمل جداً أن أقدم صورة تخيلها المصرى لإله الشمس يرجع تاريخها إلى عصر ما قبل التاريخ ، عندما تخيل صيَّادو مناقع الدلتا إله الشمس فى شكل صياد يدفع أو يجدف فى زورق ، ليعبر مستنقعات الغاب ، وقد عبّر عن هذا التصور فقرات من « متون الأهرام ») .

(وهذا الإله «رع» الذى تصوره أقدم سكان وادى النيل فى شكل إنسان ، جعلوا مقره هليوبوليس ، حيث حل محل إله شمس قديم ، يدعى «آتوم» ، أعظم إله فى مصر) .

(وفى «إدفو» تقمص إله الشمس صقرا ، لأن تخليق هذا الطائر المرتفع تخيله القوم رفيق الشمس فى علوها ، يقوم بطيرانه اليومى عبر السموات . . من أجل ذلك أصبح قرص الشمس ذو الجناحين المنشورين أهم رمز فى الديانة المصرية القديمة ، وكان إله الشمس - بصفته صقرا - يسمى «حور» أو «حوريس» ، أو «حوراختى») .

(وقد ابتدأت عملية مزج فى عهد مبكر بين الآلهة ، حتى صار إله الشمس يسمى «رع حوراختى» ، أى حور الأفق ، أو «رع آتوم» . . وقد أسرع كبراء رجال المعابد المحلية إلى التعجيل بهذه العملية ، إذ كان كل من تلك المعابد

يجرى وراء نيل الشرف بادعائه أن مكانه هو الذى ولد فيه إله الشمس). (١)

(وقد انحدرت هذه الفكرة إلينا عن طريق الأدب العبرانى فى تشابهه مثل ، «جناح الصباح» . . «شمس العدالة التى تحمل الشفاء فى جناحيها»).

(وقد كان إله الشمس حامياً لفرعون وحليفاً له ، فإن متون الأهرام تقول عنه ، « إنه يمكن له مصر العليا ، ويمكن له مصر السفلى ، ويهدم له معاقل آسيا ، ويخضع له كل الناس - المصريين - الذين سواهم بأصابعه »).

هذا كله حق ، ودليل على البذرة التى نمت فى تورا (شعب الله المختار) ، لكنه حق مرهون بالتعبير الأدبى ، فلم يكن القوم لينقشوا على جدران معابدهم عبارة غير منتقاة تكون من موروثاتهم .

فهذا النيل (كل من يراه فى فيضانه تدب الرعشة فى أوصاله ، أما الحقول فهى تضحك ، وأما الشواطئ فتكسوها الخضرة ، وتتساقط هدايا هذا الإله ، وتعلو الفرحة وجوه البشر ، أما قلوب الآلهة ، فتخفق من السعادة) - ديانة مصر القديمة - ص ١٦ .

وقد يتم الجمع بين حابى وأوزير (إذ ترقد الأرض قاطبة على أوزيريس الميت ، وتزلزل زلازلها إذا تحرك ، ويجرى النيل من عرق أصابعه ، يهب الناس الحياة من أنفاسه ، وتنمو فوقه الأشجار والنباتات والحبوب وجميع الثمار ، ويجثم فوقه كل ماتشيد يد الإنسان من قنوات ومنازل ومعابد وآثار ومقابر ، وغير ذلك من الأشياء العديدة التى ليس من اليسير تدوينها دون أن يئن أو يتضجر من العبء الذى يحمله) - المصدر السابق ص ٥٠ .

(١) يذكر صاحب (التراث المسروق ص ٧٥/٧٧) أن المصريين القدماء كانوا عبدة نار ، لإيمانهم أن النار هى خالق الكون (ميز = Pgr = نار) ، ويرجع بامبليكوس صناعة الكون من النار إلى الإله المصرى (بتاح) إله شئون الخلق ، ويقول سوينبورن كليمر فى كتابه (فلسفة النار) : إن دراسة أسرار الإلهين المصريين إيزيس وأوزيريس تبرز على الفور أنها فلسفة نار خالصة ، وقد حاول فيثاغورس بيان أن النار أساس الخلق وتبعه كل من هرقلطس ، وأناكساجوراس وديمقريطس وسقراط وأفلاطون ، مستخدمين مصطلح العقل الكونى Nous ، وأيا كان اسمه ، هو نار ، قوامه ذرات نارية .

وهكذا ، أخذت الآلهة أشكالاً أدبية أسطورية ، وليست الأسطورة إلا تعبيراً رمزياً عن حاجات بشرية لايسهل التعبير عنها ، أو تقصر العبارة عن تأطير آفاقها .

ولما كانت قصة (الخلق) أبعد ماتكون عن (الإدراك الشعبى) فقد سعى (الأديب) المصرى إلى التصوير الأسطورى ، ليكون أقرب إلى (الوجدان الشعبى) .

جاء فى تعاليم المدينة المقدسة « هليوبوليس » عن بدء الخليقة :

عندما تكوّن إله الشمس - أتوم - فى المياه الأبدية - نون - قبل أن تكون السماء والأرض ، وقبل أن تخلق الدودة أو العلقه ، لم يجد مكاناً يقف فيه ، فوقف فوق تل ، ثم صعد فوق حجر الـ « بن بن » فى هليوبوليس ، وبعدئذ وجد نفسه وحيداً ، ففكر فى أن يخلق لنفسه زملاء ، فحمل من نفسه ، وتقل ، فكان الإله « شو » والإلهة « تفنوت » ، وأنجب « شو » و « تفنوت » الإلهين « جب » إله الأرض ، و « نوت » إله السماء ، كما أنجب « شو » و « تفنوت » أوزيريس وست وإيزيس ونفتيس ، ثم تكاثر الأبناء - ديانة مصر القديمة ص ١٠٣ / ١٠٤ - حتى تجاوزوا الثمانمائة ، (هى أسماء الأرباب والربات والكائنات الأسطورية الأخرى) التى جمعها وليس بدج فى قاموسه الهيروغليفى . (١)

(١) ذكر الدكتور جابر الحينى (فى العقائد والأديان ص ٤٦ / ٤٨) أن أحد فراعنة القرن الثامن ق.م . واسمه شباكو (ذكر بريستيد فى «تاريخ مصر» شباكا ٦٩٨ / ٧١٢ وشبيتكو ٦٩٨ / ٦٩٠) عثر فى معبد بتاح بمنفيس على بردية متاكلة ، فأمر بكتابتها على الحجر ، وقد ترجع هذه البردية إلى حوالى ٣٥٠٠ ق.م .

وجاء فيها عن ترجمة ويجال Weigall : حدث أن القلب واللسان فازا بالسلطان على أى عضو قائلين إنه (بتاح) كان على صورة (القلب) فى كل صدر ، وعلى هيئة (اللسان) فى كل فم ، عند كل الآلهة ، وكل الناس ، وكل الحيوان ، وكل الزواحف ، وكل المخلوقات ، وذلك حينما كان (بتاح) يفكر ، وحينما كان يدبر كل شئ يبتغيه ، لقد صاغ كل الآلهة ، وحتى أتوم Atum فقد صاغه أو صاغ وحدانيته بنفسه ، وكل كلمة ربانية إنما تخرج إلى الوجود بتفكير القلب ، وبأمر اللسان ، إنه هو الذى صاغ الأجسام ، و(خلق) الصفات ، إنه هو الذى خلق كل الأطعمة ، =

وكان لابد أن تحدث خلافات بين هذه الآلهة الكثيرة ، كما حدث بعد ذلك بين آلهة الأولمب ، إذ كان (رع) مازال يعيش على الأرض ، ويتولى بنفسه حكم البشرية ، لكن ابنته (حاتحور - تفتت) لم تكن تقيم إلى جواره بمصر ، بل كانت تقطن صحارى النوبة الشرقية ، فى صورة لبؤة متوحشة ، تقذف عيناها النار ، وتلتهم لحم أعدائها ودماءهم . . يرغب (رع) فى أن يحضرها إليه ، لأنها ابنته ، ولأنه يحبها ، وكذلك لتكون حامية له ، إذ كان عليمًا بقدرتها .

عهد بمهمة إعادتها إلى الإلهين شو وتحوت .

كان شو مخلصاً لرع ، وكان يحب أخته تفتت التى كان يريد لها زوجة ، وكان تحوت ساحراً بليغاً قادراً على تهدئة غضب الآلهة واستئناسها .

توجه شو وتحوت إلى حيث تقيم حاتحور ، بعد أن تحولاً إلى قردين ، وحدثاها عن بلد رع والنيل الذى يجتازها ، والحقول المزروعة والقرى والمدن ، وأغريها بأنها ستجد الغزلان والطيال وتيوس التى تعودت عليها ، مع النيذ الذى يجلب السرور والنشوة ، وأنها ستشأ لها المعابد ، ويحتفل بها فى كل مكان ، ولن تنقطع الموسيقى والأناشيد وأنواع الرقص فى ساحات أبوابها .

عادت حاتحور فى موكب بهيج عزفت فيه الآلهة ورقصت ، وقدم الكهنة شتى القرابين .

وتحولت اللبؤة المتعطشة للدم إلى إلهة للحب ، وأسماها الإغريق أفروديت (سيدة الحب والبهجة) - آلهة مصر ص ٥٤ .

إنها أسطورة أدبية تربوية ، تعالج مشكلة عائلية ، لم يطرحها الأديب فى صورتها المباشرة ، فلا يكون تأثيرها المباشر ، وإنما لجأ إلى (فن) الأسطورة . . والأدب العربى والعالمى - وبخاصة الهندى واليونانى - غنى بهذا اللون من

= وكل الأضاحى ، بالكلمة ، وهو الذى خلق كل ماهو محبوب وما هو مكروه ، وإنه الذى أحيا المسالمين وأمات المذنبين .

إنه هو الذى خلق كل عمل ، وكل صنعة تصوغها الأيدى ، ومشى الأقدام ، وحركة كل عضو ، تبعاً لأمره ، عن طريق تفكير القلب الذى يتحقق باللسان .

التعبير . . وحسب هذه (الأسطورة) أنها تبين أثر البيثة في التكوين الخلقى ،
فالإلهة حاتحور في الصحراء متوحشة تلغ في الدماء ، ومع الموسيقى والرقص
والنبذ تحولت إلى إلهة للحب والجمال .

يقول فرانسوا دوماس : (إن الذى يتميز به الأدب الدينى المصرى هو فقط
إسهاب واسع فى الشرح بالصورة ، والسعى فى تجميعها ، وعدم تماسكها فى كل
مرة يرغب فيها عالم اللاهوت تعمق الطبيعة الإلهية) .

(ولكن توجد وسيلة أخرى لمعالجة الحقيقة ، كانت شائعة عند المصريين ،
وتدهشنا كثيراً ، إنها تلك التى نطلق عليها فى لغاتنا « التَّورية » ، أو التلاعب
بالألفاظ) - آلهة مصر ص ٢٣ .

ويورد دوماس - تعبيراً عن أزلية الإله وأبديته - قول الأديب المصرى : (إنه
لا ينقطع عن عبور الأعوام) .

- ٤ -

وقد كان الجنوح إلى التعبير الأدبي الأسطوري هو ما أهتم بتعدد الآلهة ،
والأمر لا يزيد عن تصوير الانفعال بالأشياء ، أو تجسيد المجردات .

هذا (خنوم ، الخزاف الإلهي الذي شكل على دولا به الإنسانية جمعاء) ،
تحدث نص في معبد إسنا عن دوره ، فشرح (كيف كوّن خنوم جسم الإنسان
عضواً عضواً ، وكيف مزج الدم والنخاع حتى يكون العظم ، وكان الدم في
العظم تنشّطه حركة قوية ، وقد أمد الكائنات التي في دور التكوين بالنفس) -
آلهة مصر هـ ص ٤٢ .

إن صاحب هذا النص طيب ، أو هو من هواة الطب ، جعل يقارن بين عمل
الإله وعمل الخزاف ، ولعله استند إلى مأثور سماوي تحدث عن خلق الإنسان من
طين لازب ، من صلصال (كالخار) ، ونفخ الله فيه من روحه (النفس) ، ثم
نزه الله عن أن يخلق بيديه ، فاخترع له عاملاً (إلهاً) أو (تابعاً) ، ينهض
بهذا العمل ، كما يستعين (القادر) بالخزاف ليصنع له ما يريد من أدوات ، أو كما
صنع فلاسفة اليونان بالعقل الفعال .

وعلى مثال هذا كان (تحوت) أعظم الموظفين شأنًا في مملكة الله ، كان
(الوزير الذي يقف بجانب الإله الشمس ، على سطح سفينته ، ليتلو عليه شئون
الدولة) ، وكان (القاضي الذي يحكم في السماء ، ويقضى في منازعات الآلهة ،
ويتنبأ بما سيحدث للآلهة والبشر) ، وكان المهندس (الذي يشيد المدن ، ويضع
حدودها) ، وكان العالم (الذي أعطى الناس الكلمات والكتابة) - ديانة مصر
القديمة ص ٦٧ .

وعلى مثاله كان إله المرح (بس) القزم الملتوى الساقين ، (له رأس كبير ،
ولحية منتفشة ، وذيل حيوان ، يدخل السرور على أبناء الآلهة بالرقص
والموسيقى) - المصدر السابق ص ١٦٦ .

ويمكن كذلك رؤية (توريس) العظيمة (وحشاً يتكون من عجل بحر
وتمساح ، بيدين آدميتين ، وقدمي لبؤة ، وهي تقف على رجليها ، وتحمل عادة

رمز العناية والحماية ، وتمثل فى صورة « حبللى » لأنها تساعد أثناء الوضع والرضاع) - المصدر السابق ص ١٦٦ .

إن عادة التركيب الفنى هذه - محاولة للجمع بين أكثر من معنى - أسلوب سائغ فى أكثر الأدبيات العالمية ، بل فى الآداب الشعبية كذلك ، ولعل أبا الهول أقرب شاهد .

* وكان التوسع فى مفهوم الألوهية ليشمل كل ماهو محبوب ، وماهو مكروه . . ولم تكن اللغة المصرية بدعاً فى هذا ، فالتوراة - مع أن لها أصلاً سماوياً - حين كتبها حاخامات أسر بابل - حملوها كثيراً من هذه (الأعباء) ، وجاء الأدب اليونانى بعد ذلك فتوسع أيما توسع .

ولو أننا رجعنا إلى التراث الهندى لوجدنا أضعاف مافى (الأدب المصرى) من آلهة .

إن (خيال الشعب يضيف إلى الآلهة التقليدية باستمرار آلهة أخرى ، رجاء أن يكونوا عوناً فى الحياة . . ولقد كان للمبانى أثرها ، من حيث القدم والضخامة ، فأبو الهول لم يكن فى الأصل سوى صخرة طبيعية ، أعطاه الملك خفرع رأساً ملكياً ، لكنه مالبث أن عبد بصفته « حرماخيس » ، أى حورس الأفقى) - ديانتة مصر القديمة ص ١٦٢/١٦٣ .

وأخشى أن أقول إن المزاج المرح للشعب المصرى ، وضيقه بحكامه المستبدين - دفعه (بالفطرة) إلى (التعزى) بهذه الصور ، المثيرة للضحك ، أكثر من إثارتها للتأمل .

وماظنك بعجل أيبس الذى يقول فيه نص من عهد رمسيس الثانى ، الفاتح العظيم ، والطاغية الذى عمر طويلاً ، ونشر العشرات من ذريته (الصالحة) لامتنصاص خيرات البلاد أكثر من قرن من الزمان : (إن جلالة أيبس قد صعد إلى السماء ليستريح فى بيت التحنيط ، تحت رعاية أنوبيس الموجود فى مكان التحنيط ، حتى يحنط جثمانه ، وسيوقظه أولاد حورس بينما الكاهن يُرتل مديحه) .

(ويذكر النص أن أبيس قد أكمل أيامه السبعين في مكان التحنيط ، مما يدل على أن المدة التي يستغرقها تحنيطه هي نفس المدة التي يقتضيها تحنيط موميات البشر) - الموتى وعالمهم ص ٢٣٨ - أو موميات الملوك بخاصة ، مما يطبع الجو بطابع سياسى ، وإلا فكيف للحضارة المصرية التي تفوقت وتألفت تبني جبانات للحيوانات ، وتبنى إلى جوار هذه الجبانات معابد ، حيث يمكن للكهنة أن يواصلوا التعبد للإله (الحيوان) ؟!

يقول إرمان (ديانة مصر القديمة ص ٤٢٨) عن قواعد التحنيط الطويلة التي كان يقوم بها الكهنة الخمسة : (نعرف كيف كان ينبغي لف الأعضاء باللفائف ، أو حشو بعض الأعضاء : الرأس والفم والعينين والأنف ، وكيف كان يجب تغطية القرنين ، أما الساقان فكانتا تمدان ، وكان تجويف البطن يغسل ويحشى ، ثم كان أبيس ينصب قائماً بدعائم خاصة ، وكان الرأس يلف آخر الأمر ، بحيث يتخذ وضعه الأصلي ، وكانت تلى ذلك الشعائر الجنائزية الحقيقية ، فكانت الجثة توضع على نعشها في داخل التابوت ، بينما تنوح النائحات ، ثم توضع في زورق يخربها بحيرة ، على حين تتلى النصوص المقدسة ، وآخر الأمر كانت تؤدى لهذا الشور الميت شعيرة فتح الفم ، على نحو ما كان يؤدى للأموات من بنى الإنسان ، وكان هذا كله يستغرق سبعين يوماً ، كانت فترة حداد وصيام لمصر قاطبة) .

(وفوق المدفن العام الذى كانت توضع فيه العجول توابيتها الحجرية كان يقوم - مند أمد بعيد - معبد كانت تزود فيه هذه العجول بالأقوات ، أسوة بالموتى من البشر) .

(ومن معبد أنوبيس ، كان هناك طريق مقدس يتجه إلى الغرب ، ويؤدى إلى الصحراء ، بين صفيين من تماثيل أبى الهول ، وكان يجتازه الموكب الجنائزى الفخم ، وذلك عند نقل رفات العجل المتوفى إلى المعبد ، ثم إلى القبر) .

يقول الأستاذ سليم حسن (مصر القديمة ج ٧ ص ٦٢١/٦٢٢) : (وفى أثناء سياحة الموميا على البحيرة كانت تقرأ تسع شعائر أو زيرية الصيغة) .

ويقول : (كان من النادر أن يولد «أبيس» من «أبيس» آخر ، والعلامات

التي كانت تميزه هي مثلث أبيض على الجبين ، وعلامة بيضاء في صورة هلال على كلا جانبيه ، وصورة نسر على رقبته . . وقد فسرت هذه العلامات بأنها رموز الآلهة الذين كانوا يتقمصون « أيس » .

(وفي العهد الروماني حل القرص القمري بين قرني أيس محل القرص الشمسي) .

(وظلت عبادة أيس حتى عهد جوليان الروماني ٣٦٢م ، وبين عهدي أمنحتب الثالث وجوليان كانت سلسلة مقابر هذا العجل تختفي من وقت لآخر . . وكان لكل عجل قبره الخاص حتى عهد الأسرة التاسعة عشرة ، وكان يعلوها مزاره الخاص) .

ولم يقتصر الأمر على عبادة أيس ، فقد كانت هليوبوليس مركزاً لعبادة العجل منفيس ، (وهذا الثور كان لونه أسود ، يظهر على كل جسمه وذيله أشكال سنابل ، وكان له رمز مقدس خاص ، وهو مقعد يعلوه رأس ثور أسود ، وهو الذي اختلط من زمن بعمود هليوبوليس المقدس ، لدرجة أن رأس الثور في غالب الأحيان لم يكن محمولاً على مقعد ، بل على العمود « إيون » . . وكان له كالعجل أيس قطيع مقدس ، وكانت بقراته وعجوله تُدفن معه) .

(وكان العجل منفيس - من الوجهة اللاهوتية - يتصل كلية بالإله العظيم «رع آتوم» ، رب هليوبوليس . . وعبادته - على وجه التقريب - كانت مشابهة لعبادة أيس) الذي كان بدوره يتصل بالإله «بتاح» .

وكانت أرمنت تقدس العجل بوخيس ، (والفروق بين العجل بوخيس وبين العجلين أيس ومنفيس دقيقة جداً ، وقد يعد عهد الفرعون «نقطانب» بداية تاريخ الثور بوخيس) .

(كان بوخيس ينتخب من بين عجول متوسطة العمر ، على أن يكون فيه علامات تميزه) .

(ولم يكن هذا الثور ينقطع عن سكنه في أرمنت ، ولا يتغيب عنها إلا لزياراته السنوية لمحاربيه) .

(وقد قدم لنا معبد « البوخيوم » مثل « السربيوم » عدد عظيمًا من الـ تشمل معلومات تاريخية ثمينة) .

(وكان « بوخيس » أبيض اللون برأس أسود ، ويحمل بين قرنيـ الشمس تعلوه ريشتان) .

(وقد حاول رجال اللاهوت أن يضعوا علاقات بين بوخيس و باعتبارهما بين جماعة الآلهة الثمانية) . . مصر القديمة ج٧ ص ٦٢٥/٦٠٦

وعلى الأستاذ سليم حسن هذه العبادة (الثورية) بأن الثور (يمثل الخـ ناحيتين : فهو رمز القوة الكريمة فى نظر العقل البدائى ، ثم هو سيد الماء تنتج اللحم واللبن والزبد والجلد ، وهو حارث الأرض ، وبهذا أصبح للسيادة والقوة . . والثور فى اللغة العربية يطلق على سيد القوم ، والرؤ بحيرة « شاد » كانوا يدفنون ملفوفين فى جلد ثور) - مصر القديمة ج٧ ص ٢٠ وفى (ترانيم زرادشت) يكثر ذكر الثور ممثلاً للقوة ، وللإله .

لكن ماذا عن (الجعل) الذى (كان يعد فى نظر أفراد الشعب المصرى ؛ الشمس ، الخالق لكل شىء ، والموجد لنفسه ، ووالد شخصه ، ولذلك عليه « خبرى » ، أى الخالق ، وكلمة جعران تقابل فى المصرية « خبر » مشتقة من الفعل خلق أو أوجد) - مصر القديمة ج٦ ص ٦٤٨ .

كيف لصانع الحضارة الموهلة فى القدم أن يرى فى دحرجة الجعـ الروث تفسيراً لدحرجة إله الشمس الكرة العظيمة فى عرض السماء ؟

ويضيف علماء الآثار إلى ذلك (أعجوبة أخرى خاصة بطبائع الجعل عليه أهمية بعيدة المدى ، عظيمة التأثير فى عقول سكان وادى النيل الأوكـ أنه كان يخرج من كرة الروث التى كان يدحرجها الجعل أمامه جعرانا عندما كانت تحل ساعة فقسه ، فظن أن فصيلته تلد نفسها بنفسها ، وكاد يمد نسله بالحياة كما تمد بنى الإنسان كرة الشمس التى تتدحرج فى السماء) - المصدر السابق ص ٦٤٩ .

آيكون الجعل قد اختص بهذه الفضيلة ؟ أغاب عن المصريين أن ثمة

تعيش داخل الصخور ، وأخرى تعيش فى أعماق الطين ، وغيرها تنتج فى جذوع الأشجار ؟ ألم يلفت نظر المصرى قبح شكل الجعل ، حتى اتخذ تعويذة ؟ وهل كان المصريون من هواة اللعب بالروث ، وبتربية الجعارين حتى شغلهم هذا الأمر ؟ وما وجه الشبه بين قرص الشمس وكرة الروث ، أهو وجه الشبه بين رغيف الجائع ووجه القمر ؟!

إن الأمر لا يمكن أن يحمل على ظاهر روايته ، وليس من السهل قبول هذه التعليقات الزائفة .

لايسهل التصديق بأنه (فى العصور المتأخرة أقام المصريون جبانات مماثلة لدفن أمهات العجول ، حيث كانت الأبقار من الحيوانات المقدسة) - الموتى وعالمهم ص ٢٤٤ .

أيمكن تصديق أن عبّاد الحيوانات هذه اعتقدوا (أنها تحوى شيئاً إلهياً فى نفسها ، بمعنى أنه إذا أراد أحد الآلهة أن يجسد نفسه للبشر فإنه يختار حيواناً ترمز بعض صفاته إلى ما لهذا الإله من صفات) ؟! ومع هذا (كان من المعروف أن الإله لا يكون مجسداً فى كل بقرة ، أو فى كل تمساح . . . وبرغم كل الاحترام الذى يحيط به المتعبد تلك الحيوانات فإنه يمكن أن يأتى يوم يذبح فيه البقرة ، ويقتل التمساح ، ولا يرى فى هذا عملاً إجرامياً) - ديانة مصر القديمة ص ٩ .

وهذا أشبه بما نسبوه لبني حنيفة فى الجاهلية العربية ، أنهم كانوا يصنعون الإله من التمر فإذا جاعوا أكلوه ، دون أن يفكروا فى ذلك الإله المأكول ، أو فى ذلك الإله الذبيح والقتيل ، بالنسبة للثور والتمساح !! (١)

(١) ذكر كنت أ. كتنش فى كتابه (رمسيس الثانى ص ٢٢٨) أن المصريين (نسبوا إلى كثير من الآلهة صفات بعض الحيوانات ، حتى لقد أصبح لمثل هذه الحيوانات دلالات على الآلهة نفسها ، فقد صور الإله تحوت على عدة أشكال منها الثور والقرد ، وصورت الربة باست على شكل قطة ، كما صور خنوم على شكل كبش ، وسوبك على شكل تمساح ، وآمون على شكل كبش ، وأحياناً أوزة ، وحمورس على شكل صقر ، وحتحور على شكل بقرة .

وكان لهذه الحيوانات المقدسة مجال آخر مستقل ، فقد ساد اعتقاد بأنها «صور حية» يحل فيها الإله نفسه إذا شاء ، بل زادوا بأن اعتقدوا أنها أحياناً مهبط وحيه الذى ينقل نبوءاته ولذلك قدسوها) ولو زار مصر وثنى اليوم ، ورأى ما يحدث فى مقاصير الأولياء ، لقال بتعدد =

* إن الأمر - مادام مرده إلى قراءة الرسوم والكلمات التصويرية - لا يخلو من نزوع خيالى ، قام على سوء الفهم ، أو على قصد التضليل ، كما هو شأن أكثر المستشرقين بالنسبة للفكر الإسلامى ، وإلا فكيف يمكن تصديق أنه (يوجد معبد خارج دهليز الأبقار المقدسة ، بناه الملك « نكتانبو » الثانى ، الذى يرجع إليه الفضل فى بناء المعبد القائم عند السرايوم ، وكان قدس الأقداس مكرساً لإيزيس أم آيس ، ولأبيس نفسه ، وقد شكّل مركزاً يستطيع فيه الكهنة الإبقاء على ممارسة طقوس عبادة الأبقار المقدسة ، ولم يكن المعبد بسيطاً فى تخطيطه ، إذ يضم مقصورتين منفصلتين مكرستين لجبانتين حفرتا فى باطن الأرض ، لدفن الحيوانات المقدسة ، ويعج هذا الموضع فى سقارة بمثل تلك الجبانات ، ويؤدى الرصيف الذى أقيم عليه المعبد إلى دهليزين منقورين فى الصخر ، أحدهما مكرس لدفن القرده ، والآخر للصقور ، وتختلف هاتان الجبانتان فى طبيعتهما عن مقابر العجول والأبقار بعض الشيء ، لأن القرده والصقور كانت تنتمى للعقيدة الدينية التى تبجل كل أفراد الفصيلة ، باعتبارها صوراً من الإله ، وفى بعض عقائد هذا النمط من الديانات يمكن أن يحظى حيوان بعينه بالعبادة ، ويختار دورياً من بين أبناء فصيلته باعتباره تجسيدا للإله) .

= الآلهة ، وهو ما يحدث فى أضرحة قديسى المسيحية ، وهو بعينه ما حدث فى الدولتين اليونانية والرومانية ، وأنكره بعض الفلاسفة ، بل إن الشيعة الاثنى عشرية إلى اليوم يتخذون من أضرحة العباس والحسين والكاظم مزارات يطوفون حولها ويصلون إليها ، والبهاية اتخذوا من قبر البهاء فى عكا قبلة .

وأضاف كتشن ص ٢٣٢ : أنه فى العصر الإمبراطورى وضعت أناشيد تمجد القوى الخلاقة للآلهة الكبرى ، وتشير إلى التماثل بينها ، باعتبار كبار الآلهة مظاهر وصورا ، أو جُوهها لإله واحد . وقد تغنى الرسام مدى سخمت ، وهو من معاصرى رمسيس الثانى وخلفائه ، بنشيد جاء فيه : - المجد لك ، ياأمون ، رع ، أتم ، حورس ، الأفق .

يامن نطقت بفمك ، فظهرت الموجودات ، من بشر وآلهة / والماشية والحيوانات المصيدة فى الأبدية ، مع كل مايطير وينير / لقد خلقت الأرضين ، الوطن والأرض النائية ، وعمرتها بالمدن / والمروج الخضراء التى يخصصها الفيضان ، فتنبت من الخير / ما لا يحصى كى يعيش الناس / أنت الشجاع الذى يرعاهم الراعى ، إلى الأبد / أجسادهم تنبتت بجمالك ، وأعينهم بتقربك / والكل يخشاك ، وقلوبهم ترنو إليك / والكل يقول : (نحن عبيدك) أنت العظيم ، أنت الجبار ، أنت الواحد / والغنى والفقير سواء ، متساوون أمامك / لطفك يأسرهم جميعاً ، ولا ينكر أحد جمالك / ألا تقول النساء : (أنت قريننا) ؟ / والولدان : (أنت أبونا وأمنا) ؟ / الغنى يشيد بجمالك ، والفقير معجب بمحيك / والسجين يلجأ إليك ، والغنى يتهلل إليك) .

(ونجد أن جبانة القردة فى سقارة كانت تحتوى على مايزيد على أربعمائة دَفْنة ، بينما وصل عدد الصقور إلى مئآت الألوف ، وبالتالى كان أسلوب تحنيطها أكثر بساطة من القردة) .

(ويتألف دهليز القردة من مستويين : الأدنى منهما حُفر بعد أن امتلأ بالموميات ، وكانت الموميات توضح بعد تحنيطها فى صناديق خشبية تودع فى كَوَاتٍ منقورة فى جدران الممرات ، وكانت الموميات تثبت فى صندوقها بملء الفراغ الداخلى بملاط الجبس ، وبذا تحتفظ الجثة بصلابتها فى قالب جصى محفوظ بين جوانب الصندوق الخشبية ، وكان الكهنة يحفظون كل وعاء فى كَوْتِه التى يغلقونها عليه بلوحة من الحجر الجيرى . يكتبون عليها بعض المعلومات المختصرة عن القرد ، مثل اسمه وتاريخ دفنه) .

(وقد عثرنا على بقايا طيور من فصيلة أبى منجل ، وأنية شديدة الضخامة ، ربما كانت تضم موميات نسور ، كما وجدنا تماثيل برونزية وصوراً من الفخار المطفى للمعبودات والحيوانات المقدسة ، وأدوات برونزته تستخدم فى تأدية الشعائر فى المعبد ، وصناديق معدنية وخشبية لحفظ الجثث المقدسة ، كما عثرنا على صناديق لطيور أبى منجل والثعابين وحيوانات النمى والجعارين) .

(وفى سقارة وجدت جبانات الأبقار والصقور والقردة ، كما وجدت دهاليز بها حوالى نصف مليون مومياء للطيور المحنطة ، حُفظت كل منها فى إناء فخارى كالعادة) .

(وقد اقتضت إدارة مراكز عبادة الحيوانات وجباناتها قدراً كبيراً من التنظيم ، ووفرت عملاً لكثير من الأفراد ، فإلى جانب كهنة المعابد والمحنطين تحتم وجود أشخاص آخرين لنقل طعام الحيوانات ، وحجارين لقطع الممرات ، وكتبة ، وعمال لصناعة الفخار) .

(وقد قدر متوسط عدد الطيور التى كان الكهنة يدفنونها كل عام فى سقارة بعشرة آلاف طائر ، ويبدو أن الدفن كان يتم جماعياً مرة فى كل عام ، وسط احتفال يتضمن القيام بموكب جنازى مؤلف من الكهنة ، ويتجه نحو دهاليز الدفن) .

(وتوجد فى أبيدوس جبانة منقورة فى باطن الأرض مخصصة للكلاب التى ربما اعتبرها المصرى ممثلة للإله « ختنى أمينتى » أحد كبار الآلهة فى المنطقة) .

(وكانت الققط تدفن فى تل بسطة ، وسيوس ، وثميدوس ، فضلاً عن مقبرة سقارة ، وكانت الققط تعبد باعتبارها رمزاً لباست) - الموتى وعالمهم ص ٢٤٦ / ٢٥٤ .

هذا ، ولم يسأل عالم الآثار المصرية سبنسر نفسه كيف كان يتم الحصول على عشرات الآلاف من الطيور والحيوانات الميتة كل عام ؟ وهل ارتبط الموت بأوبئة مثلاً ؟ وهل كان لمؤسسة الجبانة رجال يجوبون الجبال والصحارى لجمع جثث هذه الحيوانات ؟ وما حدود ميزانية هذه المؤسسة ؟!

ألا تعد كثرة الموتى من هذه الحيوانات والطيور دليلاً على القحط الذى كان يصيب مصر بسبب أو بآخر ؟ وهل كان الذين يعانون من شرور القحط يفضلون الإنفاق على جثث الحيوانات : جمعاً وتخنيطاً وتشيد مقابر ومعابد ورواتب لكل القائمين على هذا ، مع أن الهياكل العظمية من الشعب الجائع تفتقد مُسكة الحياة ؟!

والأهم من هذا كله ، كيف احتفظت مصر بوحدتها مع تمزق معتقدات أبنائها مع آلاف الآلهة ؟! إن إلهين اثنين كفيلا بفساد الحياة أيما إفساد . . وعلى فرض أن المصريين ألفوا عبادة آلاف الآلهة فى خضوع واستسلام ، فهل كانوا يجدون وقتاً لمجرد (تذكر) هذه الآلهة جميعاً ؟! وهل كان الفلاح يستطيع الحصول على تمثال لكل إله . . وعلى تعويذة أو صلاة خاصة بهذا الإله ؟!

المثير للدهشة أن أكثر علماء المصريات لا يكادون يختلفون فى إيراد هذه الروايات !!

ويضيف إرمان أن سيدة تقية قالت : (لقد أهديت ماتحتاج إليه الأرواح الحية - أرواح الحيوانات الميتة - حتى تكون لديها العطور والملابس الفاخرة ، عندما تصعد أرواحها إلى السماء) !!

ويضيف أيضاً أن القوم (كانوا يحتفلون بعيد ميلاد أبيس كل عام ، سبعة

أيام ، وإذا مات لبست النساء عليه ثياب الحداد ، و « لا يدخل أفواههن شئ غير الماء والخضرة » سبعة يوماً ، حتى يتم دفنه ، وكان يحجج إلى قبره ، ويقام له شاهد يكتب عليه ماشاق من تاريخ حياة هذا العجل : متى ولد ، ومتى جرى به إلى معبد « بتاح » ، ومتى فارق الحياة ، وجملة أيام حياته ، وأية قرية شرفت بأن كانت وطنه ، وأى اسم كان لأمه) .

ويضيف أيضاً (إذا شئت حريق كان تفكير المرء فى إنقاذ القطط أشد من تفكيره فى إطفائها . . . أما من يقتل عامداً حيواناً مقدساً ، فإنه كان يفرط فى حياة نفسه بنفسه) ، أى يحل دمه ، مع أنه لم يبق من الحيوانات غير المقدسة إلا الحمير والدواجن ، لأنهم لم يعرفوا الخيل والجمال إلا مؤخراً ، و (كان قتل أبى منجل أو صقر ، ولو خطأ ، يعد خيانة عظيمة) !!

ويضيف أيضاً : (إذا مات ثور دفن أمام المدينة ، بحيث يترك أحد قرنيه بارزاً فى الأرض ، علامة عليه ، إذ كانت جماعة من الأتقياء يجوبون البلاد ، ويجمعون عظام الثيران ، ليدفنها فى مقبرة خاصة ، وإن كان البقر الذى كان يعد أقدس الحيوان جميعاً لم يكن يدفن على هذا النحو ، وإنما كان يلقي فى النيل) - ديانة مصر القديمة ص ٣٦٠ / ٣٧٢ .

وهكذا نرى إرمان حق هذه الحيوانات فى التحنيط ، وفى جبانات خاصة ، لها مزارات ومعابد يؤدى الكهنة فيها طقوساً واجبة .

ويأتى دور نفتالى لويس ، فلا يكتفى بالتوقيع توثيقاً لهذه الأخبار ، بل يهتم بموقف (الآخرين) من هذه (الأعاجيب) المصرية . . . هذا أوكتافىوس يقوم بالتعرف على مصر التى غزاها حديثاً ، ويرفض زيارة أبيس ، قائلاً : إنه (تعود على عبادة الآلهة ، وليس الماشية) . . . ويجب ألا ننسى أن أوكتافىوس هذا سيصبح إلهاً يعبد قومه ، فلا ينبغي أن نلومه . . . أما جوفينال فيقول : (من ذا الذى لا يعرف الوحوش التى تعبدتها مصر المخبولة ؟ فقسّم يُبجلّ الشمس ، وآخر يقف فى خشوع أمام أبى منجل ملتهم الثعابين . . . وهنا يبجلون القطط ، وهناك يبجلون الأسماك ، وهذه مدينة بأكملها تبجل الكلب) - مصر الرومانية ص ١٠٨ .

ويتحدث نفتالى لويس عن سياح الإغريق والرومان الذين يأتون لرؤية الأهرام واللابرانث ، فيعدّلون من برامجهم السياحية ، (لكى يروا الكهنة يطعمون التمساح الذى كان يسكن البركة المقدسة الملحقة بمعبده فى أرسينوى ، فالتمساح كان الإله الحارس ، وكان يستشار بوصفه الوحي المحلى) .

ثم يستطرد فيذكر أن الاحتفال بعيد ميلاد الإله التمساح كان (يستمر من سبعة أيام إلى تسعة عشر ، وهو مايجاوز - مع المناسبات الاحتفالية الأخرى - ١٥٠ يومًا فى السنة ، ولطول هذه المدة فى مجتمع زراعى كان يشترك القرويون فى بعض الطقوس ، ويقوم الكهنة بتأدية الباقي باسمهم) - مصر الرومانية ص ١٠٩ .

أىكون المتنبي قد قرأ شيئًا عن هذه المهازل ، حتى قال : (وكم ذا بمصر من المضحكات) ؟!

أم أن شيعة كربلاء قد عرفوا أنه كانت تقام مناحة للإله أوزيريس فى أبوصير ، وكان الشعب يضرب نفسه من شدة مايشعر به من فجعية - ديانة مصر القديمة - ص ٣٧٤ - أو من شعور بالتقصير ، لأنهم لم يستنقذوه من يد أخيه (ست) الشرير ؟!

لقد كنا نسخر من أصحاب الملايين - فى كل من أوروبا وأمريكا - الذين يوصون بشرواتهم لكلب أوقط ، وتتحكم هذه (الملايين) فى رقاب عشرات الأسر ، أو فى مؤسسة إدارية تنهض بخدمة سعادة أو سمو القط أو الكلب المليونير !! وكنا نسخر من رؤية الأبقار تتجول فى شوارع دلهى الجديدة التى خططت على أحدث نظم المدن ، وقد تُوَقِف حركة المرور ، دون أن يعجز أحد على اعتراض طريقها .

فإذا علماء المصرىات يستخرجون لنا بدعا هي أخطر البدع ، وأشنع المساخر والملاهي !!

- ٥ -

فى هذا الإطار المحموم من صناعة الآلهة : « آتوم » وأسرتة من أبناء وأحفاد وإخوة وأخوات ، و « حابى » النيل ، و « أخت » المرعى ، و « نبرى » الحنطة ، و « أرموتيس » الحصاد ، و « تويرس » فرس النهر الأنثى ، و « بس » القزم العجيب ، و « أيبس » وفرقة من الآلهة الثيران ، و « سوبك » التمساح ، وغيرها من العائلات الإلهية المقدسة - كان لابد أن ينال الملوك من هذا (الكرنفال) حظ ، وحظ كبير .

لقد تم تأليه عدد قليل جداً من البشر - عداً الملوك - وكان ذلك نوعاً من التقدير ، اعترافاً بإنجازاتهم وخصالهم الحميدة .

تم تألية أمنحوتب المهندس البار ، فى عهد زوسر ، فى الأسرة الثالثة ، كما حدث نفس الشيء مع أمنحوتب بن حابو ، أحد وزراء الأسرة الثامنة عشرة .

وكشفت عبادة أمنحوتب - فى مرحلتها الأخيرة بصورة غير متوقعة - أنه هو نفسه إله الطب الذى يتحد فى هوية واحدة مع أسكليبيوس Asclepius إله الشفاء عند الإغريق .

ولم تقبل حتشبسوت الطموح أن توصف بالآلهية ، هذا الوصف (الشائع) الذى يمكن أن يلحق بأى دعى ، بل أرادت توثيق الآلهية (بالروح والدم) ، فاخترت ، أو اخترع لها الكهنة ، قصة لطيفة ، لتكون ابنة الإله آمون ، بنوة شرعية لامرية فيها ، وحتى يحق لها أن تكتب على جدران الدير البحرى : (أنا إلهة ، وأنا بداية الوجود) .

زعمت أن الإله آمون (رأى شابة وجد فيها غايته ، فأرسل « نحوت » لكى يستعلم أحوالها ، فرجع وأخبره أن هذه الشابة اسمها أحمس أو أحموس ، وهى أجمل من أى امرأة فى هذه البلاد ، وهى زوجة الملك تحوتمس ، وعندئذ تقمص آمون شكل الملك تحوتمس ، وقاده « نحوت » إلى الملكة التى كانت مستلقية تستريح فى قصرها الجميل ، فاستيقظت الملكة على عبير الإله ، وضحكت لجلالته ، فتوجه إليها وجسده يحترق بنار الحب ، وأفصح لها عن نيته ، وأظهر لها جماله

الإلهى . . . فرحت الملكة ، وامتلاً جسمها بحبها له ، وغمر عبير الإله جو القصر ، وكان عطره الزكى من بلاد البخور . . . أتم الإله معها كل ما أراد ، ثم تحدثت الملكة إليه قائلة : «ياسيدى ، ما أعظم قوتك ، وما أحلى أن يرى الإنسان جمال طلعتك ، لقد أسبغت على جلالتي من عظمتك ، فتسرب نذاك فى كل أعضائى» . فقال آمون : «خنمت آمون حتشبسوت اسم الابنة التى وضعتها فى جسدك ، وذلك تبعاً للكلمات التى نطقتُ بها الآن» (- ديانة مصر القديمة ص ٦٤ .

وأراد تحوتمس الثالث ، زوج حتشبسوت اللدود ، أن يصنع إلها ، فيتجاوز بذلك أن يكون ابن الإله ، كما فعلت زوجته وأبغض الناس إليه ، فرفع الملك سنوسرت الثالث إلى مصاف الآلهة ، وجعل منه إلهاً حامياً للنوبة ، وأقام المعابد لعبادته ، وقدم له القرابين .

ومن قبل وجد تحوتمس الثالث معبد «بتاح» فى طيبة ، فى حالة لاتليق بهذا المعبود العظيم ، فأمر جلالته بأن يحاط المعبد بحاجز ويعاد تشييده بالحجر الرملى الجميل الناصع البياض ، كما أمر بتقوية جدران السور حتى تتحدى الزمن ، وصنع أبواباً جديدة من خشب الصنوبر ، قوائمها من النحاس المستورد من آسيا .

وكان الملك يتولى بنفسه ملاحظة تنفيذ أوامره ، وعندما تمت الأعمال افتتح المعبد ، ونثر حوله الحبوب ، وطرق باب المعبد بمطرقة اثنتى عشرة مرة ، وأحرق البخور إجلالاً للتابوت ، ثم طاف حول أسوار المعبد ، حاملاً فى كل يد إناء - الحياة اليومية فى عهد الرعامسة ص ٢٦٥/٢٦٦ .

وكان أن رضى عنه الإله «بتاح» - كما ذكر القائد «آمون - إم - حب» فى مقبرته - فحين مات تحوتمس (صعد إلى السماء ، واتحد مع الإله «رع» ، واندمجت أعضاؤه الطاهرة مع الذى خلقها ، فلما جاء اليوم الثانى وأشرقت الشمس ، وأضاءت السماء ، جلس على عرش أبيه «عابخرو - رع» ، واتخذ لنفسه الألقاب الإلهية) - مصر الفرعونية ص ٢٨٧ - وما كان رمسيس الثانى الذى أراد الاستحواذ على أمجاد السابقين ليغفل عن هذا الأمر ، فقد أكد الإله «بتاح تاتن» لرمسيس أنه قد تنبأ بالأعمال العظيمة التى سيصنعها له ،

فقال : (تقمصت صورة « تيس منديس ، واضطجعت بجانب أمك الجميلة لكى تلذك ، وأصبحت أعضاؤك كلها إلهية) .

وهذه القصة دونت فوق جدران معبد أبو سمبل الذى بناه رمسيس فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد - ديانة مصر القديمة ص ٦٥ / ٦٦ .

* كان الملك هو الوارث لمعبود القبيلة ، ومن ثم أصبح القوم يعتقدون فيه أنه إله حقيقى ، فعندما كان ينتقل فى أرجاء مقره أو خارجه ، كانت الرعية تركع لجلالته الإلهية ، وتقبل التراب تحت قدميه ، وعند تنويجه كان يقام احتفال عظيم ، ويصبح يومه عيداً يتم الاحتفال به فى كل عام .

وصار حقاً مكتسباً لهذا الملك الإله يقوم مقام الكاهن الأكبر فى كل المعابد ، وفى كل الطقوس الدينية ، ليتولى أمر الوساطة بين الشعب والآلهة ، ويستنطق الوحى متى شاء ، أو تصبح عبارته وحياً واجب الأداء .

وبعد وفاته يكون قبره موضع تقديس ، كما يقدر محراب أى إله ، وكانت حاشيته وعظماء البلاد يدفنون حول قبره ، أو بالقرب منه ، ليكون لهم شرف القيام بخدماته فى الآخرة ، أو يكون لهم شرف اللحاق به فى السماء ، حيث جنة الملوك .

ولعل مايجرى اليوم من (تقديس) الرؤساء ، واستلهاهم التوجيه والإرشاد ، واتخاذ مقابرهم مزارات رسمية ودبلوماسية - مما يقرب إلى أذهاننا حكاية الملك الإله .

لكن المثير للدهشة هو تلك العلاقات (الحميمة) بين رمسيس الثانى وبين عظماء الآلهة .

جاء فى نقوش القاعة الأولى من معبد (أبو سمبل) أن أوزير قال لرمسيس : (إن قلبى فى راحة بفضل ما فعلت ، وإنى لمبتهج بما قد أمرت به لى ، وإنى لفرح بتقديمك العدالة لى قرباناً ، لأننى أعيش بأعمال الخير التى أهديتها مدة أمد السماء ، وإن أعمالك الصالحة تشبه أعمال قرص الشمس ، وستبقى أنت مابقى « آتوم » ، لأنك تسطع على عرشه) .

وقال رمسيس لأوزير : (إني تحت تصرفك ، وتحت سلطانك ، ولما كنت أعرف أنك تحب العدالة فإني أقدمها لجلالك ، حاملاً إياها على راحتى أمام وجهك ، حتى تجعل الأرض ملكاً لى فى سكينه ، وحتى تهبنى الخلود بوصفك ملكاً ، والأبدية بوصفك راعياً الأرضين - مصر - وإنى على استعداد لتنفيذ مايجبه قلبك كل يوم ، بلا انقطاع) .

وفى هذا الجو (الأسرى) تلطفت إيزيس ، وحتت على رمسيس ، ثم أعلنت على الملائة الأعلى والملائة الأدنى : (يابنى العزيز ، محبوب آمون ، رمسيس ، إن مدة أجل السماء ، وممالك السيد المهيمن «أوزير» جميعها ، وسنى «حور» و«ست» - ستمنح لك ، بوصفك ملكاً على الأرض) .

عند ذلك يتقدم الإله «بتاح» ، والدرمسيس ، فيعده بالسعادة والحكمة والقوة :

(عندما أشاهدك يفرح قلبى ، وأستقبلك بضمة ذهبية ، وإنى أحيطك بالبقاء والثبات والرضى ، وإنى أمنحك الصحة وفرح القلب ، وإنى أغمسك فى الابتهاج والفرح وسرور القلب والحبور أبداً) .

(إنى أجعل قلبك قدسياً مثلى ، وإنى أعذك أن يتبصر قلبك ، ويكون نطقك مفيداً) .

(لقد مكنتك ملكاً مخلداً ، وحاكماً متيناً أبداً) .

(ولقد وضعت الرعب منك فى كل قلب ، وحبك فى كل جسم ، ومكنت سلطانك فى كل مملكة ، والخوف منك يحيط بالجبال ، والرؤساء يرتعدون عند ذكرك) .

كل هذا شجع رجال البلاط على السجود للملك الذى تتبارى الآلهة فى استرضائه ، وعلى الابتهاج له : (إنك مثل «رع» فى كل ماتفعل ، وكل مايرغب فيه قلبك ينفذ ، وإذا رغبت أمراً فى أثناء الليل وقع بسرعة فى الصباح ، لقد كنا نشاهد عدداً عظيماً من أعاجيبك ، منذ أن ظهرت ملكاً على الأرضين ، بما لم نسمع به ، ولم تره أعيننا ، ومع ذلك وقعت ، أما كل ما يخرج من فمك فإنه مثل

كلمات « حوراختي » ، ولسانك كفتا ميزان ، وشفتاك أكثر من قسطاس « تحوت » المستقيم دقة ، وأى شئ لاتعرفه ؟ ومن ينجزه مثلك ؟ وأين المكان الذى لم تره ؟ على أنه لم يوجد إقليم لم تطأه قدمك) .

* ونشأ عن كثرة الآلهة ، وتنافس الملوك الآلهة أن صار لزعماء الآلهة أحزاب ، على رأس كل حزب ملك ، ويتبع الملك كهنته وجيشه وعمال المقابر وبقية أفراد شعبه .

كان ينتمى إلى (أسرة رع) ملوك الأسرة الخامسة ، كانوا يعبدون هذا الإله بخاصة ، حتى إن كلا منهم ابتنى لنفسه فى مقره معبداً للإله « رع » ، على غلط معبد هليوبوليس الأكبر .

وكان من أكبر علامات الشرف التى تمنح لشخص ما هو السماح له بالقيام بخدمة « رع » فى ذلك المعبد الخاص بالملك . وهكذا أصبح « رع » الإله المفضل لدى الطبقات العليا .

أما (آمون) فقد تشكلت أسرته ، أو حزبه ، من أسلاف الأسرة الثانية عشرة الذين اختاروه إلها (عائلياً) . . ومن ثم نجد أول ملوك الأسرة الذى حكم مصر حوالى سنة ٢٠٠٠ ق.م يتخذ الاسم المميز (آمون - إم - مات) ، أى (آمون فى المقدمة) .

وبعد أن تمكن أمراء طيبة من تحرير مصر من النيّر الأجنبي ، وعندما امتد حكم الأسرة على مصر كلها ، دون أن تهجر مقرها طيبة - صار من الضروري أن يصبح (آمون رع) إلها للمملكة ، وأكبر إله للبلاد .

ومنذ ذلك الوقت اتخذ لقب ملك الآلهة .

ولما مات أخناتون الذى خرج على أسرة آمون ، وشكل (حزب أتون) ، كان أنصار آمون ينشدون فى ابتهاج : (الويل لمن يمسك ، لقد أسست مدينتك خير تأسيس ، ولكن ذلك الذى حاول المساس بك قضى عليه ، الخزى لمن يسئ إليك ، فى أى بلد كان . . إن شمس من لا يعرفك قد غربت ، أما من يعرفك فتضىء . . إن معبد من مسك فى ظلام ، وأما الأرض كلها فى النور . . إنه كان

حقًا ظلامًا ذلك الذى خيّم على مجرم تل العمارنة المخيف ، وقد اختفت كل المعلومات الخاصة به) .

ولآمون رع وحده (أنشئت سجلات المساحات والمقاييس ، ومن أجله تفد جميع السفن من البلاد الأجنبية محملة بالثروات . . من أجله ينمو شجر الأرز الذى يستعمل فى بناء قاربه الفاخر . . الجبال تزوده بالحجارة لمبانيه الضخمة . . الآلهة الأخرى لاتحيا إلا بفضل طبيته . . إنها تلتمس منه التزود بالحياة ، هو يعطيها الخبز من ممتلكاته ، ويفضله كذلك لها نصيبها من المنشآت والتمائيل والمعابد فى مصر ، وهو له فى كل مكان معابد ، فيستطيع أن يسكن حيثما يطيع له ، له العالم بأسره ، حتى بلاد الأعداء) .

وزعم أنصار «آمون رع» - كما يزعم اليوم بعض المتصوفة والمشعوذين - أن له اسمًا سرّيًا يجعله غير كبار الكهنة ، من يلفظه سواهم يخر صريعًا ، ولم يسم «آمون» بالخفى لغير ماسبب ، فهو كائن ملئ بالأسرار - ديانة مصر القديمة ص ١١٨ / ١٥٢ .

وتبعًا لهذه التوجهات الحزبية ، وتعبيرًا عن العلاقة الوثيقة بين الملوك والآلهة ، ومادام فى وسع الملوك أن يصيروا آلهة - فقد سجلت (متون الأهرام) أن الملك المتوفى ليس بإنسان ، (أباؤه ليسوا من البشر ، وآمهاته لسنّ من الناس ، إنه «تحت» أقوى الآلهة ، أو هو «شو» ابن «رع» الذى يحمل السماء ، ويتزعم الأرض ، ويقضى بين الآلهة ، طوبى للذين يرونه وهو متوج بحلية «رع» ، وعليه نقبته كحاتحور ، إنه يغدو إلى السماء ، فيجد «رع» واقفًا ، فيجلس إلى جانبه ، ولا يسمح له «رع» بأن يرتقى على الأرض ، لأنه «يعلم حقًا أنه أعظم منه» ، كما يعلم أن هذا «المجد لايفنى» ، هو ابنه ، فيبعث الرسل من الآلهة إلى سكان السماء ليعلنوا أنه قد ظهر لهم ملك جديد) - المصدر السابق ص ٢٤١ .

* ومن طريق الولاء لرؤساء الأحزاب (الآلهة) صارت هناك صلوات أقرب إلى تلك الابتهالات التى تؤدى اليوم لحكام (الدول النامية) ، ورؤساء الحزب الحاكم .

يقول رمسيس الثالث فى إحدى صلواته : (إنى ابنكم ، صنعة ذراعيكم ، لقد أقمتونى ملكاً له الحياة والصحة والقوة على كل الأرض ، ولأجلى صنعتم الكمال على الأرض . . إنى أودى وظيفتى فى سلام ، ولا يألو قلبى جهداً عن البحث عن كل ماهو نافع وضرورى لصالح هياكلكم ، وقد وهبتها - بمقتضى قرارات سامية دوت فى كل أبهاء المعابد المنقوشة - الرجال والأراضى ، وقطعان الماشية والمراكب ، وتمخر صنادلكم عباب النيل ، وعممت الرخاء فى هياكلكم التى كانت خربة من قبل ، وقدمت لكم قرابين مقدسة ، بالإضافة إلى ماسبق تقديمه لكم ، ولأجلكم أمرت بصياغة الذهب والفضة واللازورد والفيروز فى بيوت الذهب ، لقد راجعت كنوزكم ، وأكملت مانقص منها بأشياء كثيرة) .

(لقد ملأت مخازن غلالكم بالوفير من الشعير والقمح ، وشيدت لكم القصور والهياكل والمدن ، حيث نقشتم أسماؤكم إلى الأبد) .

(لقد بنيت مراكبكم الجارية فى النهر ، ومرساها الكبير مكسو بالذهب) - الحياة اليومية فى عهد الرعامسة ص ٢٦٢/٢٦٣ - ومادام الزعيم الإله ممثلاً فى (جلالة) الملك ، فلقد كان الملك (هو الذى يضاعف الخيرات ، ويعرف كيف يعطى ، هو الإله ، بل هو ملك الآلهة ، يعرف من يعرفه ، ويكافئ من يخدمه ، ويحمى أتباعه . . هو «رع» ، جسده الظاهر هو القرص ، ويحيا إلى الأبد) - المصدر السابق ص ٢٧٧ .

صار الملك كل شئ ، كل شئ يجرى فى البلاد لا يتم إلا بتوجيهاته السنية ، ولا توقفت عجلة الحياة .

وحتى ينهض الملك بكل هذه الأعباء ، ولأنه ذو صفات إلهية ، أو أن الآلهة ذوو صفات ملكية - فقد (وجب أن يكون للملك أرواح كثيرة - وأكثر من «كا» واحدة ، فإذا ما تحدث المصرى عن «أرواح الملك» فإنه كان لا يقصد إلا التعبير عن سلطته القوية) - ديانة مصر القديمة ١١٣ .

نتيجة لضعف الدولة وكثرة الآلهة ، لزم القيام بعملية تنسيق ، إذ (نجم عدد من الصعوبات من جراء حشد تلك الآلهة الكثيرة فى ديانة واحدة تتبعها الدولة . . بيد أن الكهنة قد نجحوا فى خلق نوع من النظام ، عن طريق إدماج الآلهة والآلهات فى مجموعات عالمية ، غالباً ما تكون ثالثاً من طفل ووالدين ، مثل آمون وموت وخونسو فى طيبة ، وبتاح وسخمت ونفر - آتوم فى ممفيس) - الموتى وعالمهم ص ٢٣٤ - وكذلك تجمع فى ممفيس ثلاثى من (بتاح وسوكاريس وأوزيريس) ، وهناك (سمة مذهلة تطبع النصوص المتعلقة بهذا الثالوث فى منف - كما كانت فى ثالثات أخرى أيضاً - وأعنى بها النظر إلى هذا الثالوث على أنه وحدة ، ومن الواضح أننا نجد هنا استباقاً للعقيدة المسيحية ، حتى لو أعوزنا الدليل الذى يثبت أن لها تأثير معيناً على الصياغة المسيحية) - المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص ٥٢ .

وثمة محاولة أخرى للتنسيق تتمثل فى تكوين (تاسوع) ، مثل تاسوع طيبة ، وتاسوع أبيدوس ، وتاسوع هليوبوليس ، وفى (تعاليم منف الكهنوتية خلق بتاح من نفسه ثمانية آلهة باسم بتاح ، وأضيف إلى المجموعة الصغيرة « نفرتم » الزهرة التى تدخل السعادة على قلب إله الشمس كل يوم ، ليتكون التاسوع الذى يعادل تاسوع هليوبوليس) - ديانة مصر القديمة ص ١٠٦ .

وكان للإلهة « حاتحور » مكان فى معظم مناطق العبادة لآلهة مصر ، أى أنها كانت قاسماً مشتركاً فى عمليات التنسيق .

ويعلل سبنسر كثرة المعبودات والحاجة إلى التنسيق بينها بأن (الكثير من المعبودات قد نشأت فى إطار أشكال من العبادات الموعلة فى القدم ، بينما ظهر آخرون فى فترة أحدث عهداً ، فإن هذا يعنى أن الآلهة المصرية تغطى مراحل مختلفة من مراحل تطور الفكر ، وفيها تتعايش معتقدات مبكرة ومتأخرة ، جنباً إلى جنب).

(وتتميز مصر عن غيرها بأنها لم تكن تهمل المعتقدات القديمة لتستبدل بها ما يجد من معتقدات ، وهذا التردد فى استبدال الجديد بالقديم هو المسئول

عن استمرار عبادة الأرباب المحليين) - الموتى وعالمهم ص ٢٣٤ .

وكأن هذا طبيعة مصرية ثابتة لا مفرّ منها ، تمثلت استيراد آلهة من الدول المجاورة ، واليوم تتمثل فى كثرة القوانين وتراكمها ، حتى أعيا معها كل تنسيق ، كما شق معها سرعة التقاضى ، والحصول على الحقوق ، ووجد المجرمون وفئران العدالة معها ألف مخرج ومخرج ، ويجب ألا ننسى أيضاً استيراد أولياء الله الصالحين ، والتنافس فى إعلاء مقابرهم ، وملء خزائهم بالنذور ، وفرش مساجدهم بأفخر السجاجيد العجمية والعربية .

وما أظن هذه (الطبيعة المصرية) الشاذة إلا تعبيراً عن شعور غير سوى ، بسبب من طول المعاناة . . لقد استبد الكهنة - تحت ستار الملوك الآلهة - بمقدرات شعب حوصر بمئات القوانين والالتزامات ، أو بتراكماتها ، حتى أصبح هذا الشعب (القوى القادر) الحريص على مضاعفة غلة أرض من الذهب - لا يكاد يجد قوت يومه ، مع أن جراد الكهنة الملوك الآلهة لا يموت إلا من الكظة أو من الحسرة حين يغدّر اللصوص باللصوص .

إِرْهَاصَات

هكذا تبدو صورة (الآلهة) في حياة مصر القديمة ، كما (أفتى) بذلك علماء المصريين .

آلاف ، بل عشرات الآلاف من الآلهة ، في دولة حريصة كل الحرص على وحدة المكان ، ووحدة النظام ، مع أن تعدد الآلهة يتنافى مع الوحدة السياسية ، وعساهم شعروا بهذا حين نزعت نزعات خاصة بمنف ، أو بطيبة ، أو بهليوبوليس ، أو بأهناسيا .

(إن «آمون» مستمد من الأصل «آمن» ، أى الخفى ، و «آتوم» من «تم» ، أى الكامل ، و «أفويس» معناه فاتح الطريق ، و «نفتيس» سيدة المسكن ، و «حاتحور» مسكن حورس) - آلهة مصر ص ١٩ .

ومع هذا ، نجد من دعاة (التعدد) من يقول :

(فى الواقع لا يوجد ما يؤكد لنا أن هذه ليست إلا ألْبسة مصرية أضيفت على آلهة سابقة) - المصدر السابق .

ولا يلبث أن يقول نفس المصدر ص ٢٤ : (إن آمون - كما تعلم طائفة الكهنة فى طيبة - كان الواحد ، وليس غيره من الآلهة الأزلية إلا بعض أسمائه التى تعبر عن صفة من صفاته فحسب) .

ويقول فى ص ١٢٢ : (إن مفكرى طيبة الدينين كانوا من أزمنة طوال قد تصوروا الوحدة الإلهية ، وعبروا عنها تعبيراً يبلغ حد الكمال ، غير أنهم كانوا لا يؤدون ذلك بوسيلة تصويرية ، وقد استخدموا لغة مشتركة فيما يبدو ، غير أن

المرء - عندما يقوم بتحليل مناهج تعبيرهم - لا يمكن أن يتطرق شك إلى ذهنه حول فكرهم) .

إنه يتحدث عن مفكرى طيبة ، لا أخيتاتون . . ومعروف أن كهنة طيبة هم أرثوذكس الديانة المصرية . . لكنه إزاء نصوص (لا يمكن أن يتطرق شك) إلى صدق تعبيرها عن الإله (الخفى) آمون :

(آمون الذى أنجب نفسه فى البدء ، دون أن يعرف سره
لم يوجد إله قبله .

ولم يكن يوجد إله آخر معه ليحدثه عن شكله

ولم تكن له أم لتصنع اسمه

ولم يكن له أب نسله ، وقال : « هذا هو ذا أنا »

ذلك الذى قام بنفسه بصنع بيضته

القوى الغامض الميلاد ، والذى خلق جماله

الإله الإلهى^(١) الذى جاء للوجود من تلقاء ذاته)

(إنه خفى عن الآلهة ، لا يعرف المرء مظهره

إنه أبعد من السماء ، إنه أعمق من الجحيم

إن أى إله لا يعرف شكله الحقيقى

إن صورته لا تبسط فى مطوى الكتب

ليس لدى المرء عنه أية شهادة تبلغ الكمال

إنه بالغ الخفاء ، حتى إن مجده لا ينكشف

إنه أكبر من أن يفحص ، وأعظم من أن يعرف

إن المرء ليسقط فى الحال ميتا من الرعب

(١) لعل هذا الوصف يشير إلى الإله البشرى الذى هو الملك .

إذا تلفظ باسمه الخفى الذى لا يستطيع أحد^(١) معرفته .

(إن التاسوع يبقى مجتمعاً فى أعضائك ، وإن صورتك هى كل إله اتحد فى جسمك ، لقد كنت أول من تفجر ، لقد استهللت البداية) .
(ثلاثة هى كل الآلهة : آمون ورع وبتاح ، ولا توجد أشباه لها ، آمون هذا اسمه باعتبار أنه خفى ، ورع هو وجهه ، وجسمه هو بتاح) - آلهة مصر - ص ١٢٤/١٢٦ مع إعادة الترتيب .

ولم يكن «آمون» وحده هو الذى يحظى بمفهوم الألوهية المجردة من الشرك ، بل كان أوزيريس كذلك تتمثل فيه الوحدة ، كما جاء فى نقش على شاهد جنازى لرجل يدعى أمينموس ، حوالى ١٥٥٠ ق.م ، توجه بالدعاء إلى أوزيريس ، بوصفه الإله الذى يعبد فى كل المعابد ، ولم تبد منه إشارة إلى الجانب السيئ من مملكته فى العالم الآخر ، وعظمت الأنشودة مملكة أوزيريس وأعمال إيزيس ، وسعادة مملكة حورس ، دون أن يخرج هذا الإطار الثلاثى عن وحدة الإله ، وما إيزيس وحورس إلا من رموز الصفات الإلهية :

(حمداً لك يا أوزيريس ، يارب الأبدية ، وملك الآلهة

يا عظيم ، يا أول إخوته ، وأكبر الآلهة الأولين

يامرسي ماعت - القانون - فى أنحاء ضفتى النهر

ومجلس الابن على مقعد الأب

ومن يحبه أبوه «جب» وتحبه أمه «نوت»

يا عظيم البأس حين يسقط العصاة

ويا شديد الساعد حين يقتل أعداءه)

(لقد اخترق تاجه السموات ، واختلط بالنجوم

قائد كل إله ، واضح القيادة

(١) الأدق لا يستطيع كل أحد معرفته ، وهذا هو مفهوم الصوفية فى الأديان الكتابية .

ذلك الذى يَحْبُوهُ التاسوع الأكبر ، ويُحِبُّهُ التاسوع الأصغر
 وَحَمَتُهُ أَخْتُهُ ، تلك التى رَدَّتْ الأعداء
 والتى جعلت أعمال صانع الأذى تتقهقر بقوة فمها
 الممتازة اللسان ، والتى لا تخطئ كلماتها ، الواضحة القيادة
 إيزيس القوية التى عملت من أجل أخيها ، والتى بحثت عنه بغير كلل
 والتى جاءت مصر كالحدأة النائحة لاستريح حتى وجدته
 والتى قَوَّتْ ضَعْفَ من كان متعب الفؤاد
 والتى تلقت البذرة ، وحملت بالورث
 (يامن له اجتمعت المحكمة الصحيحة ، والتاسوع ، ورب العالمين بنفسه ،
 حيث اتحد أرباب ماعث فيها ، وتولى حكم ضفتى النهر ، والتاج الأبيض ثابت
 فوق رأسه .
 واحتسبت له الأرض ملكاً
 والسموات والأرض تحت رعايته
 وعهد إليه بالبشر ، عامة الناس وكرام الناس والإنسانية
 وكانت مصر ، مناطق الشمال ومدار الشمس تحت مشورته
 كذلك ربح الشمال ، والنهر ، والفيض ، وأشجار الحياة ، وكل نبات
 أخضر
 الكل يهمل ، والقلوب راضية ، والقلوب مفعمة بالسرور
 الكل سعيد ، وكل امرئ يعبد جماله
 وما أحلى حبه على ملأ منا) - أساطير العالم القديم ص ٦٥ / ٦٧ .
 الأنشودة طويلة ، اقتطفت منها أجزاء أكثر دلالة ، وإن كانت ليست نصاً فى
 الوجدانية ، لأنها خاضعة لأسطورة ثلاثى الخير والشر ، والموت والحياة ، ومع

ذلك فإن الإطار العام يُخوّل لأوزيريس السيطرة على كل شئ ، لأنه (رب الأبدية ، ملك الآلهة ، مُرسى ماعت) ، قائد كل إله) . أما ما هو عن إيزيس وحورس فمن شأن العمل المسرحى الذى يجسد المعانى المجردة التى تشغل الناس فى كل زمان .

ولأن أسماء آمون و أوزيريس و حورس مجرد تعبير عن إله واحد ، فإن (متون الأهرام) تتحدث عن حورس بأنه (الأزلى) الذى ظهر فى الوجود البدائى قبل أن تخرج إلى الوجود السماء والأرض ، (وبذلك فقد عرفت فكرة وجود الإله الأزلى الكونى ، منذ أول بدء التاريخ المصرى) - أساطير العالم القديم ص ٢٩ .

فإذا جاء أختاتون بعد ذلك ليتحدث عن (وحدانية) أتون ، فهو لم يأت من فراغ ، ولم يبتدع هذا المعتقد ، إنما جاء ليحدد ويخلص العقيدة مما خالطها من أوشاب الزمان ، ومن مخلفات الطغيان السياسى ، ومن غشاء الاضطراب الاجتماعى ، مع قدر كبير من الجهل والغفلة ، والاستسلام لما تلهج به الألسنة ، دون قدرة أو رغبة فى الحوار أو فى التحرى .

* يقول صاحب موسوعة (مصر القديمة) : (تدل البحوث العميقة التى قام بها علماء الآثار على أن فكرة التوحيد كانت متغلغلة فى التفكير الدينى المصرى منذ أقدم العهود ، وهذا الإله الواحد كان يمثل عند المصريين فى أعظم الأجرام السماوية حجماً ، وأهمها نفعاً ، وأعنى بذلك إله الشمس « رع » ، وقد كان يعبر عنه بصفة مبهمة منذ عهد بناء الأهرام بلقب « غير المحدود » .

(وقد بدأت فكرة الوحدانية تأخذ شكلاً أوضح فى نصائح « مريكارع » ، وقد وُصف بأنه الإله العادل ، وأنه يحكم مصر وحسب ، وقد اندمج ملوك فى إله الشمس ، باعتبار أنهم أولاده ، وكان حكم إله الشمس مقصوراً على مصر إلى أن امتدت فتوحات مصر ، وبخاصة على يد « تحوتمس الثالث » من الشلال الرابع إلى أعلى دجلة والفرات ، وجزر البحر المتوسط فامتد تبعاً لذلك سلطان الإله الأعظم إلى هذه البقاع) .

(من ذلك يتضح أن التوحيد لم يكن إلا السلطان الإمبراطورى فى الدين) .

(لكن « أمنحوتب الرابع » كان فى مخيلته مسرح أفسح وأوسع من القطر المصري ، إذ إن الرمز الجديد قد مثل لنا الشمس بقرص تخرج منه أشعة متفرقة تنتشر فوق الأرض ، كما كان شعاع من أشعته ينتهى بهيئة يد بشرية ، وقد كان ذلك الرمز يدل على السيطرة القوية الخارجة من منبعها السماوى ، وهى تضع أيديها تلك فوق العالم ، وعلى شئون البشر الأرضية) .

(وقد أقام أخناتون لنفسه حاضرة جديدة ، فى منتصف الطريق بين طيبة والبحر المتوسط تقريباً ، فى بقعة تعرف فى وقتنا هذا باسم « تل العمارنة » ، وسمّاها « أخيتاتون - أفق آتون » ، كما أسس فى بلاد النوبة مدينة لآتون مشابهة ، ومن المحتمل أنه أقام مدينة أخرى فى آسيا ، وبذلك صار لكل من الثلاثة الأجزاء العظيمة التى تتألف منها الدولة - وهى مصر والنوبة وسوريا - مقر لمذهب « آتون ») - الأدب المصرى القديم ج ٢ ص ١٠٩ / ١١٤ .

وهذا القول - من خلال عرض الأدب المصرى القديم - لم يتجاوز الرؤية العامة التى لهج بها غيره من علماء المصريات .

ويقف الأستاذ العقاد عند أخناتون ، ثم ينطلق كعادته إلى الاستطراد ، وعرض معلوماته ، دون أن يخترق أفق التوحيد من قبل أخناتون ، كأنه نسى المأثورات الفلسفية التى تتحدث عن (إدريس) المصرى الذى تسميه المأثورات اليونانية (هرمس) ، وكأنه نسى طوفان نوح الذى ضربت أخباره كل الأذان ، فقال : (لم تعترف أمه قديمة ترقى إلى الإيمان بالوحدانية - بلاله واحد لا إله غيره - غير الأمة المصرية . . فعباد « آتون » التى دعا إليها أخناتون ، قبل ثلاثة وثلاثين قرناً ، كانت غاية التنزيه فى عقيدة التوحيد ، كما عرفها الأقدمون) .

(ومن علماء المصريات ، وفى طليعتهم بريستيد و ويجال ، من يرى - بعد المقابلة بين صلوات أخناتون والمزامير المنسوبة إلى داود - أن حكماء الإسرائيليين كانوا يطلعون على أسرار المحارب فى مصر ، ولا سيما الأسرار التى كانت محجوبة عن الدهماء ، إذ كانت أسرار الديانة العليا مقصورة على كبار الأحرار وتلاميذهم المختارين) .

(ومن أسماء الملوك فى بلاد العرب الجنوبية يبدو أنهم عرفوا الوحدانية التى

يغلب فيها إله واحد على سائر الآلهة واسم إيلومى ، إيلوم ، الذى تولى الملك فى بابل الجنوبية معناه ، أن الله هو الإله الحق) .

(ويقول عبد الله فلبى ، فى كتابه « سوابق الإسلام » أن هذه الكلمة - إيلوم - هى شهادة الوحداية فى طورها الأول ، ومن مرادفاتها فى أسماء الشعب « إيل رب » ، و « إيل ملك » ، و « إيل راب » ، وكلها من قبيل القول بأن الله هو الرب ، وأنه هو الملك ، وأنه هو الرئيس المطاع ، ولا يقال هذا إلا لتغليب إله واحد على سائر الآلهة أو لنفى صفة الإلهية عن سواه) - أبو الأنبياء ص ٢١٢ .

هل نقول إن عذر العقاد أنه يتحدث عن النبی (إبراهيم) ، فارتبط بالتيار الدينى الذى أحاط بالبيئة التى نشأ فيها إبراهيم ، وترحل فى أكنافها ، أم أن ثورة أختاتون على طيبة وكهنتها وأناشيد الصريحة فى الوحداية وقفت به عند هذا الحد ؟

إن كثيراً من الدراسات تحدثت عن الوحداية عند أختاتون ، لأنه قال : (أنت الإله الأحد ، لا إله غيرك / فأنت نفس رع الذى يشرق فى السماء . وآتوم خالق البشر / الذى يسمع دعاء من يدعوه / والذى ينجى الإنسان من المتكبر / والذى يجرى النيل لأجل من هو بينهم / والهادى لجميع الأنام / وعندما يشرق يعيش البشر / وقلوبهم تحيا عندما يرويه / والذى يمنح النفس ما فى البيضة / والذى يجعل البشر والطيور تعيش / والذى يرزق الفئران بحاجاتها فى أحجارها / وكذلك الديدان والحشرات) - فجر الضمير ص ٣٣٨ .

(أيها الخالق لبذرة الحياة فى الناس / إنك أنت الذى يجعل من البذرة السائلة إنساناً / إنك أنت الذى يعنى بالطفل فى بطن أمه / وأنت الذى يهدئه بما يوقف بكاءه ، لأنك تعنى به وهو فى الرحم / أنت الذى يعطى النفس ليحفظ حياة كل من يخلقهم / عندما ينزل الطفل من بطن أمه ليتنفس / فى اليوم الذى يولد فيه / تفتح فمه ، وتمده بكل ما يحتاج إليه / وعندما يصرخ الكتكوت وهو داخل البيضة / فأنت الذى تمده بالنفس فى داخلها ليعيش / وعندما يتم خلقه داخل البيضة تجعله يكسرها / ويخرج من البيضة وهو يوصوص إذا ما حان موعده / ويمشى على رجليه عندما يخرج منها) - مصر

الفرعونية ص ٣١١ - (الماشية جميعها تقول : السلام عليك / وكل مملكة تقول : العزة لك / بمقدار علو السماء ، وعرض الأرض ، وعمق البحر) - فجر الضمير ص ٣٣٦ .

الفقرة الأخيرة قد تلتقى بقول الله في قرآنه : ﴿وَأَنَّ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ .

جاء في متون الأهرام : (إنى «آتوم» ، أنا الذى كنت وحيداً / وإنى «رع» عند أول ظهوره / وإنى «الإله العظيم» خالق نفسه / والذى سوى أسمائه ، ورب الآلهة / والذى لا يدانيه أى إله بين الآلهة ، البارحة ملكى ، وإنى أعرف الغد) - فجر الضمير ص ٢٥٢ .

أليست هذه من صفات الله العظيم فى كتبه السماوية ؟

يقول الدكتور أحمد فخرى : (كان آتون هو الإله الواحد الذى لا شريك له ، ولكن مثل هذا التعبير كان يطلق على عدد غير قليل من الآلهة ، ومنها آمون ، ولهذا لم يكن جديداً على الديانة المصرية ، لكن الجديد - فى عهد أخناتون - هو تحريم عبادة آلهة أخرى فى الوقت نفسه) .

(وكان جديداً أن صار أخناتون هو الرسول والواسطة بين آتون والناس ، ولكن لم يمنع ذلك وجود كهنة لآتون ، سواء فى تل العمارنة أو فى البلاد الأخرى التى نشأت فيها معابد لهذا الإله) - مصر الفرعونية ص ٣٠٧ / ٣٠٨ .

* إن أحداً لا يجزئ على القول بأن ما وصلنا من نصوص مصرية هو نص صريح فى الوحدانية ، بسبب من عوامل كثيرة رهن بتداول الزمن ، وطغيان السياسة ، ونقص النصوص ، وعدم القدرة على الفهم الكامل للنصوص .

كما لا يجزئ أحد على القول بأن الديانة بدأت فى مصر ، وإلا ترتب على هذا أن أول تجمع بشرى كان فى مصر ، وليس من دليل قاطع على هذا ، كما أنه ليس من دليل يؤكد قيام أول حضارة فى مصر ، لأن الطبيعة التى أنشأت الحضارة المصرية لا تختلف فى كثير عن الطبيعة التى أنشأت الحضارات القديمة الأخرى : سومرية ، وبابلية ، وهندية ، وصينية ، وحضارات سكان أمريكا الأصليين ، هنوداً حمراً أو غيرهم .

إن الأمر يرجع إلى أن التاريخ كان أسبق إلى تدوين أخبار الديانة المصرية ، بحكم موقع مصر من الأحداث ، أو ماسمى أخيراً بعبقريّة المكان ، وبحكم قدرتها على التدوين بالصورة وبالحرف على أدوات قادرة على البقاء ، وبفضل قوة فاعليتها فيما حولها ، وبفضل الهياكل الكبرى التي أقامتّها في زمن مبكر .

لكن ما وصلنا من نصوص يؤكد أن ثمة (أثارة) من عقيدة سماوية لا تفتأ تشعّ بين السطور ، سواء في صفات الله الواحد الأحد ، أو في علاقته بمخلوقاته . . بل إن المعتقد الذي يتردد في جميع الكتب السماوية عن أن كل شيء كان بكلمة الله (كن) ، وأن «في البدء كان الكلمة» ، إنما هو ما جاء في «وثيقة لاهوت منفيس» ، أو «تعاليم منف الكهنوتية» ، من أن خلق العالم خطط له عقل الإله ، وكانت وسيلة التنفيذ كلمة نطق بها ، وهذا استباق مذهل لعقيدة الإغريق التي ظهرت بعد ذلك بفترة طويلة حول اللوجوس Logos ، أو الكلمة المقدسة) – المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص ٤٧ .

ويقول فرانسوا دوماس : (لقد بدءوا بوضع نظرية تامة للمعرفة ، وفي نهاية الأمر عرفوا نهجاً خالفاً أصيلاً حقاً : تحمل الحواس المعرفة إلى القلب ، وهو يشكل فكرة ، وينفذها بإصدار أوامر نافذة تدرك نتيجتها المادية بالحس ، وعلى هذا فالخلق بالفكر ، ويتجلى بالكلمة الخالقة ، والإله «بتاح» يفكر في قلبه ، في الأشياء والكائنات ، ثم يعطيها أسماء ، فتظهر للوجود ، وهذا الخلق بالكلمة الإلهية كان لابد أن يُلقَى باهراً ، ويبدو لنا أنه كانت فيه كفاية ذاتية ، وأنه حلّ بجدارة الفكرة القديمة التي كانت سائدة في هليوبوليس) ، وهكذا (تمكن الفكر المصري من أن يفرض نفسه على حكماء العبريين ، وعلى عدد معين من فلاسفة الإغريق ، وذلك لأنه كان يستحوذ على معارف قيمة) – آلهة مصر ص ٢٦ / ٢٧ .

ويضيف الأستاذ العقاد معللاً : (نحن نرجح أن العقل الذي خطر له أن الله يخلق بكلمة ، ولا يخلق بجهد من جهود الحركة المادية – قد استعار هذه الفكرة السامية من شيء رآه ، لا من شيء بحثه واستقصاه . . وأقرب هذه الأشياء المرئية إليه هي قدرة الساحر على التأثير بكلمة يقولها ، والسيطرة على الأجسام

الضخام بالهمهمة والتعزيم ، وهى ضرب من الكلام . . والله أقدر من الساحر ، فإذا قدر الساحر أن يحرك الصخور بكلمة ، ويكسر السلاح بكلمة ، ويقتل العدو بكلمة ، فأولى بالخالق الأعظم أن يملك هذه القدرة ، ويملك ما هو أعظم منها وأدل على المضاء ونفاذ المشيئة ، فلا جرم يشاء فيكون ما يشاء) - الله ص ١١٠ .

هامش ..

نشرت مجلة (الهلال مايو ١٩٩٧م) مقالاً للدكتور/ سيد كريم جاء فيه أن (أول رسالة سماوية لتوحيد الإله عرفتها البشرية ، حملها أوزوريس ، ليخرج بها من معبد « أون » عام ٩٥٠٠ ق . م ، وقد استمر العمل بها ما يقرب من ثلاثة آلاف عام حتى نهاية ملوك الشمس - كما ورد فى قوائم تاريخ مصر للمؤرخ المصرى مانيتون - تعرضت بعدها إلى الانحلال ، لتحل محلها عبادة الطواطم ومختلف المعبودات فى عصر ما قبل الأسرات ، حتى قام مينا « نعرمر » بتوحيد القطرين ، وبتوحيد العقيدة ، وبعث رسالة توحيد أوزوريس ، واستمرت عقيدة التوحيد طوال الأسرتين الأولى والثانية ، وتطرق إليها الإنحلال ، عندما دبّ النزاع بين كهنة المعابد ، فى أنحاء الوادى ، واستقل كل معبد بعبادة معبود أو إله خاص ، حتى ظهر إيمحوتب فى منف ، حاملاً رسالة التوحيد التى خرج بها من « أون » فكان ثالث أنبياء مصر فى العهد القديم الذين حملوا رسالة التوحيد ، وقام ببعثها فى عصر الأهرامات ، ورمز فيه للإله « رع » بالهرم .

استمرت عقيدة التوحيد التى بعثها إيمحوتب أكثر من ألفى سنة ، رغم ماتصدى لها من عقبات خلال مختلف عصور الاضمحلال ، حتى حمل شعلتها من بعده أخناتون ، رابع رسل العقيدة فى مصر ، ثم خرج بها من مصر النبى موسى ، ونادى بها باقى الرسل والأنبياء الذين قاموا بزيارة مصر أرض التوحيد).

* هذا القول يؤخذ جملة لاتفصيلاً ، حتى لانلج فى جدال لانملك معه دليلاً ، كما أن معظم الأقوال التى أوردناها مجرد اجتهادات لاتقوم على دليل مادى . . ومن عجب أنهم يتحدثون عن هذه (الأطيف) بلغة الذى يملك كل المفاتيح ، وصدق الله سبحانه ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ .

وهكذا تتبدد الغيوم التي نسجها علماء المصريات الذين خطونا بخطوهم زمناً ، فإذا أحمد كمال باشا يقول فى كتابه (بغية الطالبين فى علوم وعوائد وصناع وأحوال قدماء المصريين) - ج ١ ص ٥١ وما بعدها - إن (غاية ما سلّم به العقل أن هذه الديانة قد أخذت عن ديانة أقدم منها عهداً ، ألا وهى ديانة سيدنا نوح - عليه السلام - الناطق بها كتاب الله عز وجل - أى القرآن الكريم - بقوله تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ﴾ . . ولا شك فى أن سلف أهل مصر كانوا يعتقدون وجود إله واحد ، يرى ولا يرى ، وأزلى لا أول له ولا آخر ، وأنهم كانوا يقصدونه بإجلال نعمه الجليلة ، ويتقربون إليه بعمل الحسنات ، واجتناب السيئات ، وبمعرفة وأداء شعائر عبادته ، وأنهم ارتقوا فى مادة معنى الألوهية إلى درجة قصوى . . وقد ورد فى آثارهم كثير من الجمل والعبارات المثبتة لوحداية الله وقدرته وأفعاله وصفاته) مثل : كل شئ خلقه الله العظيم بنفسه - خالق الكائنات والأشياء - الخالق لكل مخلوق - الذى لم يُخلق - فاطر السموات والأرض - الموحد لكل ما يكون - أمّا ما لم يكن فهو مكنون علمه - الله معبود باسمه الإلهى - خالق الأرواح فى الأشباح - تمضى الدهور وهو باق دائماً - ذو الأزلية ، الذى يمضى دهوراً لا تحصى ، وهو على حالة وجوده - ذو الأزلية التى لا حد لها - لا يمسك بالذراع ، ولا يقبض باليد - لا تدركه الأبصار - سميع لمن يتضرع إليه - الذى يكون والذى لا يكون مختص به - الواحد الذى لا شريك له - قلاع لاقبور ص ١٥٥ / ١٥٦ .

وقال بيّره **Pierret** : إن الديانة المصرية القديمة تغيّبت علينا حقيقتها ، لكثرة دخول المعبودات فيها ، هى الاعتقاد بوحدانية الله عز وجل ، كما ثبت ذلك لدى عموم العالم ، واتضح جلياً من النصوص الأثرية . . أمّا تعدد المعبودات التى قالت بها الآثار فليست إلا أمراً ظاهرياً ، قصد به بيان مظاهر الذات العلية ليس إلا ، وإن الإشارات التى نراها فى الكتابة لم تكن صادرة إلا عن تصورات دينية لا يمكننا معرفة كهنها لكثرة ما قصد بها من الرموز - المصدر السابق ص ١٥٧ .

وأورد جريبو في (مدحة آمون) التى ترجمها حقيقة إدراك قدماء المصريين فى معنى الألوهية ، حيث قال : إن مصر اعتبرت معبوداتها الكثيرة أسماء لمظاهر متنوعة بذات واحدة ، وخصت كل معبود بقدرة بالغة من صفات هذه الذات «الإلهية» وهذه الذات الواحدة الثابتة الخفية التى لاتدركها الأبصار - ليس لها شكل ولا اسم ، بل تعرف بصناعاتها - أى بأفعالها - وتنكشف بمظاهر ، نتج عن كل مظهر منها شكل إلهى له اسم ، ويقال له المعبود الأوحى .

وقال : ينبغى حسن التيقظ ، والالتفات إلى أن المراد بتعدد الآلهة عند المصريين ليس هو الاعتقاد بها ، والتعبد إليها ، بل المقصود بها فى الحقيقة إزالة هذه العقيدة الفاسدة من العالم ، بإنكار وجودها الشخصى ، لأن المصريين لا يقصدون فى تعبدهم لأى معبود إلا المعبود الخفى الذى اتصف بصفات قديمة ، شبهوها بمظاهر أخذوا عنها المعبودات الدالة على أفعاله وتجلياته . . وإن لسان الآثار يصفه بالمعبود المنزه عن الشكل ، الذى اسمه مكنون ، فهو روح فعالة لها مظاهر عديدة تمثلت بها المعبودات التى هى صور مخلوقة سرت فيها الحياة بالروح المتلبسة بها ، وهذه الروح تجرى من مظهر إلى آخر ، دون أن تفقد شيئاً من صفاتها القائمة بذاتها الإلهية ، ولذا كان المؤمنون بها يدعونها دائماً (بروح جميع المعبودات) ، ويصفونها بالمعبود الذى لاثانى له ، بكل مايليق بها من الكمال والجلال - المصدر نفسه ص ١٥٨ .

وقال مرييت باشا : إن قدماء المصريين كانوا يقرون بوحدانية الله ، وإنهم وصفوه بما يليق به من الصفات العديدة والأسماء الكثيرة ، ولكنهم لم يثبتوا على هذه الطريقة الجلييلة ، والشرعية الجميلة ، فى كيفية إدراك الحقيقة الإلهية ، بل تعدوا هذه الحدود ، وجعلوا لأفعال الله تماثيل تدل على كيفية أعماله ، واتخذوا كل معبود منها إلهاً آخر بالتبعية للذات الأصلية .

وقال : التماثيل التى تكاثر عددها كانت عند العوام تماثيل يعكفون على عبادتها ، أما الكهنة وغيرهم ممن كان يقف جيداً على الديانة المصرية القديمة فكانوا يقولون إنها رموز لأفعال الله عز وجل - المصدر نفسه ص ١٥٩ / ١٦٠ .

وقال سير واليس بدج فى كتابه (الديانة المصرية) : إن جوهر الديانة المصرية

مبنى على وجود إله واحد لا شريك له ، لم يخلقه أحد ، سابق على جميع الكائنات وموجد لها ، لا يرى ولا يتجسد ، ولا يدرك إلا بأفعاله وقدرته .

ونفى نفياً قاطعاً أن الشمس ، أو إله الشمس (رع) ، هى هذا الإله الخالق ، وأكد أن (رع) لا يعدو أن يكون عندهم هو الصورة النورانية التى تتمثل فيها القدرة الكلية للذات العليا ، وليست هى الذات العليا نفسها ، بل إن الشمس قد انبثقت من جرثومة أوجدتها الذات العليا . . والذات العليا هى الموجدة لكل الآلهة ، التى تتمثل فيها أفعال أو قدرات الذات العليا ، وليست آلهة مستقلة منفصلة عنها - المصدر نفسه ص ١٦٤ / ١٦٥

وقد جمع بروجش من النصوص القديمة من صفات الله : (الواحد - الأوحى - الذى لا شريك له - الموجد لكل شئ - الروح المقدسة - الأول القديم - الخالق - أبو جميع الموجودات - الأبدى - اللانهائى - الأزلى - الخفى الذى لا تدركه أبصار البشر ، ولا أبصار الأرباب - ذو الاسم الخفى - ملك الحقيقة المشكل لها ، والمستوى على عرشها ، والمنفذ لها - الحى - واهب الحياة - أبو الآباء ، وأم الأمهات - المنجب الذى لم ينجبه أحد - موجد نفسه ، وصانع كيانه - هو الوجود نفسه - موجود فى كل شئ وفوق كل شئ - لا تجوز عليه الزيادة ولا النقصان - يضاعف ذاته ملايين المرات - متعدد الصور والأعضاء - خالق الكون بكل ما فيه ، وكل ما كان ، وكل ما هو كائن ، وكل ما سيكون - خلق الكون بيديه قبل أن تكون ثمة بداية - خالق السموات والأرض والماء والجبال وماتحت الثرى - ما يريده كائن ، وأمره نافذ إلى الأبد - أبو الأرباب - أنطق نفسه فوجدت المعبودات ، وخرجت الأرباب إلى الوجود - أوجد الناس والأرباب - السيد العظيم - المصدر الأول الذى شكل الناس والأرباب بيديه ، كما يشكل الفخار - يرفع السموات فوق رأسه - يحتوى فيضان النيل على صورته - رحيم بمن يعبدونه - سميع الدعاء - حافظ الضعفاء من سطوة الأقوياء - يسمع دعاء المصنف فى الأغلال - يقضى بين القوى والضعيف - يعرف من يعرفه - يثبت من يخدمه - ويحفظ من يتبع طريقه (١) - المصدر نفسه ص ١٦٥ .

(١) هذا المنهج غير علمى ، لأن من السهل اصطياذ هذه العبارات من مأثورات أى طاغية ، يستوى فى هذا راسميس الثانى ، والإسكندر المقدونى ، ونبيرون ، وأى من طغاة القرن العشرين .

ويعارض بدج بقوة أولئك الذين يعتبرون مفهوم الألوهية عند القدماء مفهوماً بدائياً ، أو يشبهونه بعقائد الأقوام البدائيين الذين اكتشف الأوروبيون وجودهم ومعتقداتهم في العصر الحديث ، مؤكداً أنه مفهوم متقدم جداً .

ودلّ على ذلك بأن الكتابات التي وصلتنا منهم تحمل مفهوم التوحيد في الصورة التي ذكرناها ، مكتوبة كلها بعد أن تطورت حياتهم تطوراً كبيراً عن حالة الأقوام البدائيين ، بعد أن وصلوا إلى درجة من الرقى الحضارى تنبئ عنها مبانيهم العظيمة ، ونظامهم الاجتماعى المركب - المصدر نفسه ص ١٦٧ .

ويعلق المهندس الزراعى الموهوب زهير شاعر - رحمه الله - فى كتابه (أهرام مصر . . قلاع لاقبور) على هذه النصوص السابقة بقوله : (من الطبيعى أن الكتابات التى استحققت أن تسجل على جدران المعابد والأهرام ، أو التى استحققت أن يصطحبها أصحابها والمعجبون بها معهم فى قبورهم - لا يمكن أن تكون من الكتابات السوقية أو الأقوال الدارجة ^(١) ، بل لابد أن تكون من عيون الكلام ، ونفيس الفكر ، مما يصاغ صياغة أدبية راقية ، تتضمن المجازات والاستعارات والصور الفنية ، والمهارات اللفظية ، كالجناس والتورية والمقابلة ، ولذلك لا ينبغي أن نأخذها بمعانيها القرينة الظاهرة ، ونحملها على محمل الكتابة التقريرية ، ونفهمها بمعناها الحرفى السطحى ، وإلا بدت عبارات بلهاء جوفاء معبرة عن أفكار سخيفة أو مضحكة) - ص ١٧٣ .

(لابد أن نعى حقيقة هامة ، هى أن مافهمه الدارسون المعاصرون من معانى كلمات وعبارات لغة المصريين القدماء - حتى الآن - لا يعدو أن يكون فهماً إجمالياً تقريباً ناقصاً ، كما أن النطق الذى ينطقون به ألفاظها أقل ما يقال فيه أنه بعيد عن النطق الذى كان ينطقه المصريون القدماء . . ويقر بهذه الحقيقة - جزئياً على الأقل - أكثر دارسى التاريخ المصرى تخصصاً ودراية ، ومن بينهم «بدج» نفسه الذى يذكر فى مقدمة قاموسه الهيروغليفى أن كثيراً من الكلمات والعبارات

(١) هذا تعميم لا أساس له ، إذ إن أكثر المدونات قام بها محترفو الكتابة أو النقش - أشبه بالعرضحالية اليوم - نقلاً عن مروجى التعاويد والرقى ، ولم يكن دور الأدباء إلا فى أضيق الحدود .

قد تعذر عليهم فَهْمُهَا أصلاً ، وكلمات كثيرة أخرى لم يفهموها إلا فَهْمًا إجمالياً ، أو تقريبياً ، أو احتمالياً ، كما أن نطقهم لها محلُّ شك كبير عندهم هم أنفسهم) - ص ١٧٦ .

(والغريب أن أحداً لم يسأل نفسه سؤالين هامين :

١- هل يمكن لفرد أو أمة أن تبني الأهرام ، وفي نفس الوقت تعبد الخنفساء؟

٢- هل يمكن لعقل واحد أن يجتمع فيه الإيمان بإله واحد خلق كل شيء ، حتى الشمس نفسها ، وفي ذات الوقت يعتقد أن الخنافس والصراصير بالذات قد خلقت نفسها ، فضلاً عن خلق غيرها من الكائنات ؟) - ص ١٧٨ .

(روى هيرودوت أنه رأى بعينه عملية إطعام التماسيح التي كان يقوم بها الكهنة في عصره . . فهل يبرر هذا القول بأنهم كانوا يعبدون التماسيح ، ويعتقدون أن لها قوى غيبية ، أو خصائص سحرية ، أو أى شيء من هذا القبيل ؟)

(إن تماسيح النيل كانت تؤدي - دون وعى منها بالطبع - نفس الدور الذي يؤديه في أيامنا هذه جنود حرس الحدود ، تهاجم من يحاول أن يتسلل عبر النهر من إحدى الضفتين إلى الأخرى ، هارباً من الجانب المعمور إلى الجانب المهجور ، أو لصاً أو مهاجماً متسللاً على إحدى القرى ، فكان وجود هذه التماسيح بأعداد كبيرة يجعل من يحاولون عبور النيل بصورة « غير قانونية » مخاطرة غير مأمونة ، فإذا كانت جماعة مسلحة ، واستخدمت سفناً لا تقوى التماسيح على مهاجمتها ، فإنها تلفت الأنظار ، ويكون الاستعداد لملاقاتها . . من هنا كان التقدير الشعبي والرسمي لدور التماسيح) .

(وإذا كان المصريون قد خلعوا على التماسيح بعض الصفات الموهمة ، فالقرية المصرية اليوم تسمى الضفدع «الحاجة خضرة» ، وتسمى حشرة «فرسة النبی» ، وفرسة النبی هذه تتغذى في اليوم الواحد على مئات الحشرات التي تضر النباتات) - ص ١٨١ / ١٨٤ .

(والخلاصة أن معظم دارسي التاريخ المصري القديم - عند ذكرهم لتعدد آلهة

المصريين القدماء - قد صنعوا سلّة هائلة الحجم ، ثم أخذوا يلقون فيها دون تمييز كل صور الكائنات الدالة على أوصاف الله ، وكل التعبيرات الرمزية المبينة لقدرته ، وكل الشعارات الإقليمية والمحلية والقبلية ، وكل الشهداء والأبطال القوميين الحقيقيين والخياليين ، وكل الرموز اللغوية التي في صورة حيوانات ، وكل الحيوانات المكرمة لأسباب بيئية أو دفاعية ، وكل ما يصل إلى متناول أيديهم مما يجدون فيه مَظَنَّةَ معنى التكريم والتقديس ، ثم كتبوا على هذه السلّة من الخارج «آلهة المصريين القدماء» .

(وأتخيل لو أنا صنعنا نفس صنيعهم ، بالنسبة لأمة من الأمم المعاصرة «المتحضرة» ، فأخذنا سلّة مماثلة ، وجمعنا فيها كل ما يحيط بعقيدة هذه الأمة من أسماء الأنبياء والملائكة والحواريين والقديسين والشهداء والأولياء ، ومن صور القصص الديني ، وتمائيله ، وأشعاره ، وأغانيه ، إلخ . . ثم زدنا تماثيل وصور الشخصيات السياسية المقامة في الميادين ، والمضروبة على قطع النقود ، وأعلام المحافظات والقوميات ، والحروف الأبجدية ، إلخ . . تُرى كم ألفا تبلغ هذه الحصيلة ، بالمقارنة إلى عدد مايسمونه «آلهة المصريين القدماء» ؟) ص ١٨٧ .

* لاشك في أن هذا اجتهد محمود لشاب يعمل في غير هذا الميدان . . لكن غيرته الوطنية غلبت على منهجه الفكرى ، بحيث إن نهاية البحث هدمت القواعد التي أقامها كل من أحمد كمال باشا ، وبيّره ، و جريو ، و مريت ، وبدج ، لأنهم انتَقَوْا عبادات (الوحدانية) من (تراث) ، أو بقية تراث ، اختلط فيه الغث بالسمين ، التعدد بالوحدانية ، الأسطورة بالحقيقة ، التجسيم بالتجريد .

ثم إن قصة إطعام التماسيح في بحيرة يفد إليها السياح ، كما هو حادث اليوم في أكثر من دولة آسيوية ، وبخاصة تايلاند - لا يمكن أن تتحول إلى مايسمى (حرس الحدود) ، لأن هذا (الحرس) يقيم في النيل لافى بحيرة ، وإطعام التماسيح في النيل مدعاة إلى السخرية ، لأن في النيل حاجتها ، وكان يكفي تحريم قتل التماسيح ، حتى نترك لها فرصة التكاثر ، لتطغى ، وتهدد موارد الصيد ، ومراكب النقل والتجارة !!

أخناتون .. إعادة تقويم

فى تقويمهم لأخناتون قال الأستاذ سليم حسن (مصر القديمة ج٥) :
(لسنا مبالغين إذا عددنا أخناتون أول شخصية فى التاريخ أبرز فكرة التوحيد فى معناها الحقيقى ، كما نفهمه ، فقد كان يسير على أسس قوامها أن الله الواحد الأحد الفرد الصمد^(١) الذى برأ ما فى السموات والأرض ، لا شريك له . .
وتدل كل الشواهد على أن هذه العقيدة قد انتقلت إلى آسيا ، وضربت بأعراقها فيها ، وبخاصة أن موسى - عليه السلام - قد تعلم فى مصر ، فكان من الأنبياء المتعلمين الذى جاءوا بعد أخناتون ، وورثوا عنه فكرة التوحيد المنزلة) .

وبالوقوف عند وصف موسى بأنه من (الأنبياء المتعلمين) ، ووصف دعوة أخناتون بأنها تحمل (فكرة التوحيد المنزلة) - لانك فى أن أخناتون نبى مرسل .

وقال الأستاذ فؤاد شبل (أخناتون رائد الثورة الثقافية ص ٥) : (فى الحق لم تعرف الحضارة البشرية هذه النزعة الروحية العالمية قبل أخناتون ، فإنه أول الجنس البشرى إدراكا لوحداية الله جل شأنه وشموليته) .

وأضاف ص ٦٤ : (فأخناتون قد بشر قبل ظهور المسيحية بأكثر من ألف وثلاثمائة وخمسين سنة ، وقبل البوذية بثلاثمائة سنة بوحدة البشرية ، باعتبارها من المنجزات الربانية المجيدة) .

(فأخناتون إذا نبى الإله ، ولم يدع أنه الإله مثلما ادعى الفراعنة من قبله ومن بعده) .

وهذا التقويم لدور أخناتون تردد فى كثير من كتابات علماء المصريات ، وبخاصة بريستيد فى (فجر الضمير) .

وقد غفر لعلماء المصريات غير المسلمين ، أو غير الملتزمين بالنصوص

(١) يؤخذ على موسوعة مصر القديمة استخدام العبارات القرآنية ، والسبب أن هذا الأستاذ الموسوعى كان يستعين باثنين من مدرسى اللغة العربية ، لمراجعة ما يكتب ، أو لإعادة صياغته .

السماوية ، تجاهل رسالات نوح وإدريس وغيرهما من أنبياء الله ورسله . . لكن المثير هو أن يصل التجاهل إلى حد الاعتقاد بأن يُترك الإنسان (المتحضر) أكثر من عشرة آلاف عام بدون أنبياء ورسل ، ثم يتتابع اتصال السماء بالأرض في الألف الثانية قبل الميلاد بأخناتون ، وبذرية إبراهيم ويعقوب !!

ومع هذا ، فإن صفحات علماء المصريات الذين أعلّوا من شأن أخناتون لاتخلو من إدانة (فاضحة) ، لا يمكن معها أن يكون نبياً صاحب رسالة ، إلا على مذهب الفصل بين القول والسلوك !!

إنهم يشيرون إلى أن أول داعية لآتون هو تحتمس الرابع (١٤١٤ - ١٤٠٥ ق.م) الذي رأى (بو الهول) في رؤيا صادقة (أن ابن الملك المسمى تحتمس أتى راكبا عربته وقت الظهيرة ، وجلس يتفياً ظل الإله العظيم ، فغشيه النعاس ، عندما كانت الشمس في منتصف السماء ، فرأى جلالته إلهه المبجل يتكلم بفمه ، كما يتكلم والد مع ابنه ، قائلاً : تأمل ، أنت فى ، يابنى تحتمس ، إنى والدك «حور إم أخت - خبرى - رع - آتوم» ، إنى سأمنحك ملكى على الأرض رئيساً على الأحياء ، وستلبس التاج الأبيض والتاج الأحمر على عرش الإله جب - إله الأرض - وستكون الأرض ملكك فى طولها وعرضها ، وهى كل ما يضىء عليه الرب المهيمن ، وطعام الأرضين سيكون ملكك ، وجزية كل الأقطار مدة عهود طويلة . . وإنى مولّ وجهى شطرك ، وقلبى معك ، وستكون أنت المحافظ على كل أشيائى ، لأنى أشعر بألم فى كل أعضائى ، ورمال المحراب الذى أنا فيه قد غمرتنى ، فالتفت إلى لتفعل ما أرغب فيه ، لأنى أعلم أنك ابنى وحامى ، تأمل ، إنى معك ، وإنى قائدك) .

يبدو أن هذه الرؤيا (الصادقة) كان الهدف منها تمهيد السبيل لقص أظافر كهنة آمون الذين طفوا وبغوا ، وملكوا الأرض ومن عليها . . ومن ثم (كان أول من حاربهم وأراد القضاء عليهم « تحتمس الرابع » الذى بدأت فى عهده - بلا نزاع - حركة إعادة عبادة «رع» ، وهى تلك الحركة التى انتهت بالإصلاح الشامل - ١٩ - الذى تم على يد أخناتون) .

وقد عثر على جعران من عهد هذا الفرعون يذكر فيه إله الشمس باسم

«آتون» : (وإذا أيقظ نفسه للقتال ، وآتون أمامه ، فإنه يخرب الجبال ، ويطأ الأراضي الأجنبية ، زاحفاً إلى نهرين ، وإلى كاراي - فى الجنوب - ليخضع سكان الأقاليم الأجنبية ، مثل رعاياه ، لحكم آتون أبدي الأبدن) - مصر القديمة ج ٥ ص ١٢ / ١٥ .

ويعلل الأستاذ فؤاد شبل هذا (الانقلاب) بأن (كهنة «رع» قد عاونوه فى ارتقاء العرش ، إذ لم يكن أكبر أبناء الملك ، ولهذا أشاد بمناقب «رع» إله الشمس ، كما زين له تصوير قرص الشمس ، تمتد منه ذراعان تنتهيان بيدين بشرتين تحيطان بالملك ، وتحنون عليه ، وتغدقان عليه البركات . . وكان هذا الفرعون أول من استخدم لفظ آتون تعبيراً عن الشمس ، فكان هذا إرهاباً باستخدام أختاتون الاسم تعبيراً عن منحاه التفكيرى ذى الطابع التجريدى) - أختاتون - ص ٤٢ .

ثم جاء أمنتب الثالث (١٤٠٥ - ١٣٦٧ ق.م) ، ابن الإله «آمون» ، الذى تمثل للملكة «موت مويا» بشراً سوياً ، فى صورة تحتمس الرابع ، واجتمع بها ، نفخ فيها من روحه ، فوضعت له غلاماً ذكياً ، اسمه «أمنتب الثالث» ، ومن هنا أقام معبداً يؤله فيه مع أبيه «آمون» - مصر القديمة ج ٥ / ٥٩ .

وأقام قصراً فى الضفة الغربية للنيل ، ليتسنى له حفر بحيرة «تاروجا» التى تعد من أحسن مباهج عصره ، وإذ يبلغ طول البحيرة أكثر من ميل ، وعرضها نصف ميل ، وقد أنجزت فى خمسة عشر يوماً ، ولا تزال هذه البحيرة باقية .

وأقام فى طيبة الشرقية عدة مبان ، منها طريق لتمائيل «بو الهول» ، الذى يمثل الإله آمون ، برأس كبش ، ويتألف من اثنين وعشرين ومائة تمثال ، نحت من الحجر الرملى ، وتقع هذه الطريق أمام معبد الإله «خنسو» الحالى ، وقد نقش عليها اسم أمنتب الثالث ، والظاهر أن هذا الفرعون قد أقام معبداً فى المكان الذى يحتله معبد رمسيس الثالث الحالى .

وأقام معبداً للإلهة «موت» زوج «آمون» فى النهاية الجنوبية من الكرنك ، وقد عثر فيه على عدد عظيم من تماثيل هذه الإلهة التى مثلت برأس لبؤة ، وقد وزعت هذه التماثيل على متاحف أوروبا .

ومعبده الذى أقيم فى الكرنك أجمل معبد أقيم فى عهد الأسرة الثامنة عشرة ، من حيث الدقة الفنية والتنسيق فى البناء .

وبالإضافة إلى هذه المباني صنع (السفينة المقدسة) التى يبلغ طولها نحو أربع وعشرين ومائتى قدم - مصر القديمة ج ٤ ص ٥٩ / ٨٠ .

وقد أعانه على هذه المباني وغيرها أنه جنى ثمرات جهود التحامسة الحربية ، وعبقريتهم الإدارية ، فبلغت مصر فى عهده ذروة قدراتها الاقتصادية ، وقمة إبداعها الفنى ، ورفاهتها الاجتماعية ، وأصبحت مدينتا منف و طيبة مقصد مهرة الصناع فى الشرق الأدنى وأفريقيا .

ونتيجة للسلم الذى حظيت به البلاد فى عهده ، أو نتيجة عزوفه عن الحرب راجت التجارة الخارجية ، وغدت مصر تستورد من غرب آسيا الأخشاب الثمينة لصناعة الأثاث والتوابيت ، وكذلك اللازورد والمنسوجات الأرجوانية ، والفضة والبرونز والخيول ، وتشتري من بابل المجوهرات ، ومن جزائر بحر إيجة المعادن المطروقة ، ومن ليبيا الثيران ، ومن أفريقيا الجلود وريش النعام والعاج والصمغ والأبنوس .

لكنه مع هذا ، ومن أجل هذا ، كان أول حاكم مصرى أقبل إقبالا يوصم بالشراهة على الاستمتاع بمباهج الحياة الحية . . ومن أجل هذا أيضا اصطدم بمطامع الكهنة ، ورغبتهم الملحة فى الاستحواذ على السلطان ، فسعى إلى كسر شوكتهم والتحرر من نفوذهم الطاغى ، وأخذت مظاهر الكيد لهم . . وكان أن أجرى فى بحيرة « تاروجا » المقدسة قاربه « تحن أتون » - قرص الشمس يسطع - الذى كان يخر البحرية بالملك ، ذلك لأن مزج اسم القارب بأتون أكد منزعه والده تحتمس الرابع ، الذى تحول على يد ابنه أخناتون ثورة دينية .

وعمل على تقليد ابنه البكر ، وولى عهده « تحتمس » ، منصب كبير كهنة « بتاح » ، رب منف ، وطالب ابنه ببذل الجهود لإحياء العاصمة القديمة ، ونشر عقيدتها الإقليمية ، لكن « تحتمس » توفى ، وانتقلت ولاية العهد إلى « أمنحتب الرابع » الذى أجمعت الآراء على اعتلال صحته .

وفى غمرة هذا الصراع لم يحصن أمنحتب الثالث نفسه ضد مكائد كهنة

آمون ، بل بالغ فأرسل مرات عديدة فى طلب غانيات أجنبيات ليكن فى قصره ، حتى بلغ مجموع ماسجلته النقوش أكثر من ٤٢٨ غانية ، أقمن فى البلاط الفرعونى ، ووضعن أولاداً وفتناً .

هذا على حين كان زوجاً للملكة (تى) ابنة الشعب القديرة التى سيطرت على أمور الدولة ، ووجهت سياسة الامبراطورية المصرية .

وقد أنجبت له أخناتون ، وسمنخ كارع ، وتوت عنخ آمون ، من الذكور ، ونفرتيتى ، وسات آمون ، وآست ، وحتت مرحب ، وباقت آتون ، من الإناث .

ويبدو أن أخناتون (المعتل) ، القبيح التكوين ، قد ورث عن أبيه حب النساء ، وولعه بالأجنبيات منهن ، وقد أفرد لهن جناحاً فى قصره ، يزوره كلما برّح به الشوق ، مع أنه كان زوجاً لأخته الجميلة نفرتيتى .

ولأنك لتجد فى قصره الذى أقامه فى « أخيتاتون » - تل العمارنة - منظراً يجذب الأبصار لجماله وغرابته ، يمثل حوراً عيناً كأمثال اللؤلؤ المكنون ، فى مقصورات خاصة بهن ، قد توفرن على التزيين والتجمل ، أفراداً وجماعات ، فمن تزجيج وتكحيل ، إلى تطرية وترجيل ، وبعضهن يتمايلن راقصات ، وأخر يتواثبن عازفات ، وإذا أنعمت النظر فى لباسهن وزينتتهن وطرق تصفيف شعورهن ، وفى آلاتهن الموسيقية - عرفت أن جمهرتهن أجنبيات وردن إلى قصر الأمير ، من سوريا وغيرها من البلدان التى تدين لمصر بالولاء - مصر الفرعونية ج ٥ ص ٢٥٤ .

هذا فى عاصمة مذهب (التوحيد) ، مع أنه - وهو الفرعون - كان قادراً على أن يخفى مبادلة هذه ، لكنه كان مصاباً بداء الحقيقة العارية ، ويلقب نفسه (عنخ إن ماعت) ، أى العائش فى الصدق ، وكان يبين لمثاليه أن (الحياة فى الصدق) جزء من تعاليمه الدينية ، وأن واجبه أن يأخذوها مرشداً لهم .

وكان أن سجل الفن مبادله وشذوذه ، فهو يطوق أخاه سمنخ كارع بساعده ويداعبه ، ولقد سجلت النقوش أنه كان على علاقة شاذة بأخيه هذا ، علاقة تخرج عن نطاق العقل والمألوف . . وسجل الفن هذا الفرعون الشاذ متراخياً فى

وقفته ، متكئاً على عصا تحت إبطه ، و طرفاً حزامه الطويلان ، وأهداب شعره
المستعار ، يداعبها الهواء وأمامه الملكة نفرتيتى فى هيئة لا توصف إلا بالقحة ،
ترتدى ثوباً من الكتان الشفيف يداعبه النسيم !!
أمثل هذا (الأمثلة) يمكن أن يكون داعية دين ، فضلاً عن القيام بدور
(النبي) ؟!

والنقوش تقول إنه تزوج من ابنته الثالثة « عنخس إن با آتون » التى صارت
زوجاً لتوت عنخ آمون فيما بعد ، واستولدها أبوها أنثى سميت باسمها !! -
مصر القديمة ج ٥ ص ٢٥٨ .

ومع هذا تحكى النقوش أن أباه لم يقصر فى تربيته ، فقد سعى إلى تعليمه
الفروسية والصيد ، وأشركه معه فى حكم البلاد أكثر من تسع سنوات ، ولما مات
والده ظل يحكم البلاد من « أخيتاتون » - تل العمارنة - ثمانى عشرة سنة ،
أضاع فيها هبة مصر ، وتساقطت مستعمراتها ، وجرّ الأطماع الأجنبية إلى
داخل البلاد ، بل إلى داخل قصره ، مع أولئك الغانيات المزودات بتعاليم ضد
سيادة الإمبراطورية .

وقد زعموا أن توجهه إلى الإله « آتون » يرجع إلى أنه فى صباه كان يقوم على
تربيته كهنة من عين شمس ذاتها ، ناسين دور جده تحتمس الرابع وأبيه أمنحتب
الثالث الذى سجل التاريخ فى عهده أنشودة تقول :

(إنك صانع مصور لأعضائك بنفسك

ومصورّ دون أن تصوّر

منقطع القرين فى صفاته ، مخترق الأبدية

مرشد الملايين إلى السبل

وعندما تُقلع فى عرض السماء يشاهدك كل البشر

على الرغم من أن سيرك خفى عن أنظارهم)

إن أناشيد أخناتون التى تحدثت عن (التوحيد) ، وزعموا نبوة صاحبها ،

وأستاذيته لموسى وداود ، سبقت معانيها فى أناشيد (آمون) ، وهاهى أنشودة
أمنحبت الثالث العايت اللاهى لاتكاد تخرج أو تتقص شيئاً مما تردد فى أناشيد
ابنه .

وأولئك الذين أشادوا بنبوة أخناتون ذكروا أنهم وجدوا صورة فى
(السلسلة) - جنوبى بلاد النبوة - يرى فيها أخناتون متعبداً للإله «آمون» ،
وفوقه قرص الشمس الممجنح - مصر القديمة ج ٥ ص ٢٦٨ .

وذكروا أن أخناتون كان له بثنان أخريان هما « نفر نفرو رع » ، و « ستب إن
رع » ، (ما يفيد أنه فى أخريات أيامه لم يتمسك بإضافة اسم « آتون » إلى تركيب
أسماء بناته ، كما فعل من قبل ، كأنه رأى أخيراً أن تعصبه لآتون جر عليه
المتاعب ، وأثار الفتن ، فارتد إلى التسمية القديمة « رع » وهى التسمية ألفها
الشعب منذ فجر التاريخ) - مصر القديمة ج ٥ ص ٢٨١ .

وهذا وهم ، لأن رع وآتون وآمون وأوزير وبتاح وآتوم جميعاً أسماء للإله
واحد ، يقف من وراء هذه الشمس الساطعة .

وإذا كان قد أثار عليه كهنة « آمون رع » ، فليس لأن أتباعه كانوا يطمسون
كلمة (آلهة) أينما وجدت ، بل لأنه كان مخرباً . . (عندما أراد أن يقيم لنفسه
مدينة خاصة لعبادة « آتون » هشم ثماثيل « آمون » ، ومَحَا اسمه أينما وجد ، حتى
فى سجل خطابات تل العمارنة المكتوبة بالخط المسمارى) - مصر القديمة ج ٥
ص ٢٦٩ - هذا على حين لما أراد أعداؤه - بعد ما دالت دولته - تشويه مقابر
أخناتون ومعابدها قَصَرُوا هذا التشويه على محو اسم أخناتون نفسه ، ولم
يتعرضوا لرمز الشمس « آتون » بالمحو أو التشويه - مصر القديمة ج ٥ ص ٤٣٣ .

إن كهنة آمون لم يثوروا على أخناتون من أجل الدعوة إلى « آتون » ، إنما من
أجل الطريقة التى سلكها فى دعوته ، ومن أجل سلوكه المشين ، ومن أجل
تقصيره فى الحفاظ على مكاسب أجداده التحامسة العظام .

وهذا شأن ورثة الدعوات الدينية والدنيوية ، كل فريق يعمل على تثبيت
أقدامه ، والغَصُّ من كفاح الآخرين « مع أن الشعارات واحدة ، والهدف المعلن
واحد .

إن هذا (المتنبى) الأحق لم يغفر لأبيه أن يدخل « آمون » فى تركيب اسمه ،
 فمحاها حيث وجده ، مع أنه أعاد لكهنة آمون وظيفه رئاسة معابد القطرين - الدلتا
 والصعيد - بعد أن انتزعها منهم تحتمس الرابع ، واكتفى بالتنديد بسلوك الكهنة ،
 مع أن دعوته خلت من أى قيمة أخلاقية ، كأنه يعترف بأن (فاقد الشيء
 لا يعطيه) . . ولهذا سرعان ما انتهى أمر الأخناتونية بموته ، فلم يكن لها أتباع
 يؤيدونها ويقاثلون ، سبيلها بل كانت أشبه بضوء شمعة ، ضاع بانطفائها .

الطفغان

- ١ -

يقول سبنسر عن طبيعة مصر : إنها (طبيعة نبعت من بطن إيقاع الحياة فى وادى النيل ، حيث تنعدم الحوادث المفاجئة التى يمكن أن تمس حياة البسطاء ، وحيث تتشابه الأيام التى تشغلها أنشطة ذات طبيعة زراعية لأغلب السكان ، وحيث يصفى جوها المشمس على الدوام إحساساً بتوقف الزمان ، ويلمس المسافر بالقطار من القاهرة إلى الأقصر الطبيعة الرتيبة لوادى النيل ، وهو واد مسطح ، تشغله زراعة كثيفة ، فلا يكاد يختلف منه جزء عن الآخر ، فتمتد الحقول الخضراء المزروعة برتابة لمئات الأميال ، تقطعها آجام النخيل ، وقنوات الرى ، وبيوت الفلاحين الطينية ، بينما تؤلف المرتفعات الصحراوية خلفية هذا المنظر) - الموتى وعالمهم فى مصر القديمة ص ٢٢ .

قول حالم لرجل دارت رأسه مع طول رحلة القطار التى تمتد إلى خمس عشرة ساعة ، مع أن تنوع الزراعات فى هذا الطريق تقدم لوحات رائعة متنوعة ، ثم إن حركة الفيضان الموسمية تزيد من تنوع هذه اللوحات ، وتجمع بين الجمال والرغبة ، فإذا مضينا باللوحه إلى إطارها من الجبل والصحراء ، وسكان الجبل والصحراء ، فإن الخيال يذهب مذاهب ، بقدر ما يخفى الواقع الرهيب فى سراديب الظلام ، وبقدر ما تلتوى الهيئة الحاكمة من (الفرعون) إلى (المليزم) .

وإذا كانت صحراؤنا وجبالنا قاحلة ماحلة ، وجمالهم خضراء طول العام ، فإن خضرة الجبال ، ومساحات الجليد ، وضبابية الأفق ، وما يحدثه ذوبان الثلوج من فيضانات - ليعنى أن الطبيعة الأوربية تمتاز بالتنوع دون طبيعتنا ، إنما الأمر

مرهون بنظرة السائح التى هى نظرة طائر ، تختلف كثيراً عن نظرة المقيم المتفاعل مع جزئيات الحياة .

ماذا تكون نظرة السائح إلى العاملين فى مصنع ، أو محجر ، أو الجالسين داخل مؤسسة إدارية ، أو الرعاة بين قطيع من الماشية ، أو البحارة فى سفينة تمخر العباب الأزرق والسماء الزرقاء ؟! ألا تشبه هذه الأحكام المتعجلة مايحكى عن العميان والفيل ؟!

ويقول كون : (لابد أن تظل مصر القديمة أبرز مثال معروف فى التاريخ - حتى الآن - منطقة معزولة طبيعياً ، أتيح فيها للأنواع الجنسية المحلية الأصلية أن تمضى فى طريقها لعدة آلاف من السنين ، دون أن تتأثر إطلاقاً باتصالات أجنبية).

إن (التغيرات التى لحقت النمط الجنسى فى أى جزء من أوروبا ، خلال السنوات الخمسمائة الأخيرة ، كانت أكبر منها فى مصر خلال خمسة آلاف) - شخصية مصر ص ٢٧ .

فات (كون) أن ثمة هجرات كثيرة كانت تصب فى بوتقة مصر ، أو فى (الزقاق) ، كما يحلو لآخرين الحديث عن (عزلة الوادى) ، وهذه الهجرات ظلت تتدفق - منذ فجر التاريخ - من حول روافد النيل التى تصب هى الأخرى فى مجراه صباً موسمياً ، أو صباً دائماً ، كما أن ثمة هجرات كانت تركب البحر ، عن طريق باب المندب ، أو عن طريق البحر الأحمر جملة ، وكانت هجرات عن طريق البحر المتوسط ، قبل أن يكون التدفق اليونانى ، وكانت سيناء معبراً لكثير من شعوب غربى آسيا ، وشعوب أوربية كانت تكتسح آسيا الصغرى ، ثم تهبط عن طريق سيناء ، أما عن الشعوب التى تتحرك خلف الصحراء الغربية فكانت تصل إلى حدود مصر ، وتعبّر صحراء ها ، وقد تمسك بزمام الحكم إلى حين ، أو تظل شغله الشاغل زمناً يقصر أو يطول .

وعلى فرض أن مصر (زقاق) مغلق أو مفتوح ، فإن (زنقة الستات) فى الإسكندرية ، و (حارة البرابرة) فى القاهرة ، أو شارع الموسيقى ، إنما هى موارد بشرية متعددة الشكول والألوان ، لاتبث أن تتحد فى الهدف ، وأن تشكل

حركة نشطة ، تفيض مع النهار ، وتنحسر مع الليل ، أقرب إلى فيضان النيل صيفا ، وانحساره شتاء .

ومن هنا يصبح مفهوم العزلة رجماً استهوائياً للوصول إلى ما يسمى (عبقرية المكان) ، مع أن العبقرية في قدرة هذا المكان - بخصبه المتجدد كل عام - على امتصاص نبضات الحياة في هؤلاء الوافدين ، وعلى إغراء هؤلاء الوافدين على الانتماء إلى مصر ، والعمل في ترابها من أجل تعمير هذا التراب .

يقول الدكتور سليمان حزين (حضارة مصر ص ١٩) : كانت مصر بالفعل مكونة بين الصحارى المجاورة ، وكان واديه محفوظاً بحافتي الهضبة ، التي امتازت بأنها أرض قاحلة شديدة الجفاف ، بحيث لا يستطيع أن يقطعها الغزاة القادمون من الخارج إلا في صعوبة شديدة ، ولا ينفذ منها إلا كل مغامر قوى الشكيمة ، وقادر على أن يجتاز الفيافي ، حتى يصل إلى الأرض المكنونة ، أو إلى (الكن) الذى احتفظ فى مكانه بخلاصة المغامرين .

وهذا تعليل (مريح) لو أن الغزاة كانوا يرون (بمصفاة) حقاً ، إنما كانوا أقواماً يرحلون بخيامهم ونسائهم وأبنائهم وماشيئهم للاستقرار .

لقد (هاجر إلى وادى النيل - بجوار مجارى المياه الغزيرة التى لاتزال موجودة - كل سكان وديان البيداء وصحراء العرب ، وهؤلاء كانوا البقية الباقية من قبائل أخذت تجوب فى خلال الأزمنة السالفة الجبال والهضاب التى كانت تغطيها الغابات البكر) - مصر القديمة ج ١ ص ٥٠ .

يقول إدوارد مير : إن المصريين يرجع أصلهم إلى الجنس اللوى ، وهم الذين وفدوا على وادى النيل بادئ الأمر ، واستوطنوه بوصفهم صيادين ورعاة مواش ، ثم أصبحوا فيما بعد زراعاً .

وهناك رأى آخر أن (التحنو) كانوا فى الأصل مصريين ، وأنهم سكنوا الوجه البحرى ، ثم هاجروا منه فى وقت ما نحو الغرب ، وسكنوا إقليم (تحنو) الواقع على الحدود المصرية .

وتقص علينا نقوش الملك (بعنخى) أن أمراء الدلتا كان من بينهم فى ذلك

وقت أمراء من أصل لوبى ، لم يسمح لهم بالثول بين يديه ، لأنهم لم يختنوا ، هم نجسون ، ومن أكل السمك (١٩) وقد كان ذلك من الأشياء الممقوتة لبيت ملك - مصر القديمة ج ٤ ص ٢٦ / ٢٨ / ٥٨ .

ويرى الأستاذ لوريه أنه أتت قبائل وشعوب من بلاد لوبيا ، ومن آسيا صغرى ، ومن جنوب مصر ، واختلط بعضهم ببعض ، وتحاربوا ، وأخذت واحدة منهم تحمل محل الأخرى ، ثم تحالفوا فيما بينهم - مصر القديمة ج ١ ص ١٧٤ .

وقد دل الفحص على أن سكان بلاد النوبة ومصر كانوا ينسبون إلى الجنس لحامى ، وكذلك ثبتت نسبتهم - على وجه التأكيد - للوبيى شمالى أفريقية ، الأجناس الذين يقطنون فى شرقها ، وهم سكان الصحراء الشرقية الواقعة بين النيل والبحر الأحمر وبلاد الصومال - مصر القديمة ج ١٠ ص ٤ .

ومن المحتمل جداً أن الجنس الجديد قد زحف على البلاد من شمالى سوريا ، عن طريق فلسطين وسيناء ، وأحضر معه مدنية أرقى من مدنية الجنس الأصلى لحامى الذى لم يعرف إلا الآلات والأواني الحجرية ، أما الغزاة أو النازحون يقال إنهم أدخلوا فى البلاد معرفة المعادن ، وبخاصة النحاس ، وأدخلوا كذلك عبادتهم للأموات ، وديانتهم وكتابتهم وفنونهم ونظمهم الاجتماعية والسياسية ، ولاشك فى أن دخول هذا الجنس إلى البلاد قد أتى تدريجياً من غير عنف - مصر القديمة ج ١ ص ١٤٣ .

وظلت العناصر الأجنبية تفد إلى مصر بلا انقطاع ، وتقيم فيها بوصفهم أسرى حروب يستخدمون عبيداً للآلهة ولعلية القوم ، أو بوصفهم تجاراً وجنوداً مرتزقة ، يعملون فى الجيش المصرى ، وكان يفد على البلاد طوائف من البدو استوطنوا وادى طميلات ، ومنهم اليهود .

وفى مدينة « بر رع مسيس » ، وفى منف ، وغيرهما ، أنشئت أحياء كاملة لأولئك المهاجرين من الكنعانيين والفينيقيين الذين جاءوا إلى مصر مصطحبين معهم آلهتهم وأربابهم المحليين . . من أجل هذا نجد أن الدم المصرى اختلط بكثير من دماء المهاجرين ، كما أن اللغة المصرية دخلتها كلمات أجنبية ، وبخاصة (أن

الكلمات الكنعانية كانت تتدفق بمقدار عظيم على اللغة المصرية ، ولم يكن ذلك مقصوراً على أسماء السلع والأسلحة والخيول والعربات ، بل تخطى ذلك إلى ألفاظ الحياة الاجتماعية والثقافية ، وكان الأدباء والمتحذلقون من أبناء المجتمع - كما هو اليوم - يتباهون بمزج الكلمات الأجنبية في تعبيراتهم) - مصر القديمة ج ٦ ص ٥٩٣ / ٥٩٤ .

* هذه جملة آراء لاحاجة إليها ، لأن الهجرات - على مدى التاريخ البشرى - لم تتوقف ، ولم تقتصر على مكان دون آخر ، طلباً للمرعى ، أو طلباً للاستقرار ، وهذه بدهية لا تحتاج إلى إعمال فكر .

أما عن قول برودريك : (. . . من الواضح طوال الستة آلاف سنة الأخيرة ، أو يزيد ، أنه لم يكن هناك أى تغيير ملحوظ في مظهر جمهرة المصريين ، فالبداريون ، وأهل النقادتين ، ومصريو الأسرات ، والفلاحون الذين تراهم يعملون في الحقول اليوم ، كلهم من نفس النمط القاعدي - المتوسطى) - شخصية مصر ص ٢٨ - فإنه لا يختلف في شئ عما أشرت إليه . . وإن ذهب الظن مذهب الرتبة وعدم التجديد فإنه تجاهل كبير لتنوع الحضارة المصرية ، ولحركة المد والجزر على هذه الساحة الزمنية الطويلة ، على المستوى المصرى والفارسى واليونانى والرومانى والنوبى والمغربى والعربى الإسلامى .

ومن هنا يتحول مفهوم النمطية المتوسطة (خداعاً بصرياً) ، أو (عمى ألوان) .

ومن هنا أيضاً يخرج هذا العنصر من دائرة السببية لأصالة الطغيان .

* أما العنصر الأصيل فهو - كما يقول الدكتور جمال حمدان - أن (النهر طاغية جبار ، يمكن أن يعطى بسخاء حتى الإغراق ، وأن يمنع بقوة حتى الإصحار ، والاستفادة منه تستوجب تعاوناً جماعياً لمد شبكة غطائية كثيفة من الترعى ، من كل مقياس ، من قنوات الحمل ، وقنوات التغذية ، إلى مساقى الحقول) .

(وزراعة الرى إذا تركت بلا « ضابط » يمكن أن تضع مصالح الناس المائية فى

مواجهة بعضها البعض ، مواجهة متعارضة دموية ، ذلك أن من يقيم على أعلى الماء يستطيع أن يسئ استعماله ، إما بالإسراف ، أو بحبسه تماماً عمن يقيم أسفله ، أى أن كل حوض علوى يستطيع أن يتحكم فى حياة أو موت كل حوض سفلى ، وكل من يقع على أفواه الترع يستطيع أن يهدر حقوق المياه لمن يقع على نهايات الترع ، كذلك يمكن للمحاباة والتحيز أن تسخو بالماء لمن تريد ، وتقبضه عمن تريد) - شخصية مصر ص ٤٩ .

وعلى هذا ، كان (العقد الاجتماعى - كما يقول سايس - قائماً على الماء «أعطني أرضك وجهك ، أعطك أنا مياهي» ، ومثل هذا العقد لا يمكن أن يقوم فى ظل زراعة المطر ، ومن ثم لم يكن غريباً أن يكون الحكم الفردى نظاماً فرعونياً طبيعياً).

(وبدهى أن الحكم المطلق ليس مقصوراً على البيئة الفيضية ، ومجتمع النهر الهيدرولوجى ، لكنه فيهما أيسر مثلاً ، وأقرب تحقيقاً).

(وهذا الحكم المطلق ساعد على وضع أسس الحضارة المصرية ، وأرست دعائمها ، ثم لم يلبث أن تعدى دوره ، حين أصبح موزع الماء هو مالك الماء ، والحاجز بين الرقاب هو المتحكم فى الرقاب) .

(وترتب على هذا التحكم أن احتكر الأرض قلة من الأقوياء ، وبذلك تجمعت كل خيوط القوة فى يد فرعون ، حتى أفسدته السلطة ، وتحول الحكم المطلق إلى طغيان وجبروت) - المصدر السابق ص ٥٢ / ٥٣ .

- ٢ -

(ومما ساعد على إحكام الطغيان أن البلد - المعمور - صغير المساحة ، صارم الحدود ، «عالم متناه» كالزقاق المغلق ، سهل متواضع ، ليس فيه من معاقل الالتجاء ، أو دروب الهرب ماتعرف البيئات الجبلية أو الصحراوية مثلاً ، ولا يمكن لهارب أو نائر متمرد أن يتعد عن يد السلطان وقبضته ، إلا إذا أثر النفي الذاتى تقريباً إلى نهاية العالم ، فى مستنقعات وبرارى الشمال المنعزلة ، أو مغارات النوبة المهجورة ، كما فعل المماليك الفارون من محمد على) - شخصية مصر ص ٥٦ .

وهذه الفقرة تحتاج إلى إعادة النظر ، لأنها تعتمد على (أن العزلة الجغرافية التى حدثت من الهجرات الداخلة حدثت أيضاً من إمكانيات الهجرة الخارجة ، مما مكن الطغيان المحلى أن ينفرد بالفلاح من الناحيتين) - المصدر السابق ص ٥٧ - وهذه مغالطة كبيرة ، لأن الهجرات إلى الداخل لم تنقطع ، وطرق الهجرات إلى الداخل كان يمكن أن تكون طرق الهجرات إلى الخارج ، وبخاصة أن كثيرين من المهاجرين إلى الداخل استخدموها فى الخروج ، وإذا كان المماليك - وهم جيش مسلح - قد وجدوا ملاجئ للفرار ، أمام الحاكم الذى يملك كل المقدرات ، فإن الحجة تفقد أهميتها ، وإذا كان الشريط المعمور اليوم لا يحتل أكثر من ٤٪ من مساحة مصر ، ومع هذا ، ومع أجهزة الرصد والمتابعة الحديثة ، ومع أن رجال الجيش والشرطة والمباحث المتنوعة التخصصات تمسك بأطراف البلاد ، مداخل ومخارج ، وبكل مدينة وقرية ، وبكل شارع وحارة ، ونصف السكان - لحساب الحاكم - يتجسس على النصف الآخر . . مع هذا كله يكثر التهريب ، بل إن أكثر مُقترَفى الجرائم فى صعيد مصر ، يعيشون فى أمان وسلام فى شمال الوادى ، بل فى حضانة القاهرة والإسكندرية ، فى أهم مراكز الاستطلاع والترصد !!

ويقولون إن سنوحى وهو ابن البلاط الملكى ، ورجل الجيش المعروف ، فر من أقصى الحدود الغربية إلى أقصى الحدود الشرقية ، فى أيام طويلة ، دون أن يجد من يقول له : إلى أين ، فكيف بسواه !؟

إن القضية رهن بخيرات مصر التى ماتزال إلى اليوم - بالرغم من تضاعف سكانها ، وبالرغم من عصابات الحكم التى تتحكم فى كل شئ ، حتى فى تهريب (القروض) إلى المصارف الأجنبية - قادرة على تحقيق الاكتفاء الذاتى ، لو أمكن (ترشيد) النهب والتهليب ، ولو أمكن الاستغناء عن الخبرات والمعونات والمكائد التى تحاك بليل أو نهار !!

* لقد كانت (سيوه) سلة القمح للدولة الرومانية ، ووجد العرب فى مصر (أرضاً من الذهب) ، أو (جنة الله فى أرضه) ، ومن ثم انغrust أقدام المصرى والتمصر فى هذه الأرض ، فلم يفكر يوماً فى مغادرتها . . ولأنه (مغروس) فى طميتها الخصب عد انتقاله من مكان إلى آخر - داخل مصر - نوعاً من الاغتراب والنفى . . إنها تحقق له كل طموحاته ، ففيم يتركها لسواه ، وهو ليس أحق بها منه ؟!

من أجل هذا ، تحمل كثيراً من القسوة ومن المهانة ، يقينا منه بأن (دولة الظلم ساعة) ، ولا تلبث أن تتحلل ، لأنها تحمل فى تكوينها عوامل فنائها .

ومن أجل هذا كان إيمانه بغده إيماناً بمن يملك هذا الغد .

إن القول بأن الفلاح (بحث عن التعويض عن الحياة الدنيا فى الحياة الأخرى ، فكان الدين ملجأ ومهربه) - المصدر السابق ص ٥٩ - قول بعيد عن الصدق ، لأن دين المصرى ارتبط بطبيعة الخير فى مصر ، فالنيل الذى يأتيه من حيث لا يدري ، دون أن يخلف وعداً ، والأرض التى تموج بألوان من الزروع والثمار ، والسماء الصافية المشرقة بالنهار ، المزروعة بالمشاعل المضيئة فى الليل ، والمناخ الهادئ الوديع . . هذه الطبيعة الطيبة السخية لابد أن تكون من عمل قوى قادرة رحيمة ، وفى الوقت نفسه لابد أن تطعم هذه الطبيعة نفوس الفلاحين بالطيبة والسخاء والرضا والثقة فى غد أفضل . . بل كان عمق الإيمان فى نفوسهم مرتبطاً بعمق الطاعة والاستسلام لمشيئة الله ، وبهذا يصبح قول المقرئى : (ورجالهم يتخذون نساء عديدة ، وكذلك نساؤهم يتخذون عدة رجال ، وهم منهمكون فى الجماع ، ورجالهم كثيرون والنسل ، ونساؤهم سريعات الحمل) . . ومثله قول هذا (الأوربى المعاصر) : (إن لعبة الجنس هى الرياضة

المفضلة) - لوّنّا من العبث الماخن ، لأن المقرّيزى أو الأوربى لم يقم ببسّحث إحصائى على مستوى عام ، حتّى يخرج بهذا الحكم العام الذى يشبه ما أورده صاحب (عبقريّة المكان) من أن (العرب كانت تقول بأسلوب العصر : «قال العقل» : أنا لاحق بالشام ، فقالت الفتنة : وأنا معك ، وقال الشقاء ، أنا لاحق بالبادية ، فقالت الصّحة : وأنا معك ، وقال الخصب أنا لاحق بمصر ، فقال الذل : وأنا معك) - شخصيّة مصر ص ٥٨ .

ألا تشبه هذه الأحكام اتّخاذ المصريين التماسيح فى سلاح الحدود ١٩ ومن العجيب أن الدكتور جمال حمدان الذى عُذّ (عاشق مصر) ، بسبب كتابه (شخصيّة مصر) الذى ألفه من أجل الإشادة بها وبشعبها - يُروّج هذه المقولات ، ويبنى عليها أن (هذا الإفراط البيولوجى أدّى إلى انخفاض المنفعة الجديّة للإنسان ، واتّضاعه وهوانه على الحكماء ، وزاد من فرص الطغيان والاستبداد) - ص ٦٠ .

وهذا لا يتجاوز عبثيّة الفكر الذى يتغنّى (محلّاها عيشة الفلاح) ، لأنّه كان يزور عزبة (البية) الإقطاعى ، فمُدّت له الموائد العامرة ، ومثله ذلك الذى يقول إن الليالى التى كانت تقيمها أم كلثوم كانت سبب ارتفاع أسعار المخدرات ، كأن (الغرز) التى تجمع (المساطيل) تتسع لمصر كلها .

وكأنّى بصاحب (عبقريّة المكان) رغب فى مراجعة نفسه ، أو شعر بأنّه أرخى زمام (المنقولات) ، حتّى عاشت فى أرض وتاريخ (كنانة اللّه) ، فقال : (إن مصر فى غضون عصرها الطويل - كمستعمرة - لم تعد دورات توسعية لاتقل طموحاً وقوة عما عرفت فى أروع مراحل عصرها الإمبراطورى الغابر ، لقد كانت القاعدة الأرضيّة - البشريّة والجغرافيّة - الاستراتيجيّة تؤكّد وجودها ، وتفرض ثقلها ومغناطيسيّتها ، وتشعّ جاذبيّتها ، بصرف النظر عن القشرة الحاكمة ، أو القيادة العابرة التى قد تذهب وتجيّ ، من الخارج أو من الداخل ، إنه التناقض - الطبيعى أحياناً - بين الثوابت الجغرافيّة الصلدة والمتغيّرات السياسيّة السطحيّة) - شخصيّة مصر ص ١١٢ .

وكان من واجبه أن يعرف أن (الثوابت الجغرافيّة الصلدة) لاتعطى عطاءها بدون (الثوابت البشريّة الصلدة) ، ممثلة فى هذا الفلاح (المفترى عليه) !!

- ٣ -

ومما يثير الدهشة فى منقولات الدكتور حمدان أن يستند إلى قول دورين وارينر : (من حيث تنظيم الإنتاج ، تعتبر مصر بالفعل مزرعة إدارية ضخمة ، تقوم فيها مصلحة الري بمراقبة كمية الماء الموزعة ، ومعها مساحات المحاصيل ، وللحكومة رقابة على الزراعة ، على أساس من التخطيط أكبر بكثير جداً مما لأعظم وأشد الحكومات اشتراكية فى العالم) - شخصية مصر ص ٦٤ - ليقيم الدليل على الاشتراكية فى مصر ما قبل الثورة ، وهو قول أشبه بمن يستدل على الاشتراكية فى مصر ما قبل الثورة بصوانى الطعام التى كانت تجتمع - من كل بيت فى القرية - يوم العيد فى المسجد أو فى أحد الميادين ، ومن يستدل على عمق الإيمان المصرى ببدة (موائد الرحمن) التى انتشرت فى السنوات الأخيرة ، خلال شهر رمضان .

وليس هذا التسطيح بأهش قشرة من القول بأن (البيروقراطية فى مصر قديمة قدم الحضارة الفرعونية ، مع الأهرام تبدأ ، وفيها تتلخص ، ويكفى بعدها أن نرى صور «كبار الموظفين» على النقوش والآثار القديمة ، وأن نعرف أخبارهم المتواترة فى البرديات والسجلات العديدة ، حتى ندرك خطورة الدور الذى لعبته الهيئة البيروقراطية فى القديم ، بل إن شئت رمزاً بليغاً فى النحت تجده ، ابتداء من تمثال «الكاتب» ، حتى تمثال «شيخ البلد» ، فهذه جميعاً نصب تذكارية ، وتاريخ محفوظ أو محفور للبيروقراطية الفرعونية الثقيلة ، بل لقد اعتبر ماكس فيسبر نظام الموظفين فى الدولة الحديثة «النموذج» التاريخى الذى سارت عليه البيروقراطية فيما بعد) - شخصية مصر ص ٧٧ .

إن اتخاذ التماثيل أو صور كبار الموظفين - دليلاً على أصالة البيروقراطية - هو لون جديد فى الاستقراء المنطقى ، للوصول إلى أحكام قاطعة ، أشبه باتخاذ كثرة الصور الملصقة على جدران الدول النامية دليلاً على حب الرؤساء .

إننا لانستطيع أن نفى قدم البيروقراطية فى مصر ، لكن ليس عن طريق ذكر أو تصوير كبار الموظفين ، وإلا فثمة نقوش وصور كثيرة لكل قادر على بناء مقبرة .

وإذا عُدَّ الكاتب وشيخ البلد من رموز البيروقراطية فإن العملة والخفير والنقاش والبناء ورئيس العمال ، وكل من ولى أمراً فى مصر ، حتى الملك والقائد والوزير والكاهن - يصبحون جميعاً أعمدة البيروقراطية ، ومن ثم لا تكون بيروقراطية إذا انحل عقد النظام الحاكم .

وكتب هيرودوت : (ليس فى العالم قاطبة أناس يحصلون على محصول من التربة بعمل قليل جداً كهذا ، إنهم لا يتكبدون عناء شق الأرض إلى خطوط بالمحراث ، أو عناء العزق ، أو القيام بما تقوم به الشعوب الأخرى من عمل لإنتاج محصول ما ، فالنهر يرتفع من تلقاء نفسه ، فيروى حقولهم ، ثم ينسحب بعد الرى ، حينئذ يقوم كل منهم بزراعة حقله ، بأن يطلق فيه الخنازير التى يستخدمها لضغط البذور فى التربة ، ثم ينتظر الحصاد) !!

هى نفس الرؤية التسطيحية التى تحكم على المجتمع المصرى من خلال أفلام السينما ، أو من خلال صفحة الحوادث فى الصحف ، أو من خلال (شارع الهرم) . . كأنهم لم يعثروا على المحراث المصرى والفأس فى العصر الحجرى الثانى !! ويأتى المؤرخ الكبير توينبى ، فيقول : (خلال الخمسة أو الستة الآلاف من السنين الماضية استأثرت قادة المدينت المختلفة بثمرة كد الجماعات ، وحرمو عبيدهم حقهم فيها ، دون تردد ، أو وخز ضمير ، كما نفعل بالنحل ، نسطو على خلاياه وعسله) .

وتابعه الدكتور محمد شفيق غربال ، فقال : (البلاء قديم قدم إنشاء مصر ، فها هو ذا فرعون مصر - الملك الإله - يستعرض ما حوله ، ويرى أن ليس فى الإمكان أبدع مما كان ، فيستهويه الخاطر المضلل ، فيتوهم أنه هو - وهو وحده - خالق مصر ، وفاته أنه لولا تعاون من جانب فلاحيه ، ولولا سهولة انقيادهم ، لما كان فى وسعه أن يخلق شيئاً ، فمارس السلطان ، وتصرف فيما أنتجه المجتمع بأسره ، كما لو كان ملكاً خاصاً به ، لا يشاركه فيه أحد ، ملكاً يخدم أهواءه ، ومسراته ، وتمجيده فى هذه الدنيا ، وخلوده فى الآخرة ، فلا عجب أن نادى فى الملأ «أنا ربكم الأعلى» ، ولا عجب أن انحط شأن الفلاحين ، فلم يكونوا إلا أدوات إنتاج بشرية ، وأخذ المجتمع المصرى القديم يتسم بالجمود ، والمحافظة

على القديم والتقاليد ، كما يتسم بالعقم ، مما ناقض أتم مناقضة ما اتصف به المجتمع نفسه عند مولده وفي صباه من صفات الابتكار والإقدام فى لحظة من لحظات البطولة) - تكوين مصر ص ٣٨ .

كأن مصر انفردت بهذه التجاوزات ، ونسوا ماضيعة ملوك سومر وبابل وآشور ، منذ نشأت هذه الدول ، حتى أمسك بزمامها آل بهلوى . . ومافعله الترك والمغول منذ جنكيز خان حتى السلطان عبد الحميد ، ومافعله ملوك أوروبا منذ الإسكندر المقدوني حتى الملك الشمس لويس الرابع عشر ، وإيزابيلا وبطرس الأكبر ، ومافعله كثيرون من صغار الأباطرة فى القرن العشرين ، مثل فرانكو وستالين وهتلر وعيدى أمين وسى سى سيكو وعبد الناصر وصدام حسين ، وأسماء أخرى كثيرة ترتدى ثياب الدين أو ثياب البترول .

إن الطامة اليوم تحمل شعارات براءة ، وتحدث بأحدث النظم والسياسات ، وتعمل عمل الضواري ، وأخطر العصابات !!

الكهنة

- ١ -

الذين يقرءون عن الباراسيكولوجى ، والقدرة على تجاوز حجاب الزمان والمكان ، ورؤية وسماع ماهو من (الغيب الإنسانى) . . والذين يقرءون فى كتب المتصوفة والأولياء عن ركوب الموج ، والطيران فى الهواء ، والسيطرة على ضراوة النار ، وسعار الوحوش ، والتعرف إلى (المكتوب على الجبين) ، والعلاج بالهمس واللمس . . والذين شغلهم أمر التلباثى ، والتنويم المغناطيسى والحسد والفراصة والتوجس - أحسبهم جميعا لا يشكون فى أن السحر محاولة للسيطرة على المادة ، من خلال القوة الروحية ، أو من خلال قوة مغناطيسية يتمتع بها أفراد بهم خصوصية .

وتبعا لهذا التميز تنشأ الرغبة فى فرض سلطان الساحر ، ويتبع هذا استجابة مستسلمة أو مستيثة ، مما يضاعف رغبات الساحر ، وقد يصبح قوة سياسية من وراء ستار ، كما حدث ويحدث اليوم مع زعماء دول كبيرة ودول صغيرة .

ولأن السحر قوة غير مرئية إلا بآثارها ، ولأن للدين سلطاناً آخر غير مرئى - فقد سهل التنافس بين السحر والدين ، سواء تحقق هذا بسبب من طموحات الساحر ، أو بسبب من طموحات رجل الدين ، وهو ما يحدث اليوم على مستوى العصابات التى تنسق بين مصالحها الخاصة ، ومقتضيات نفوذ كل عصابة فى مواجهة سلطة القانون .

ومن ثم كان استغلال الطقوس الدينية لأهواء السحرة ، بقدر ما أصبح رجال

الدين يستخدمون وسائل السحرة . . هذا مع أن الدين سابق على السحر ، وهو أقوى وأوسع انتشاراً . . لكن الدين الذى ارتبط بالخوف والرجاء ، وقام بالطقوس للتقرب إلى القوى الفاعلة فى الكون ، مالبث - مع مرور الزمن ، وسطوة المادة - أن خضع للمحتالين والأذكياء الشريرين . . وكان استغلال هذه الطقوس واصطناع طقوس أخرى متولدة عنها ، لتحقيق سلطان الفرد على الجماعة . . ومن ثم لبس الساحر - على مدى تاريخ طويل - مسوح الكاهن ، واتخذ الكاهن سمات الساحر ، وربما استخدم أدواته .

لقد كان السحر ذاتى الحركة والهدف ، ولهذا انفرد فى مرحلة من مراحل التطور عن الكهانة ، وربما أعلن تفوقه عليها ، وأدى هذا الانفراد والتفوق إلى وقوع الصدام بين الطائفتين .

إن (شعور الساحر بالاستعلاء والاستكفاء ، وموقفه الأحمق المتعجرف من القوى العليا ، وادعائه الوقح بقدرته على السيطرة والتسلط . . كل هذا أدى إلى إثارة رجل الدين الذى يحس بالخشية وبالرهبة نحو الجلالة الإلهية ، ويشعر بالدلة أمامها ، مما يجعله ينظر إلى دعاوى الساحر وتصرفاته على أنها نوع من الحجب والكفر والتطاول على الحقوق والامتيازات الخاصة بالإله وحده) - الغصن الذهبى ج ١ ص ٢٢٢ .

لكن مالبث التنافس الذى باعد بينهما أن قرب بينهما ، بسبب من (حكمة اللصوص) ، وخشية أن يؤدى الخلاف بينهما إلى كشف عوراتهما ، وتجروء القوى المعادية على اقتحام حصونهما .

(إن السحر - بأشكاله المختلفة - هو بالضرورة علم زائف ، لأنه لو حدث أن صدق وأُمر لخرج عن دائرة السحر ، ودخل فى دائرة العلم ، ولقد اهتم الإنسان - منذ أقدم العصور - بالبحث عن القواعد العامة التى يستطيع بها أن يخضع نظام الظواهر الطبيعية لصالحه الخاص واستطاع - خلال بحثه الطويل - أن يقوم بتجميع عدد كبير من تلك القواعد التى تتفاوت فى الأهمية والقيمة ، فأما القواعد الصحيحة أو الذهبية فإنها تؤلف مجموعة العلوم التطبيقية التى نسميها بالفنون ، وأما القواعد الزائفة فإنها تؤلف السحر) - الغصن الذهبى ج ١ ص ٢١٧ .

وهذا قول يمثل الرؤية (الخارجية) ، أو رؤية من أوتوا حظاً من العلم ، لأنه - مع بداية هذا الفن أو العلم - كانت قدرة الساحر على تغيير الصورة في عيون الآخرين أمراً ممكناً ، بدليل قول الله سبحانه ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴾ - بل إن القرآن الكريم يشير إلى تعلّم السحر ، وأنه يمكن أن يفرق بين المرء وزوجه - سورة البقرة الآية ١٠٢ - وما زال الحال إلى يومنا هذا مع الجماهير التي تستجيب لمن (يخلع الضرس بعود كبريت) « أو يقدم الدواء لكل داء بتلاوة آيات من القرآن ، أو تعويذة ، ومن يجرى أخطر الجراحات بدون مشرط ، وفي كل (سيرك) يؤدي أحد (السحرة) فقرة تهز (إيمان) الجماهير بكل القواعد العلمية ، ولقد قيل إن أحد النصابين المصريين صدر لأوربا (مياها معدنية) من مياه الآبار الارتوازية ، فشربوها هنيئاً مرثياً ، وطلبوا المزيد ، وقد سمعنا منذ سنين عن إعادة الشباب على يد (العجوز) أننا أصلاً ، وفي حي شبرا (الآن) سيدة تعالج كل الأمراض (المستعصية) بالمراسلة !!

من هنا كان للسحر في مصر القديمة دولة وصوله ، حتى كان (السحرة يدعون لأنفسهم القدرة على إخضاع أعظم الآلهة لرغباتهم ، بل كانوا يهددون الآلهة فعلاً بالدمار ، إذا لم يستجيبوا لهم . كما كانوا يهددون في كثير من الأحيان بعثرة عظام أوزيرس ، والكشف عن قضيته المقدسة ، إذا أظهر الإله شيئاً من العناد أو التمرد) ، وهذا التهديد دون شك موجه إلى الكهنة ، لا إلى الآلهة ، لأنهم كانوا على يقين من أن الكهنة هم صانعو هذه الآلهة ، (وفي الهند نجد أن الثالوث الهندوكي الأعظم الذي يتألف من «براهما» و «فشنو» و «شيفا» لا يزال خاضعاً لقوة السحرة الذين يتمتعون بفضل تعاويذهم بنوع من الشعور بالاستعلاء على أقوى الأرباب ، مما يضطر هذه الأرباب ذاتها للخضوع لهم ، والاستجابة لما يأمرها سادتها السحرة ، وتحقيق مطالبهم في الأرض أو في السماء ، وثمة قول شائع في كل أنحاء الهند ، هو إن «الكون كله خاضع للآلهة ، وأن الآلهة خاضعة للتعاويذ وأن التعاويذ خاضعة للبراهمة ، فالبراهمة إذن هم آلهتنا» - الغصن الذهبي ج ١ ص ٢٢١ / ٢٢٢ .

جاء في (بردية وستكار) أن (أحد أبناء خوفو قال لأبيه إنه يعيش في أيامه ساحر عظيم ، يستطيع أن يأتي بالمعجزات ، فأرسل الملك في طلبه ، وقام

الساحر ببعض المعجزات أمام الملك ، ومنها إعادة الحياة لبعض الحيوانات بعد ذبحها ، وفصل رأسها عن جسدها . . ثم طلب خوفو من الساحر أمراً ، فرد بأنه لا يستطيع ، لكن الذى يمكنه القيام به هو أكبر أطفال ثلاثة فى بطن زوجة لكاهن حملت بهم من الإله «رع» نفسه ، وإن الإله «رع» أخبرها بأنهم سيتولون عرش البلاد ، وأن أكبرهم سيكون الكاهن الأعظم فى مدينة «إيون» - هليوبوليس - ويضطرب خوفو ، لكن الساحر يطمئنه بأن ذلك لن يكون قريباً ، وأنه لن يحدث فى عهده ، وأن ابنه سيحكم من بعده ، ثم يأتى بعد ذلك واحد منهم) - مصر الفرعونية ص ١٢٩ .

ومادام كل ذلك سيأتى بعد موت كل الأطراف ، فإن باب الادعاء أوسع الآفاق ، كما قال (أبو لمعة) . . لكن المهم أن الساحر وضع بذرة خبيثة ضد الكهنة .

* ولأن السحرة كانوا يجدون من يصدقون ، حتى من الملوك ، كما فعل فرعون موسى الذى جمع سحرته ليواجه (معجزة) موسى - فقد تفننوا فى وسائل الكسب ، أو وسائل السيطرة .

كانوا يكتبون أسماء الأعداء على أوانى من الفخار الأحمر ، أو على قطع صغيرة من الطين ، أو تماثيل من الطين ، منذ العصر المتأخر من الدولة القديمة ، لكنها استعملت فى عصر الأسرة الثالثة عشرة على نطاق واسع ، وقد عثر فى طيبة على أوان من الفخار الأحمر ، غطيت جوانبها بتعاويذ سحرية لسحق أعداء فرعون - مصر الفرعونية هـ ص ٢٣٥ و (لكى يكون للرقى أثرها الصحيح كان على من شاء أن يتلو ورداً يجلب له الحظ أن يتطهر تسعة أيام ، وبعد ذلك يتضمخ بنوعين من الزيوت ، وأن يتبخر ، بحيث تكون المبخرة من وراء الأذنين ، وأن يطهر الفم بالنظرون ، وأن يغتسل بماء الفيضان ، وأن يتخذ نعلين من الجلد الأبيض ، ونقبتين جديدتين ، وكان عليه آخر الأمر أن يرسم على لسانه علامة الحق بمداد أخضر ، ثم كان عليه بعد ذلك أن يدخل فى دائرة لايجوز له أن يتركها طوال أداء الطقس السحري ، ولتلاوة ورد آخر تلاوة مجدبة كان يجب أن يرسم على الأرض صورة كاملة تمثل امرأة «إلهة» ، على وسطها ثعبان منتصب على ذيله ، وسماء ، وأشياء وأخرى كثيرة) .

(وكان من الخير ألا تتلى الأوراد مرة واحدة ، وإنما أربع مرات ، مع كثير من الدعوات ، فإذا ألحقت بها كلمة « اليوم » كان ذلك علامة على أنها يجب أن تؤتى أثراً سريعاً) .

(وكان ينبغي أن تتلى هذه الرقى في صوت مهيب ، ومن ثم كانت عادة تنظم شعراً) .

(وتتعدد الأغراض التي يستخدم فيها السحر ، على نحو ما تتعدد ضرورات الحياة ، فهو يصرف العاصفة ، ويحمي من السباع في الصحراء ، ومن التماسيح في الماء ، ومن الثعابين والعقارب ، وبه تحارب جميع السموم ، وتعالج جميع الجروح ، والأمراض ، وهو يقي من الموتى الأشرار الذين يتركون مقابرهم ويتربصون بالبشر . . إلخ) .

(وكان إذا صنعت تماثيل الآلهة والبشر من الشمع ، ثم دسّت في منزل الخصم ، فإنها تشلّ فيه يد الإنسان) - ديانة مصر القديمة - ص ٣٣٨ - ٣٤١ .

(وكانت رعاية السحر من واجبات « دار الحياة » ، مدرسة العلم في مصر ، كما كانت كتب السحر تؤلف على منهاج منظم ، وكان لها مكانها في مكاتب الملوك ، إذ كانت في حقيقة الأمر تنتمي إلى الأدب ، كالكتابات الأدبية ، أو كتب الحكمة ، وكانت جميعها يُدعى بأنها قديمة جداً ، فقد ألف أحدها إله الأرض ، ووجد كتاب ألفه أمنحوتب بن حابو ، وزير أمنحوتب الثالث ، لاستعماله الخاص) - ديانة مصر القديمة - ص ٣٤٤ .

وكان للأمير خَعْمَواست ابن رمسيس الثاني شهرة عظيمة في المسائل اللاهوتية الخفية ، وفي علم السحر ، وقد عزّت إليه النقوش تأليف عدة كتب في السحر ، تحوى إرشادات لاستدعاء الأرواح والعفاريت الخاصة بالدنيا وبالآخرة - مصر القديمة ج ٦ ص ٤٤٦ .

(ومن كان يملك رقية أبو فيس كان يذب التّنين عن سفينة الشمس ، ويشتت السحاب ، ويطرد العواصف ، «ويكسب فوائد على سطح الأرض ، وفوائد في مملكة الموتى» ، كما كانت تمنحه «القدرة على القيام بعمل رئيسه» ، «وتخلصه من كل سوء» .

(وكان مما اختص به السحر فى العصر المتأخر صناعة تماثيل وشواهد صغيرة كانت تقام فى البيوت ، أو تعلق فى الرقاب ، حماية من مختلف أنواع الحيوانات الشريرة) .

(وكان من وسائل الحماية حَبْل صغير تعقد به سبع عقد ، أو تنظم سبع حلقات من الحجر ، وسبع حلقات من الذهب ، فى سبعة خيوط من الكتان ، تعقد بها سبع عقد ، وقد يضاف كيس صغير به عظام فأر ، أو خاتم نقش عليه صورة يد وتمساح ، أو لوحة صغيرة عليها طائفة من صور الآلهة) .

(وفى سائر هذه التماثيل تكمن « الحكا » ، القوة التى تسمو على الطبيعة ، والتى تملكها الآلهة ، وتستقر فى أسمائهم الخفية ، والتى يمكن أن تحل فى الأشياء المقدسة ، كتيجان الملك الزاخرة بالسحر) .

(ومن شأن التماثيل والرقى أن تنقل إلى الإنسان نصيباً من هذه القوة التى كان يعتمد عليها فن السحر) .

(ومازال « الكتاب المصرى الحقيقى فى الأحلام » معروفاً فى أوربا ، وهو على غرار كتب الأحلام اليوم) ديانة مصر القديمة ص ٣٤٥ / ٣٤٨ .

هامش ..

ذكر صاحب كتاب (التراث المسروق) ص ١٣٠ أن هيرودوت تحدث عن الكهنة المصريين بأنهم كانوا يتمتعون بقوى خارقة للطبيعة ، لأنهم تدرّبوا على فلسفة مقصورة على عدد محدود من الصفوة الذين كانوا يُهيّمون على نظم (الأسرار العظمى) ، وكانوا خبراء فى السحر ، وكانوا يتمتعون بقدرة على التحكم فى عقول الناس (التنويم) ، وبالقدرة على التنبؤ بالمستقبل ، وبالقدرة على السيطرة على الطبيعة (قدرات إلهية) ، وذلك بإعطاء أوامر باسم الإله ، وبذا يأتون أفعالاً عظيمة .

ويرى هيرودوت أن مصر موطن أشهر عمليات الوحي الإلهى التى عرفها العالم القديم ، مينيرفا فى سايس ، وديانا فى بوبسطة ، و مارس فى بابريميس ، وجوبتير فى طيبة ، وأمونيوم ..

إن الكهنة المصريين هم أول كهنة حقيقيين فى التاريخ مارسوا - حسب الزعم السائد - السيطرة على قوانين الطبيعة ، ولعل مما يجدر ذكره أن (كتاب الموتى) المصرى هو كتاب وصفات وتعاليم سحرية ، استهدف توجيه قدر النفس الراحلة ، لقد كان كتاب الصلوات الخاص بنظام الأسرار المصرى ، وقد تدرب الكاهن المصرى على ظروف مابعد الوفاة ، وطرق التحقيق منها .

وهذا قول لا يرتفع إلى مستوى الحقيقة بنسبته إلى هيرودوت ، لأن هيرودوت - شأن جورج جيمس صاحب التراث المسروق - بالغ كثيراً فى إضافة أخبار مصرية بعيدة عن المنطق إلى تاريخه .

لكن الأكثر إثارة للدهشة هو ما ذكره الدكتور سيد كريم - الهلال مايو ١٩٩٧م - عن إحدى برديات السحر التى وجدت فى مقبرة أحد كهنة معبد بتاح أنه كان - بفضل قوى (إيمحوتب) السحرية - يقيم الأعمدة الشاهقة ويثبتها فى مواقعها ، ويرفع كتل الأحجار الضخام وينقلها من مكان إلى آخر ، ويحركها بدون مجهود .

وهو ما قد يكشف أسرار بناء الأهرامات ، ويفند كل النظريات الاجتهادية التى وضعها الكتاب والمؤرخون فى تخيلهم عن استعمال الزخافات الخشبية ، وحبال الجر ، والسحرة البشرية لنقل الأحجار ، والتى أثبتت البحوث العلمية بعدها عن الحقيقة .

هذا إذا قلنا إن إيمحوتب هو باني الهرم المدرج لمليكه زوسر ، وطريقة بناء الهرم المدرج لا تحتاج إلى هذا اللون الخارق من السحر ، فهل ورث السحرة عن سيدهم إيمحوتب هذه القدرة التى أقامت الأهرامات الكبرى التى أنفقت فى إقامتها سنوات ، وعشرات الأهرامات الأخرى ؟ وماذا بشأن المسلات والتمائيل الضخمة ؟ وماذا عن ذلك المحراب - (مصر القديمة ج ١٢ ص ٣٠٩ / ٣١٠) - الذى أحضره أحسن الثانى (من حجر واحد) ، من مدينة ألفتين ، وقد خصص لنقله ألف رجل لمدة عامين كاملين ، وكل هؤلاء الرجال كانوا بحارة ، وطول هذه الحجرة من الخارج إحدى وعشرون ذراعاً ، وعرضها أربع عشرة ذراعاً ، وارتفاعها ثمانى أذرع ، وهذه هى الأبعاد الخارجية الحجرية من حجر واحد ، ليضع فيها تماثيل الإلهة (نيت) على ما يظن !!

- ٢ -

أثمرت تعاويذ السحرة سلطة ومالاً ، مما أثار رجال الدين ، فأسرع الكهنة وركبوا التيارات . . وكان أن بالغوا في صناعة الآلهة ، وفي اتخاذ الطقوس ، وتحالفوا مع السحرة ، أو صاروا سحرة ، جمعوا بين الدين والسحر في وعاء ، وجعلت الطقوس تتنامى ، والتعاويذ تتوالد . . ولما صار لهم (هيل وهيلمان) ، اتخذوا الشكل الذى يميزهم عن باقى الناس ، فرءوسهم حليقة ، ولم يكن مسموحاً لهم بارتداء الملابس الصوفية فى أماكن عامة ، بل الملابس الكهنوتية الكتانية فقط ، (وكانوا يغتسلون مرتين ليلاً ، ومرتين نهاراً ، ويحلقون رؤوسهم كل يوم ، ويتخذون نعالهم من البردى) - ديانة مصر القديمة - ص ٣٧٧ .

وكان على الكاهن أن يجيد فنوناً من المعرفة ، (وأن يكون ضليعاً فى الكتب المقدسة ، وأن يعرف الأيام والساعات المحددة للشعائر المقدسة ، وأن يتخلق بالأخلاق الفاضلة ، وأن يكون «ذا فم قويم ، وشفيتين عذبتين» ، حتى يكون لتساويحه - عند تقديم القرابين - جرس جميل ، وما كان له أن يعجل فى خطوه ، ولا أن يتحدث بصوت عال) - المصدر السابق ص ٤٤٦ .

و (على قمة الكهنوت يوجد خدم الإله ، وآباء الإله الذين نسميهم الأنبياء ، وهم الذين يفتحون أبواب السماء ، أى الذين يدخلون إلى قدس الأقداس ، ويعرفون كل أسرار الإله ، ويمكن أن تميز بينهم - عدا آباء الإله المعتادين - أربع طبقات أكثر سموا) - المصدر نفسه ص ٢٢٦ .

(وفى عهد الأسرة الخامسة ظهر بجانب الكهنة المرتلين - خرحب - طائفة أخرى من الكهنة تسمى «حنك نيسوت» ، وهم الذين كانوا يقدمون القرابين للملك ، وليس من بينهم من أولاد الملك من يحمل هذا اللقب ، ولا بد أنهم كانوا أقل من المرتلين . . وهؤلاء الكهنة ينتخبون جميعهم من بين الشخصيات العظيمة ، وبخاصة من كبار رجال القصر الملكى . . وإلى جوارهم كان الكهنة المطهرون الذين كانوا يحتفلون يومياً بإقامة الشعائر ، ويؤلفون فرعاً مميزاً من رجال الدين لهم إدارة خاصة منفصلة ، وكان الكهنة المطهرون ورؤسائهم ينتخبون من بين رجال القصر وعظماء رجال الدين فى الأسرة الرابعة ، أما فى

الأسرة الخامسة فكان بعضهم ينتخب من بين كبار الموظفين . . وثمة نوع آخر من الكهنة يسمى «حم كا» ، أى خدام الروح المادية ، وهم الذين كانوا يحتفلون بإقامة الشعائر الملكية فى القصر ، وفى معابد الأهرام ، وفى معابد الشمس ، وفى الهياكل العظيمة ، وكذلك فى المعابد المحلية ، حيث يوجد للملك مذابح) - مصر القديمة ج٢ ص ١٢ / ١٣ .

وأحاط الكهنة أنفسهم بعبادة من الأسرار ، حتى لا تقتحم حصونهم . ولهذا أورثوا أبناءهم وظائفهم ، وحرصوا على تعليمهم قواعد اللغة والكتابة والحساب والكيمياء والطب ، و(أن يعرفوا صور المعبودات وألقابهم وصفاتهم ومزاياهم وقصصهم ، وأن يلموا بكل ما يختص بالشعائر الدينية والعقائد ، وأن يؤدوا امتحاناً فى نهاية الدراسة ، ومن كان جديراً بالاندماج فى هذه الهيئة كان يخلع ملابسه ، ويستحم ، ويحلق ، ويتطيب ، ثم يرتدى زى رجال الدين كاملاً ، قبل أن يسمح له بدخول أفق السماء) - الحياة اليومية فى عهد الرعامسة ص ٣٧٩ .

* وإلى جانب الكهنة كان للآلهة فى الدولة الحديثة هيئة من الكاهنات لم يشغلن سوى دور ثانوى فى العبادة ، وهن مغنيات الإله ، وكان عددهن كبيراً فى خدمة آمون ، وكانت سيدات العائلات الكريمة يتشرفن بالانتماء إلى هذه المجموعة ، وكانت على رأسهن عادة زوجة الكاهن الأكبر ، بالإضافة إلى سيدة من الأسرة المالكة ، هى زوجة الإله ، ممثلة الإلهة «موت» .

(وكانت أول سيدة عرفت هى إيموزه - نفر - إبرى - والددة الملك أمنوفيس الأول التى اختيرت فيما بعد حامية لمدينة طيبة . . وكانت حتشبسوت زوجة إلهية ، قبل اعتلائها العرش ، وبعد أن صارت ملكة أسبغت هذا الشرف على ابنتها «نفرو رع» - ديانة مصر القديمة ص ٢٢٦ .

(وكان لكل معبد فريق من المغنيات ، كان عليهن أن ينشدن ويتغنين ويحركن الصلاصل ، أو الصاجات ، أثناء إقامة الشعائر الدينية ، ولم يُقم هؤلاء النسوة فى المعبد ، بل كن يُقمن مع أسرهن) - الحياة اليومية فى عهد الرعامسة ص ٣٧٨ .

ثم ظهرت خرافة تقول : (إن طيبة لن تتبع بعد هذا أميراً من البشر ، فقد كان لها سيد إله هو آمون ، ولم يكن ممثل سلطانه على الأرض كاهنه الأعلى ، كما قد يظن ، وإنما كانت «الزوجة المقدسة» ، أى زوجة الإله فى الأرض ، وبهذا عُدَّت طيبة أشبه بإمارة روحية ، تقوم بالحكم فيها سيدة من الطبقة الراقية ، ولا بد أن كل أسرة حاكمة كانت تطمح فى الحصول لإحدى أميراتها على هذه الوظيفة السامية ، وما يرتبط بها من ثروة ، وقد حدث هذا كثيراً فى أواخر دولة الفراعنة ، أو فى الألف الأولى قبل الميلاد) - ديانة مصر القديمة ٣٥٦ .

* وقد ظهرت شخصيات ذات أثر بارز فى مسيرة الكهنة ، منهم «باك إن خنسو» الكاهن الأكبر خلال حكم رمسيس الثانى (١٢٩٢ - ١٢٢٥ ق.م) ، (تلقى تعليمه الأول فى مدرسة معبد «موت» ، ومن السنة العاشرة حتى الواحدة والعشرين تلقى تعليمًا عسكريًا ، إذ ألحق بالإسطبل الملكى ، أى كان عضواً فى فرقة الممتازين ، ثم دخل خدمة آمون بصفتة كاهنًا ، وبعد أربع سنوات صار أبًا للإله ، لمدة اثنتى عشرة سنة ، وفى سن السابعة والثلاثين صار نبياً ثالثًا ، وفى سن الثانية والخمسين صار نبياً ثانيًا ، وأخيراً جعل منه آمون - وهو فى سن الرابعة والستين - نبيه الأول ، أى كاهنه الأكبر ، وهو يفخر بأنه كان أباً للمرءوسيه ، وأنه كان يمد يده للبرؤساء ، وأنه كان ينال تقدير الفقراء والأغنياء ، لأنه كان يعطى كلاً ما يستحق ، واهتم بجنازة من لا أولاد لهم ، وحمى الأراامل والأيتام ، وثبتّ للابن وراثته أبيه ، وأنه أبعد ذوى السيرة السيئة) - المصدر السابق ص ٢٢٧ .

ويقول سليم حسن إنه أمضى نحو سبعين سنة فى سلك الكهانة ، ولا يعد أنه جاوز المائة قبل أن يوافيه الأجل - مصر القديمة ج ٦ ص ٤٨٩ / ٤٩٠ .

وقد خلفه (رومع - روى) ، الكاهن الأول الجرى (الذى أمكنه أن يمد من جديد سلطان الكهنة العظام لآمون على رجال الدين ، ومعابد الوجه القبلى والوجه البحرى ، واستفاد من انعدام السلطة المدنية بعد موت «مرنبتاح» ، حتى بلغت به الجراة أن نقش اسمه ورسم صورته على غرار ما كان يفعله الفرعون على أحد جدران معبد الكرنك ، على مقربة من مسكن الكهنة العظام ، وهو المكان الذى كان على ما يظهر ينبغى على «حريحور» أن يخرج منه ليتوج ملكاً على البلاد ، عندما حانت له الفرصة) .

(وحركة الانقلاب التى رسم خُطَّتْها «رومى- روى» هذا لم يكن لها مايشجعها مباشرة . . وذلك لأن النشاط البارز الذى أظهره رعمسيس الثالث كان كافياً لوقف إرادة كهنة «آمون» العظام المتأرجحة نحو الاستقلال ، ولكن عندما اختفى من على عرش الفراعنة آخر ملوكها العظام لم تلبث البلاد أن اضطرب أمرها ، وعضها الفقر بنابه . . وفى هذا الوقت كان على رأس كهنة «آمون» أسرةبقى أفرادها يتوارثون وظيفه الرئاسة حوالى أربعين عاماً . . وفى الواقع كان أفراد هذه الأسرة هم القابضين على زمام الأمور فى البلاد من كل ناحية ، وكان من بينهم الوزير ورئيس المشرفين على الضرائب ، وغير ذلك) .

(وقد وصل نفوذ الكاهن الأكبر إلى درجة أمكنه بها أن يجعل مالية آمون مستقلة ، وأن يرسم صورته على جدران معبد الكرنك ، بنفس الحجم الذى مثلت به صورة الفرعون نفسه) .

(وقد استطاع «حريحور» أن يجمع بين يديه القوة الدنيوية والسيطرة الدينية ، فكان رئيساً لكهنة «آمون» الأثرياء ، وقائداً لكل الجنود ، ورئيساً للمالية ، ونائب الفرعون فى بلاد النوبة ، ووزيراً ، والمدير الإدارى للأرضين - مصر - وذلك فى عهد فرعون نكرة) .

هذا (مع أن «حريحور» لم يكن من أسرة كهنة ، ولم يتربّ تربية دينية ، إنما استعان بطائفة الكهنة ، لعلمه أنه لن يصل إلى هدفه بدونها) .

(وكان من الطبيعى - بعد أن بقى نحو عشرين سنة يشغل وظيفة عمدة القصر الملكى لفرعون خامل ، قام فى خلالها بالقضاء على رذائل كثيرة شائعة ، وبإطفاء نار الثورة التى كانت مندلعة فى طيبة ، وبالقضاء على الأجانب الذين كانوا يجتاحون البلاد من كل حذب وصبوب - أن يجد نفسه سنة ١٠٨٥ ق . م الفرعون ، بعد أن اختفى رعمسيس الحادى عشر ، الفرعون الدمية ، وبهذا صار مؤسس الأسرة الواحدة والعشرين) - مصر القديمة ج ٨ ص ٦٢٤ / ٦٢٥ .

هذا بينما كان الوزير (سمندس) الذى استولى على الألقاب الملكية قد صار الفرعون فى (تانيس) ، ومؤسس الأسرة المالكة بها ، وقد حكم ٢٦ عاماً ، وتلاه

(بسوسنس) ٤١ عاما ، و(نفرخرس) ٤ سنوات ، و(أمnofيتس) ٩ سنوات . (١)

وعندما أصبح «حريحور» فرعوناً على الجنوب فى «طيبة» ولى ابنه «بيعنخى» كاهنا أكبر لآمون ، وولاه قيادة الجيش ، غير أنه مات قبل أن يتولى عرش طيبة) .
وقد خلف «بيعنخى» ابنه «بينوزم» الأول ، وعندما نودى ليتولى العرش كلّف بكر أولاده «ماساهرتا» القيام بالمهام الدينية) .

وعندما خاف «أوسركون الثالث» من الخطر الذى يمكن أن يهدد هذه الأسرة التى كان أمراؤها من الكهنة - ألغى وظيفة الملك الكاهن ، ووضع على رأس أملاك آمون وكهنته «الزوجات الإلهية» ، والمتعبدات الإلهية ، وقد بدأت سلسلة أولئك السيدات بابنته «شابت أبت» .

وقد قال ماسبيرو عن هؤلاء الزوجات الإلهية : (إنهن يؤلفن طائفة المحظيات المقدسات كاللاتى يوجدن فى فينيقيا وسوريا وكلديا ، وهذا القول فيه شك ، ولكن يحتمل أنهن كن يؤلفن مجرد رفيقات ، وبمباشرة حرس شرف للكهنة التى كان لها علاقة جسمية مع الإله ، وهى التى كانت تحمل على الأرض محل الإلهة «موت» زوج الإله «آمون» ، كما كانت فى الأصل الإلهة «حاتحور» زوج الإله «رع» الذى وحد آمون معه فيما بعد ، فسمى «آمون رع» ، ولذلك كانت تسمى «الزوجة الإلهية لآمون» .

(وأقدم زوجة إله معروفة لنا حتى الآن هى الملكة «امح حتب» والددة الفرعون «أحمس الأول» ، وقد أصبح تقريبا كل أمهات الملوك يحملن هذا اللقب على غرارها ، وذلك قبل عهد الانقلاب الدينى الذى قام به أخناتون) - مصر القديمة ج ٨ ص ٦٢٤ / ٦٢٨ .

* ومن أهم أعمال «حريحور» أنه أتم بناء معبد إله القمر خنسو ، ثالث آلهة طيبة ، الذى بدأ بناءه رمسيس الثالث ، وكان من عادة الفراعنة - إذا أرادوا بناء معبد - افتتاح محجر يدهم بالحجر اللازم للبناء ، أما حريحور فقد هدم المعابد القديمة ، واستخدم أحجارها فى مبناه ، وقد رُصت الأحجار بحيث تختفى

(١) الأسماء فى المصادر الأخرى مختلفة !!

نقوشها في البناء ، فإذا تعذر ذلك أزيلت منها النقوش ، أو غشيت بطبقة من الجص - ديانة مصر القديمة ص ٣٥١ / ٣٥٢ .

ومن المعلوم أن بدعة القبور الحجرية أو المنقورة في الصخر ، والنقوش التي تكتب على جدرانها ، إنما هي من إحياء الكهنة ، وإن تولى أمرها مهندسون ونقاشون ، ولأنها من إحيائهم فقد سهل عليهم العبث بها .

والنقوش لا تقف عند التعريف بصاحب المقبرة ، بل تمتد إلى تعاويذ تيسر له الطريق إلى الخلود في مرضاة الإله ، أو الآلهة ، والتجاوز عن شروره ، والاستمتاع بالنعيم الأبدى .

ومن خلال هذه النقوش أمكن السيطرة على كل القادرين ، هذا بالإضافة إلى أن خدمات المقبرة والقيام على صيانتها كان يتطلب توظيف طائفة كبيرة من الكهنة ، وتوسيع القاعدة الكهنوتية التي تعين على توسيع نفوذ الكهنة الكبار ، ومضاعفة ثرواتهم .

كان الشريف يقوم بعمل وصايا مدونة بعناية ، وهبات يوقف دخلها كله لتموين قبره ، وتقديم القرابين من البخور والدهان والطعام والشراب والملابس ، بمقادير وفيرة ، وفي فترات متقاربة ، ومن الجائز أن يكون هذا الدخل مصدره أملاك الشريف نفسه ، وقد يكون من المربوط على وظائفه السابقة ومرتباته الإضافية التي تقتضيها مكانته في الدولة . ذلك أن (هذه المخصصات تقى المتوفى شر الجوع والعطش والبرد في الحياة الآخرة ، وتعينه على الاشتراك في إقامة أعياد السنة واحتفالاتها الدينية ، فلا يصح - بعد مفارق الحياة الدنيا - أن يتخلى عن استمتاعه بهذه الاحتفالات الخاصة بكل أيام التقويم الهامة في العالم الآخر ، كما كان يفعل مع أصدقائه في الدنيا) - فجر الضمير ص ٧١ / ٧٢ .

* لقد لعب الكهنة دوراً خطيراً في العقائد الجنائزية . . وإذا كان المصريون - لسبب أو لآخر - تعلقوا بموتاهم ، وواصلوا الاتصال بهم ، عن طريق زيارة القبور ، أو الاحتفاظ بصورهم ، أو تلاوة بعض الصلوات أو التعاويذ ، فقد كان دور الكهنة في تعميق هذه المشاعر ، وفي توظيفها لصالحهم ، وفي تحويلها إلى طقوس وقرابين ومعابد وأبنية شامخة .

لم تكن شعوب كثيرة تتحدث عن مصير موتاهم ، بل كانوا يتخرجون من الحديث عنهم ، على حين كان المصريون يفكرون فيهم بغير انقطاع ، ولا يدخرون وسعا فى العناية بهم والاهتمام بسعادتهم ، ويعملون على بقاء ذكراهم - ديانة مصر القديمة ص ٢٣٢ .

ولا يمكن أن يكون هذا بسبب من الوفاء المتأصل فى النفس المصرية ، بحيث يتهم الآخرون بعدم الوفاء . . ولا يمكن أن يكون مرد هذا إلى طبيعة مصر الخيرة ، فما أكثر الخيرات فى بلاد ما بين النهرين وغيرها من البلاد التى كانت على صلة دائمة بمصر . . إنما يمكن أن يرد هذا إلى عمل الكهنة المتواصل على احتلاب هذا الشعب (المسكين) ، فقد سدوا عليه كل المنافذ ، وعلقوا على كل نافذة أكثر من (إله) ، ومئات التعاويذ (السحرية) ، حتى سجنوه فى مقابر من الحجر .

(وكانت الصيغ التى يلقيها الكهنة الجنازيون تقدّر بـ ١٧٨ صيغة ، كانت تشمل أسماء ما يقدم من الطعام والشراب والملابس والدهان والعطور والبخور) - فجر الضمير ص ٧٦ .

أى كما يقول المثل الشعبى اليوم (موت وخراب ديار) ، لأن بقية من هذا الميراث ماتزال بيننا ، ولقد صنع حاخامات اليهود ، وبابوات ومطارنة النصارى ، ما لا يقل استبداداً وعسفاً .^(١)

وكان الكهنة حريصين على وقوع الملك تحت سلطانهم ، أو يوهمونه بأنهم يعملون تحت سلطانه ، ليضمنوا السيطرة على جميع الأمراء وكبار الملاك .

وكان من وسائل السيطرة على الملك اعتباره (قرينا لأوزيريس) حتى يكون له حق البعث والاستمتاع بالحياة الخالدة .

ومن ثم كانت تعويذة : (استيقظ أيها الملك ، وانهض ، وخذ رأسك ، واجمع عظامك معا ، وانفض عنك التراب ، واجلس على عرشك الحديدى) .

(يا لحم الملك ، لاتتحلل ، ولا تتعفن ، ولا تخرج رائحة كريهة) - الموتى وعالمهم ص ٤١ / ٤٢ .

(١) انظر كتابى (دراسة فى التوراة والإنجيل) ، وكتابى (مسيحية بلا مسيح) .

ومادام فى الإمكان تحقيق هذا (الحلم) ، وما أكثر الملوك الذين يحلمون - فإن من السهل سقوط الذين يدينون بالولاء للملك ، والذين يتحلون بأكفان الملك ، أما غير القادرين فقد يُكتفى بمصّ دمائهم على طريقة (العلق) الذى يلتصق بالجسم ، ولا يسهل انتزاعه .

هذا رئيس الشون (نختمين) - من أشرف الأسرة الثامنة عشرة - يرجو لنفسه (مجداً فى السماء ، وقوة فى الأرض ، وتبريراً فى العالم السفلى) ، إلى آخره .

وهؤلاء أهل (باحرى) أمير الكاب ينقشون على قبره ما يمتنون له (إنك تدخل وتخرج بقلب جَذَلان ، وبما يكافئك به سيد الآلهة . . إنك تغدو روحاً حية ، ولك التصرف فى الخبز والماء والهواء) ، إلى آخره .

ولم يكن الموتى يكتفون فى بعض التعاويذ والصلوات بأن يبعث الجسد ثانية ، وإنما ينبغى أن يبعث فى شباب غضّ على نحو ما كان ، وأقوى مما كان . . وهذا مايسّر على الكهنة الإيحاء بكثير من «المأكولات» والقرايين .

يقول إرمان : (لم يفت المصريين - فى أقدم عصورهم - تزويد موتاهم بما يلزمهم من أثاث جنازى ، فكان يوضع إلى جانب الميت قبل كل شئ قدور وصحاف فيها طعام وشراب ، حتى لا يجوع أو يعطش ، وكان يتلقى الخطاطيف والنصال من الحجر ، ليصطاد طعامه ، ويحمى نفسه ضد أعدائه ، ورقعة اللعب ليزجى بها وقته ، ودبابيس الشعر ، وصلالات من الحجر لصحن الصبغ الأخضر ، حتى يحسن ترجيل شعره وصبغ ماحول عينيه ، كما فعل من قبل فى حياته ، وكانت تضاف إلى هذا أشياء أخرى لا يمكن أن تفيده إلا عن طريق خارق للعادة ، مثل قارب صغير من الصلصال يساعده فى عبور المياه التى تحيط بحقول الأبرار فى السماء ، والخادمة من الصلصال لتعجن بقدميها عجين الشعير ، وتعدّ له الجعة ، شرابه المفضل ، وتمائيل لنساء يمنحنه ملذات الهوى) - ديانة مصر القديمة ص ٢٧٥ .

ويلاحظ أن هذه التماثيل تزود بتعاويذ تعينها على (التجسد الحى) ، مما يؤكد أن كل ماتزود به المقبرة من وحي الكهنة ، وأكثره من صناعتهم .

ويقول إرمان إن ثمة احتفالات في (العالم الآخر) يشترك فيها كبار القوم مع الآلهة . وهذه الاحتفالات (تتضمن وجبات حقيقية من الخبز الجيد واللحم والكحك والارقاق ، وكان ذلك كله مكموما في سلال مختلفة الأشكال تتفق ومقام الأضياف ، وكانوا يحتاجون في كل عام ١٥ سلة احتفالية ، وأكثر من ٣٥ سلة ذهبية ، وحوالي ٣٦٥ سلة طعام ، وعلاوة على ذلك ١٢٠ كأساً) - ديانة مصر القديمة ص ٢٢٣ .

ويضيف سبنسر أنه عثر على إحدى الوجبات في منطقة سقارة - الأسرة الثانية - تتألف من ، (رغيف عيش - عصيدة الشعير المطحون - سمكة مطهية - حساء - حمام - سمان مطهى - كليتين مطهيتين - ضلوع وأرجل بقرية - فاكهة مسلوقة - نبق طازج - فطائر العسل والجبن - إناء من الخمر) - الموتى وعالمهم ص ٥٠ .

- ٣ -

يقول صمويل كرىمر : (لقد نتج التطور المرموق للقبور والشعائر الجنائزية فى مصر - خلال الألف الثالث ق.م - عن نمو واسع النطاق لفكرتين أساسيتين ، كانت الأولى عقيدة أن الأموات الذين يواصلون بعض أشكال الوجود الطيفى يمكن أن يكونوا به مصدر خطر أو خير لأخلافهم من الأحياء ، كما كانوا أنفسهم فيه عرضة لمختلف الأخطار - وكانت الفكرة الثانية ما أظنه الدافع البشرى الطبيعى لإمداد المتوفى بما يخصه ، وما يحتاج إليه ، وما كان يحبه على الأرض ، حتى يتمتع به ويستخدمه ، طالما وكيفما استطاع) .

(لقد نشأ تطور هاتين الفكرتين الأساسيتين فى المقر الملكى ، وليس فى أى منهما أن الروح أو النفس البشرية خالدة) .

(وربما كان اتخاذ البناء للقبور ، وعمق غرفة الدفن ، بما فيها من ودائع ، وإقامة القرايين الدائمة ، والأدعية ، وصور الحياة اليومية على الحوائط ، والشعائر الجنائزية ، والتمثال أو التماثيل للموت ، وغير ذلك من السمات ، بما فيها التحنيط - مُعينا وحده على الهدف الوحيد بتهديتهم ، وإمدادهم بما اعتادوا خلال حياتهم) .

(ولما كانت هذه العادات والهدايا والقرايين مقامة من أجل الأبدية ، فلقد تطورت تدريجياً - فكرة الحياة الخالدة بعد الموت) .

(وفضلاً عن ذلك ، فلقد كان القبر يبنى إلى جوار الهرم ، ولما كان الهرم سكناً لجسد الإله العظيم ، وهو الملك الإلهى ، المتحول ، فلقد نطقت نقوش القبور عن الرغبة فى أن يُقبل المتوفى الذى كان خادماً صادقاً للملكه أثناء حياته ، ليكون فى رحابه ، وأن يَمَكِّن من «المسير على سُبُلِه المقدسة» ، وكان ذلك ينطوى على الحياة الأبدية كذلك) .

(وكان هدف نصوص التوابيت إعطاء هؤلاء الذين استكتبوها على توابيتهم قوة على أن ينالوا إما شكلاً من الوجود ، فيه قدر من النعيم فى الآخرة ، ولما - وهو الأرجح - تأليها من أجل حياة أبدية ، لم تكن محتوياتها أسطورية فقط ،

فكثيراً ما أضيفت حواش إلى المتلوات الفردية لإعلام الميت لأى غرض سحرى تتلى) .

(وفضلاً عن ذلك ، فقد كانت هناك متلوات أنسب للأحياء منها للأموات) .

(وفيما عدا تلك الأخيرة ، فإن الحواشى المضافة إلى المتلوات إنما تمثل نظرة التشاؤم السائدة بالنسبة للوجود فى الآخرة) - أساطير العالم القديم ص ٤١ / ٤٢ .

* والتفكير فى الآخرة استتبع التفريق بين القادرين على مرضاة الآلهة ، من خلال مرضاة الكهنة ، وأولئك الذين خرجوا على طاعة السلطة الدنيوية ، ممثلة فى الملوك والكهنة ، والقوانين التى سنّها الملوك والكهنة .

والتفريق بين المطيعين والعصاة استتبع وجود محكمة أخروية ، شكّلها فكر الكهنة ، بحيث (يجلس أوزيريس على العرش ، داخل معبد صغير ، وتقف خلفه شقيقته إيزيس و نفتيس ، بينما يصطفّ فى الداخل أربعة عشر من النواب ، وقد نصب فى وسط القاعة ميزان كبير ، حُلّى مسنده - فى أعلاه - تارة برأس الحقيقة ، وتارة برأس أنوبيس ، أو رأس تحوت ، و يتربص وحش بجوار الميزان لحراسته ، ويلاحظ فى وسط القاعة كل من تحوت وأنوبيس ، وفى بعض الأحيان حورس والحقيقتان ، وهم جميعاً منهمكون فى العمل ، ويقوم أنوبيس ، بإدخال الميت مرتدياً ثوباً من الكتان ، فيحيى القاضى وكافة الآلهة الحاضرين) - الحياة اليومية فى عهد الرعامسة ص ٤١٣ .

واستتبعت الهيمنة على الدنيا والآخرة وضع كثير من النظم والتعاليم فى الدنيا ، ووضع كثير من النظم والتعاليم فى الآخرة ، بحيث يسهل على كل من الحى والميت أن يجد طريقه محددة مرسومة ، حقاً وباطلاً ، ثواباً وعقاباً .

- ٤ -

كان لابد أن يظل الكهنة على صلة بالآلهة ، تدعيماً لنفوذ الكهنة والآلهة ، وتقديساً لتعاليمهم ، ومن هنا كان (الوحي) ، وتلقى التعليمات الإلهية - أحد الأسباب التي تؤكد هذه الصلة .

وقد عرف هيرودوت على ضفاف النيل (مالايقل عن سبعة آلهة ، كانوا يوحون بالغيب ، وكان مهبط وحي الإلهة « بوطو » في البلد المسمى باسمها يعتبر من أكثر مهابط الوحي تمتعاً بثقة الناس ، وكانت الآلهة - في بعض الأحيان - تعلن عن مقاصدها ، عن طريق بعض الأحداث المفردة الغريبة ، وكان الناس يذهبون إلى أن حظ كل إنسان إنما يتقرر وفقاً ليوم مولده ، لأن كل يوم إنما ينتمي لإله معلوم) - ديانة مصر القديمة ص ٣٧٦ - وقد لعب (الوحي) دوراً خطيراً في السياسة المصرية ، وفي علاقة مصر بغيرها من الدول .

يقول الدكتور أحمد فخري ، (اشتهرت في بلاد اليونان ، وعلى ساحل البحر الأبيض المتوسط ، بعض مراكز النبوءات ، كان يؤمن بها الناس إيماناً أعمى ، واشتهرت من بينها شهرة كبيرة نبوءة ، آمون في سيوه ، التي كان يحج إليها حكام وقواد بلاد اليونان ، يسألونها عن المستقبل ، فتحققت نبوءاتها ، وسئل كهنة آمون في سيوه عن قمبيز وغزو الفرس لمصر ، فجاء الجواب بأن الفرس سيرحلون ، وأن قمبيز سيلاقى بشئ المصير في القريب العاجل) .

(وكان التنافس شديداً بين الفرس واليونان ، لهذا كان رد نبوءة آمون مشدداً للعزائم ، وداعياً إلى اتحاد الإغريق ، فأراد قمبيز أن يثبت تفاهة هؤلاء الكهنة ، فأرسل عليهم الجيش لهدم المعبد وقتل كهنته ، لكن آمون - كما روى هيرودوت - أرسل عليهم غضبه وانتقامه ، فقامت زوبعة رملية شديدة ردمتهم) - مصر الفرعونية ص ٤٣٤ .

ولأهمية (الوحي) في مسيرة الحياة العامة كان الاهتمام بالمعابد التي يصدر عنها هذا الوحي ، ليكون التأثير أبلغ وأعمق .

أرسل الملك سنوسرت الثالث (حوالي ١٨٦٠ ق.م) خازنه الأمير (إيجر

نشرت) إلى أبيدوس ، ليزين تماثيل الإله والأدوات الدينية بذهب اغتتمه من النوبة .

وتجلى الإفراط في الزهو داخل المعابد ، إذ كانت تنصب أمام البوابات ساريات ذوات أعلام متعددة الألوان ، أطرافها مذهبه ، وكانت البوابات من النحاس السورى المكفت بالذهب ، كما كانت الأعمدة وإطارات الأبواب تلمع بالذهب ، بل إن الأرض كانت تكفت فى بعض الجهات المقدسة بالذهب أو الفضة . . وكانت اللوحات الكبيرة من الحجر تزين كذلك بالذهب ، وترخرف بحلى من الذهب السورى ، وهى تستقر فوق قواعد مكفتة بالفضة وحلى ذهبية - ديانة مصر القديمة ص ٢٠٤ و ٢١٩ / ٢٢٠ .

* ويتابع هذا الاهتمام تحول المعبد إلى ما يسمى (بيت الحياة) .

(كانت أكثر المعابد تتضمن داخل أسوارها مدارس ، وليس فقط مدرسة للأولاد الصغار ، تعلم القراءة والكتابة ، بل أيضاً معاهد فنية يتعلم فيها الرسامون والحفاريون والمثالون الذين يستخدمون مواهبهم فى تمجيد فرعون والآلهة . . وكانت هذه المعابد تضم أيضاً مكتبات تحفظ فيها وثائق المعبد ، ومجموعة من النصوص التى نسخها عدد كبير من الكتاب ، وبها أيضاً كتب فى علم الأخلاق والآداب والفلسفة التى كان يحتاج إليها صغار الطلبة ، كما كانت تضم كتباً فنية) .

(ويذكر رمسيس الرابع أنه كان يتردد بانتظام على بيت الحياة فى أبيدوس ، واطلع على مدونات « تحوت » السنوية التى تذكر أن أوزيريس هو أشد المعبودات غموضاً ، وأنه هو القمر ، وهو النيل ، وهو الذى يملك فى العالم الآخر ، ويهبط إليه إله الشمس فى كل ليلة ، ويكون الروح المتحدة التى تحكم العالم ، ويدون « تحوت » أوامره . . ووجد فى المدونات أخبار البعثات التى أحضرت الكثير من التوابيت والتماثيل إلى « مكان الحقيقة » والمعابد) .

(وعندما عين رمسيس الرابع الأمراء والعسكريين وكبار الموظفين الذين يكونون الهيئة العليا لبعثته ، أضاف إليهم كائناً من « بيت الحياة ») .

(وعندما استقبل أحد الرعامسة سفير أمير بختان Bakhtan استشار كتاب «بيت الحياة» قبل أن يردّ عليه) .

(ويمكن أن نستنتج أن «بيت الحياة» هيئة مكونة من العلماء ورجال الدين وذوى الخبرة العباقرة ، وهم الذين يحافظون على التقاليد الدينية ، وهم الذين يحدّدون حوليات الملوك والمعابد ، وهم الذين يسجلون الاكتشافات العلمية وتقدم الفنون ، وهم الذين اخترعوا الكتابة السحرية ذات الرموز الخاصة) - الحياة اليومية فى عهد الرعامسة - ص ٤٠٤ / ٤٠٥ .

هامش ..

يقول جورج جيمس (التراث المسروق ص ٤٤ وما بعدها) ، وهو كتاب مبالغ فى التعصّب للحضارة المصرية : كانت المعابد المصرية محاطة بأعمدة تسجل عدد أبراج الفلك ، وعلامات دوائر البروج ، وكان المفترض أن كل معبد بمثابة الكون الصغير .

وقد بنيت المعابد المصرية من الحجارة ، بينما بنيت الساحات الخارجية بالأجر ، وثمة طرق واسعة تفضى إلى المعبد ، ملائمة للمواكب . . أما المدخل المباشر فتحف به التماثيل على الجانبين ، تماثيل لأبى الهول وحيوانات أخرى .

ويتشكل السور الأمامى من برجين مرتفعين ، كأن كلا منهما صرح كامل ، يطلق عليهما اسم البوابتان ، وتتصدرهما مسلتان من الجرانيت ، وتؤدى البوابتان مباشرة إلى فناء واسع ، حيث يتجمع حشد المصلين . . وتفضى قاعة محفل الصلاة مباشرة إلى قاعة رجال الدين والكهنة ، وتلى قاعة الكهنة غرفة (قدس الأقداس) التى لا يدخلها إلا كبير الكهنة ، وهى المزار المقدس ، مستقر الرب .

كانت الأسقف مغطاة برسوم تمثل السماء والنجوم ، بينما الأرض مثل المرج تجمع بين اللونين الأخضر والأزرق .

ويجب على من يدخلون المعبد أن يطهروا أنفسهم فى مجرى مائى قريب . . وتطور هذا الطقس إلى رشّ المصلين بالماء المقدس قبل دخول المعبد . .

وقد استفادت المحافل الماسونية كثيراً من طقوس المعبد المصرى .

* وتشمل المعابد مدارس لتلقين الأسرار ، سواء كانت هذه المعابد داخل مصر أو فى خارجها ، وكثيراً ما كان يشار إلى هذه المدارس باعتبارها مذاهب خاصة ، أو فلسفية ، لطقوس دينية سرية ، ومؤسسوها من مريدى (نظام الأسرار) المصرى . . وكان المعبد الأيونى فى ديدىما ، ومعبد إقليدس فى ميجارا ، ومحفل فيثاغورس فى كروتونا ، ومعبد دلفى - علاوة على مدرستى أفلاطون وأرسطو - من تلك المعابد والمدارس التى تخضع لتوجيه المحفل الأعظم المصرى ، وكانت تتم زيارات بين المحافل المختلفة لضمان تقدم الإخوة الأعضاء فى العلوم السرية .

قيل فى محاورة تيمماوس لأفلاطون : إن الطامحين إلى الصوفية قد زاروا مصر ليبدءوا حياة المريدين .

* ولما احترق معبد دلفى عام ٥٤٨ ق . م قرر أعضاؤه الاستعانة بالإخوة فى مصر ، واتصلوا بالملك أحمس الثانى (أماسيس) فلم يتردد فى تزويدهم بما أعاد بناء المعبد ، وما أعان الإخوة على استمرار نشاطهم .

وبالغ جورج جيمس - كعاداته - فذكر أن جميع القادة العظام للديانات الكبرى فى العصر القديم كانوا مريدين لنظام الأسرار المصرى ، ابتداء من موسى ، ووصولاً إلى المسيح (١٩) .

ويضيف أن موسى الذى كان مريداً من مريدى نظام الأسرار المصرى ، أصبح كاهناً فقيهاً من الأعلام المنوط بهم مهام الشرح والتفسير ، وقد تعلم ووعى حكمة الشعب المصرى ، ولم يكن هذا ميسوراً لأحد إلا عن طريق الالتحاق مريداً فى نظام الأسرار ، والتقدم التدريجى بداخله ، حيث يثبت المريد الجديد أنه كفء ملائم ليسلك الطريق .

ويستطرد : كان اسم موسى مصرياً يطلق على جميع المتقدمين الجدد لتعميدهم ، ويعنى (المُخلَّص بالماء) ، أى من نَعِمَ بفضل الماء المقدس ، وهو لا يبعد كثيراً عما تردد من أن لفظ (موسى) فى الهيروغليفية بمعنى (طفل) .

* ويروى جورج جيمس أن بطلميوس الأول ، الملقب بالملخص ، أراد أن يستكشف أسرار الحكمة المصرية ، فأمر (مانيتون) كبير كهنة إيزيس فى مدينة سيينيتوس فى الدلتا (سمنود) أن يكتب فلسفة المصريين ، وتاريخ ديانتهم ، فنشر مانيتون عديداً من المجلات (١٩) عن هذين الموضوعين ، وأمر بطلميوس بحظر ترجمة هذه الكتب ، مفضلاً الاحتفاظ بها فى مكتبه الإسكندرية لتعليم اليونانيين على أيدى الكهنة المصريين ، (أى شفاهها ، حتى يتم نقل الفكر المصرى ، دون تحريف) .

ويروى أن بطلميوس الثانى أمر إراتوستين أن يكتب تاريخاً للملك طيبة ، فأنجز ماطلب منه بمساعدة رجال الدين المصريين فى طيبة . (هناك من ينسب هذا العمل إلى مانيتون) .

* ويخص مدرسة منفيس بما يسمى (فقه إلهيات منفيس) ، نقش على حجر محفوظ الآن بالمتحف البريطانى ، يحتوى على آراء المصريين القدماء بشأن الإلهيات ، والكوزمولوجيا (أصل الكون وبنيتة ونواميسه) والفلسفة .

ويرجع تاريخ هذا النقش إلى سنة ٧٠٠ ق.م ، ويحمل اسم فرعون ، يقرر فيه أنه استنسخ نقشاً لأسلافه ، وأمكن التحقق من هذا رأى ، على أساس اللغة ونظام ترتيب النص . . ولهذا يرجع التاريخ الأصيل لهذا النقش إلى فترة مبكرة جداً ، إلى الأسرة الأولى التى اتخذت منفيس ، مدينة الإله بتاح ، عاصمة ، فيما بين ٤٠٠٠ و ٣٥٠٠ ق.م .

ويتألف النص من ثلاثة أجزاء متكاملة :

الجزء الأول يقول : (بتاح كبير الآلهة ، حمل فى قلبه كل ماهو موجود ، وبكلمته خلقهم جميعاً ، ظهر أولاً من مياه المحيط الأزلئ - نون - فى صورة تل سمرمدى ، وإلى جوار التل مباشرة ظهر الإله أتوم من المياه ، واستوى فوق بتاح «التل» ، وبقي فى الماء أربعة أزواج من الأرباب الذكور والإناث ، وهم الثمانى الربوبى الموحد : ١- نون ونونيت ، أى محيط الماء الأزلئ والسما المقابلة . ٢- هو وهوهيت ، أى اللا محدود وضده . ٣- كوك وكوكيت ، أى الظلمة وضدها . ٤- آمون وآمونيت ، أى الخفى وضده) .

ويستنتج من هذا النص : أ- أن الماء مصدر كل شئ . ب - الخلق لإنجاز تحقق بفضل وحدة مبدئين خالقين : بتاح و آمون ، أى وحدة العقل نوس **Nous** مع كلمة الخلق لوجوس **Logos** . ج- آتوم هو الصانع الأول ، أو الإله الوسيط فى عملية الخلق ، وهو أيضاً إله الشمس ، أو إله النار . د- المبادئ المتضادة تحكم حياة الكون . هـ- عناصر الخلق هى النار (آتون) والماء (نون) والتراب ، وبتاح ، والهواء .

والجزء الثانى يقول : (آلهة النظام والترتيب فى الكون يمثلها تسعة آلهة فى وحدة ربوبية واحدة ، يسمون التاسوع ، وآتوم مصدر الثمانى الربوبى الموحد ، وهو أيضاً مصدر النظام والترتيب ، اتخذ أربعة أزواج من أعضاء جسده أرباباً ، بحيث يتألف معه التاسوع ، وهذه الآلهة الثمانية هى أول المخلوقات فى هذا العالم ، وهى : شوأ أو الهواء ، وتفنوت أو الرطوبة ، وجب أو الأرض ، وتوت أو السماء . . وقد تولد عن هذه الأربعة أربعة آلهة أخرى ، هى أوزوريس ، إله الوجود فى الكل ، والمعرفة المحيطة بالكل ، وإيزيس ، زوج أوزير والمبدأ الأنثوى ، وست ، إله الشر ، ونفتيس ، المبدأ الأنثوى فى العالم الخفى) .

والجزء الثالث يقول : (يتمثل فى كبير الآلهة «بتاح» الفكر واللوجوس ، والقوة الخالقة صاحبة النفوذ فوق جميع المخلوقات ، إنه ينقل القوة والروح إلى جميع الأرباب ، ويدير حياة جميع الموجودات ، بما فى ذلك الحيوان والإنسان ، من خلال فكره وأوامره سبحانه ، إن جميع الموجودات فيه سبحانه تحيا وتتحرك وتملك وجودها الخالد) .

ويعلق جورج جيمس على هذا النص بأن فقه إلهيات منفيس هو مصدر المعرفة العلمية الحديثة ، لأن أرباب النظام والترتيب فى الكون يمثلها تسعة آلهة فى ربوبية واحدة ، تسمى التاسوع ، وإذا ما قارنا هذه (الكوزمولوجيا) مع الفرض السديمى عند (لابلاس) فسنجد أوجه شبه (مذهلة) بين النصين ، إذ يقضى الفرض السديمى أن نظامنا الشمسى الراهن كان فى السابق سديماً غازياً منصهراً ، ودار هذا السديم على محور بسرعة مذهلة ، ثم تقلصت الكتلة مع البرودة ، وتولدت سرعة أكبر ، وأسفر هذا عن انتفاخ عند خط الاستواء ،

وانفصال تدريجي لحلقات غازية تشكلت ذاتيا في كواكب ، وأطلقت هذه الكواكب بدورها طاقات غازية تشكلت هي الأخرى فى صورة أجرام أصغر حجماً ، إلى أن أصبحت الشمس أخيراً البقية الباقية من السديم ، الأب الأصيلى . . ويبدو من هذا النص أن السديم المنشأ الأصيلى ، كان النار أو الشمس ، وأنه إذ أطلق أجزاء من نفسه خلق بعض الكواكب ، التى أطلقت بدورها أجزاء منها ، وخلفت غيرها ، وهذا ما يتفق مع نص فقه إلهيات منفيس .

ومع هذه (التلفيقات) يفسح جورج جيمس مجالاً للحديث عن (نظام الأسرار) الذى استحدثه المصريون القدماء مذهباً دينياً شديداً التعقيد .

يرى هذا المذهب أن جسد الإنسان سجن النفس التى يمكن أن تتحرر من قيودها البدنية ، وذلك عن طريق التمرس على فروع المعرفة ، من فنون وعلوم ، وبذا ترتقى وتسمو إلى مستوى إلهى خالد .

وكان هذا هو مفهوم الخير الأسمى الذى ينبغى أن ينشده جميع الناس ، وأن يطمحوا إليه ، لأنه أساس جميع المفاهيم الأخلاقية .

وكان (نظام الأسرار) يتوخى السرية ، كما كانت عضويته رهن المبادرة الشخصية ، والتعهد بالحفاظ على السرية .

كان المريد المبتدئ يتلقى التعاليم شفاهة ، فتتدرج هذه التعاليم وفق مراتب متصاعدة ، وطور المصريون فى ظل السرية نظاماً للكتابة والتعليم ، وحظروا على الأعضاء تدوين مايتلقون .

كان أهم أهداف (نظام الأسرار) تأليه الإنسان ، أى التشبه بالإله ، لأن تحرير النفس من قيود البدن يسمو بها ، بحيث ترى الأرباب ، وتبلغ مرتبة الكشف الصوفى ، وتتصل بالأرواح الخالدة .

واشتملت هذه الحرية على عملية متصلة من المجاهدات والرياضيات ، أو التطهر لكل من الجسد والنفس .

ونظراً لأن نظام الأسرار يقدم للإنسان خلاص النفس ، فإن الخلاص يتم من

خلال ثقافة منظمة ، ذات ثلاث مراتب ، كما يرى بيتشمان ، وهى :

- ١- البشر الفانون ، الطلاب الذين يخضعون لفترة التجربة والاختبار ، ويجرى تلقينهم العلوم ، وإن لم يعاينوا تجربة الكشف الباطنى ، أو البصيرة .
- ٢- الأذكياء ، أولئك الذين عاينوا تجربة الكشف الباطنى ، واتصلوا بالعقل الكونى .

٣- الخالقون . أبناء النور ، الذين توحدوا بالضوء ، وتحقق لهم الوحي الروحى الحق .

وهذه المراتب - فى رأى مارشام آدمز - مكافئة لدرجات التلقين ، والكشف ، والكمال ، حيث يمارس الطلاب رياضات ومجاهدات فكرية ، وتسكاً وزهداً فى الأمور البدنية . مع فترات اختبار مواجهة محن أو ابتلاء ، لتحديد مدى ملاءمة كل منهم للمضى إلى عملية أكثر جدية وجلالاً ورهبة ، من عمليات التلقين .

ولم يكن التعليم يتألف فقط من الفضائل العشر التى تمثل أساس السعادة الخالدة ، بل يتألف أيضاً من الفنون العقلية التى تسهدف اعتاق النفس ، بالإضافة إلى تعلم قواعد اللغة والخطابة والمنطق ، باعتبارها مباحث ذات طبيعة أخلاقية تظهر من النوازع البرية اللاعقلانية .

وتعد علوم الهندسة والحساب علوماً سامية تتعلق بالفضاء ، تهيب لصاحبها مفتاحاً لكل مشكلات الوجود المرنى ، ويتناول علم الفلك المعلومات التى تتعلق بالقوى الكامنة فى الإنسان ، وتوزيعاتها ، ومصير الأفراد والأعراق والأمم . . . أما الموسيقى ، أو التناغم ، فتعنى بتصحيح الحياة البشرية لملاءمتها فى تناغم مع الله ، إلى أن يتم توحد الروح الشخصى مع الله ، حين تسمع الروح وتشارك فى موسيقى الأفلاك السماوية . . وكانت الموسيقى وسيلة علاجية لشفاء الأمراض .

* والمنهاج التعليمى لنظام الأسرار المصرى يتألف من :

- ١- القواعد العقلية التى تشكل أساس التشقيف لجميع المبتدئين : النحو والصرف والحساب والخطابة والجدل والفلك والموسيقى .

٢- علوم كتب هرمس الـ ٤٢ . . يقول كليمنت السكندري : إن نظمها وموضوعاتها كالاتى :

آ - المرتل ، ويجب عليه الإحاطة بكتابين من كتب هرمس ، خاصة بالموسيقى ، أى التسابيح الإلهية .

ب- المنجم ، ويجب عليه الإحاطة بأربعة من كتب هرمس ، خاصة بالفلك .

ج- حامل الرموز السرية ، ويجب أن يجيد اللغة الهيروغليفية والكوزموجرافيا ، أى وصف معالم الكون ، والجغرافيا والفلك وطبوغرافيا مصر . ومساحة الأراضى .

د - حاملو الأرواب المزركشة ، وعليهم معرفة مافى كتب هرمس ، بشأن عملية التحنيط ، وذبح الحيوان .

هـ- المتنبئ ، وهو رئيس المعبد ، وعليه الإحاطة بكتب هرمس الخاصة بالمستوى الأرفع ، من فقه الإلهيات للنخبة ، فضلاً عن كل مايتعلمه الكهنة .

و - الباستوفورى ، وعليه معرفة ستة من كتب هرمس ، تتناول وظائف الأعضاء والتشريح والأمراض والعقاقير والآلات الطبية .

٣- علوم الآثار : عمارة وبناء ، ونجارة ، وهندسة ، ونحتا ، وزراعة ، وتعدينا : وجراحة ، ورسم وتلوينا .

٤- العلوم السرية : الرموز العددية ، والرموز الهندسية ، والسحر ، وكتاب الموتى ، والأساطير ، والحكم والأمثال .

٥- النظام الاجتماعى وحمايته : إذ كان الكهنة محامين ، وقضاة ، وموظفى دولة ، ورجال أعمال وتجارة ، وملاحين ومن ثم عُتُوا بالاقتصاد ، والتربية المدنية ، والقانون ، والحكم ، والإحصاء ، والتعداد ، وبناء السفن وقيادتها، وحركة الرياح والموج ، والشلالات ، والعلوم العسكرية ، وصناعة العربات ، وتربية الخيول .

* ومع هذا يقول بريستيد (تاريخ مصر ص ٨٩) : إن اهتمام المصريين بالعلم كان لفائده العملية فقط ، ولم تُنقِ نفوسهم إلى دراسة أصول الطبيعة والكون إلا إذا اضطرتهم الضرورة لذلك ، وهذا أمر طبيعي فيمن لا يميل إلى البحث في الحقائق الغامضة ، ولذلك لم تتقدم معارفهم إلا فيما يتعلق بمعيشتهم اليومية وأعمالهم الدائمة (١٩) . (١)

كأن الفائدة العملية ليست أهم الدوافع العلمية ، وكأن المعيشة اليومية بعيدة عن الدراسات الميتافيزيقية ، إلهية وأسطورية !!

ورغم هذا فقد أشاد بريستيد في كتابه (فجر الضمير) بسبق المصريين في جميع المجالات الإنسانية علوماً وفنوناً وآداباً ، وجمعوا بين المبنى الشامخة والفتوحات الباهرة ، وبين وسائل الاستمتاع بالحياتين الدنيا والآخرة .

* وكما خلع الكهنة على بعض المعابد ما يميزها ، أو ما يقدسها ، فعلوا كذلك ببعض المقابر .

(من بين القبور التي يرجع تاريخها إلى عهد الأسرات الأولى في «العراة المدفونة» قبر أوزير الذي صار بسرعة المقام المقدس في مصر ، تحج إليه كل طبقات الشعب ، وكانت أعظم البركات التي ينالها الإنسان هي أن يدفن بجوار ذلك القبر المقدس ، ولذلك كان كثير من الموظفين عند قيامهم بمأمورية رسمية في هذه الجهة ينتهز الفرصة لإقامة قبر له هناك ، وإذا تعذر عليه بناء قبر حقيقي كان يقيم لنفسه مقبرة وهمية ، ويكتب عليها اسمه وأسماء أفراد أسرته وأقاربه ، وإذا تعذر ذلك أقام لوحة تذكارية ينقش عليها أدعية للإله أوزير العظيم خاصة به وبأسرته) .

(وقد كان بعض حكام الأقاليم يوصى بنقل جثمانه إلى «العراة المدفونة» بعد وفاته ، لتقام له شعائر خاصة هناك ، ثم يجلب معه بعض التذكارات المقدسة ، لتوضع معه في قبره المقام له في مقاطعته) - مصر القديمة ج ٣ ص ٥٠٥ / ٥٠٦ .

(١) وانظر تاريخ مصر ص ٤٧١ .

- ٥ -

وظل التوسع فى سلطان المعابد ، وفى اختصاصاتها ، حتى كان فى معبد آمون شرطة وسجن ، وفى البر الغربى كان رجال الحدود على أتم استعداد لتنفيذ أحكام المعبود بالقبض على المخطئين ، دون إمهال - الحياة اليومية فى عهد الرعامسة ص ٣٨٧ .

وتبع هذا النفوذ الكبير للكهنة أن صاروا يُعوذونه بتعظيم الملوك ، وأن يجمعوا بين السلطتين التشريعية والتنفيذية فى كيان واحد ، بحيث يصبح الإله ملكاً ، والملك إلهاً .

هذا أمْنَحوتب (١٥٥٧ - ١٥٣٥ ق.م) أول ملوك الإمبراطورية الحديثة ، الذى نحت له مقبرة فى وادى الملوك ، انتشرت عبادته ، حتى أصبح له عدة هياكل فى طيبة وفى البر الغربى .

وكان عيد هذا الشفيح الطيب يستمر أربعة أيام ، لا يكف العمال خلالها هم وزوجاتهم وأولادهم عن الغناء والشراب ، وكان رجال الدين يحملون التمثال أثناء سير الموكب ، وأولئك الذين يُطلّونه ويُروّحون له بالمرأوح ويُخَرّونه كانوا جميعاً من العمال ، لأنه بنى لهم مدينة ، وكفل لهم حقوقاً .

(كان العمال يثقون فيه إلى حد كبير ، حتى إنهم كانوا يطلبون منه أن يفض منازعاتهم ، وكان قضاؤه ينطوى على السلام ، ويتصف بالسرعة وقلة النفقات) - الحياة اليومية ص ٣٨٤ .

(كانت تجرى استشارته عن طريق الوحي ، وكانت هذه الاستشارات تتعلق بدعاوى الممتلكات ، وليس الوظائف ، وكان الإله « أمْنَحوتب » يدعى ليتخذ قراراً إذا نشب نزاع حول المحكمة المدنية ، أو لم يتم الذهاب إلى المحكمة أصلاً ، وكان العمال الكهنة يحملون صورة الإله أثناء استشارة الوحي ، أمام ملتمس الدعوى الذى يشرح قضيته ، وربما قام كاتب المقبرة بإعادة شرحها ، ثم كان الإله يُملئ بعد ذلك قراره) .

(وتدل الوثائق المتبقية على أن الإله يلقى خطاباً مطولاً حول القضية ، وإن

كان قوله لا يعدو - فيما يرجح - التسجيل الرسمي للحكم ، والأكثر ترجيحاً أن الإله كان يجيب على أسئلة محددة بالإيجاب أو النفي ، أو يومئ إلى ما وقع عليه اختياره من الالتماسين المكتوبين ، وتبعاً لهذا الاختيار كان حامل الصورة ، ومن ثم الصورة المقدسة نفسها « تتحرك دون شك إلى هذا الجانب أو ذاك ، أو ربما إلى أعلى أو إلى أسفل ، للدلالة على القبول أو الرفض) - صنّاع الخلود ص ١١٨ .

وأدى تأثير هذا الوحي في نفوس العامة - و «المندل» اليوم صورة منه - إلى محاولة الاتصال المباشر ، عن طريق الرسائل ، كما حدث في مصر المعاصرة ، إذ وجدت رسائل مرسلة إلى الإمام الشافعي لقضاء الحوائج ، ولا بد أن يكون لأئمة وأولياء آخرين حظ من الرسائل لم يكشف النقاب عنها !!

(في هيكل «سكنو بايو» ، على حافة صحراء الفيوم ، على الشاطئ الآخر من بحيرة قارون ، وجدت رقاع من الفلاحين وصغار الطبقة الوسطى في هذه المنطقة ، تكشف عن رغباتهم وآلامهم . . فهذا يسأل الإله إذا كان عمدة القرية قد باع بقره ، وهذا يريد أن يعرف هل يفحص حاكم المقاطعة الوثائق ، وتلك المرأة ترجو أن تعرف هل لها أن تشتري عبد امرأة أخرى ، وآخر يكتب على رقعة : «أُتقدّر لى أن اتزوج تابتويس ، وهل لن تكون زوجة رجل آخر ، بين لى ذلك ، وحقّق لى هذا الرجاء المكتوب ، لقد كانت تابتويس زوجة لحوريون من قبل» . . أضاف العبارة الأخيرة حتى يتبين للإله أى امرأة مقصودة بهذا الاسم) .

(وقد ازدهرت هذه الطريقة في المعابد الكبيرة ، كما فى أبيدوس ، حيث كان «بس» يجيب على رقاع الأسئلة . . وفى هليوبوليس حيث كانت تقدم للإله رسائل مختومة ، كان يجيب عليها كتابة) - ديانة مصر القديمة ص ٤٤٨ .

* كان الكاهن الأكبر فى طيبة يستتر وراء الإله آمون الذى كان يعد - منذ بداية الألف الثانية قبل الميلاد - ملك الآلهة والناس أجمعين ، فكان ما يوحى به هذا الإله - فى كل أمور الدنيا - هو القول الفصل ولا راد لحكمه ، وكانت تهرع إليه الناس فى الأعياد لتقديم شكائاتهم ، فى صورة بطاقات مكتوبة أحياناً ، يجيب عليها تمثال الإله الذى كان يحمل فى قارب خاص على أعناق الكهنة ، بإيماءة خاصة تدل على الرضا ، وبأخرى تدل على الرفض .

ولما كان هذا (الغزو) لقلوب الشعب وجيوبه يمكن أن يشير ثائرة رجال البلاط - من غير الكهنة - وبالتالي يثير حفيظة الملك ، فقد كان الحرص الشديد على توثيق علاقة الملوك (الأقوياء) بالإله آمون ، أو أن يكونوا آلهة على مثاله .

هذا سنوسرت الثالث (١٨٨٧ - ١٨٤٩ ق . م) فاتح النوبة صار إليها يعبد ، وقد عثر على نقش في جهة (توشكا) شمالي (بو سمبل) يمثل منظر أسرة تقدم قرباناً له ، ولما جاء تحتمس الثالث ، الفاتح العظيم تعبد لهذا الإله سنوسرت ، وبعد ألف ومائتي عام وجدنا الفرعون النوبي (تاهرقا) يتعبد له .

وقد سبقت الإشارة إلى أن حتشبسوت صارت ابنة الإله عن طريق قصة شائقة صنعها الكهنة ، وقد سجلت هذه القصة على جدران معبدها في الدير البحري ، وفي أكثر من معبد . . وكذلك فعل زوجها اللدود تحتمس الثالث الذي تقول نفوشه : (إنه الإله آمون ، والدي ، وأنا ابنه ، حينما لأزال فرخا في عشه ، ولقد أحبنى حقاً من لبه ، وخصني بالملك ، وليس في ذلك مبالغة ولا مئين) . . وجاء رمسيس الثاني فأعاد كتابة قصة حتشبسوت ، ودون على جدران معبد (بو سمبل) قصة ميلاده الإلهي ، وثناء الآلهة عليه .

ومن هنا كانت سيطرة الكهنة مؤيدة بسيطرة الملوك ، وقد أعانهم - كما يقول هيرودوت - (أن المصريين كانوا يعتقدون أن كل شيء في العالم ملك للآلهة ، وأنهم منبع كل خير ، وأنهم على علم برغباتنا الدنيوية ، وأن في استطاعتهم في كل وقت أن يتدخلوا في أحوال البشر) .

لهذا ، (ومنذ أن تولى أحموزا العرش ، أصبحت الأموال التي تفيض عن الحاجة ، وكل ما يقتصد ، يكسب في المعابد ، وكانت تشيد معابد جديدة ، أما التي كانت موجودة فقد أصبحت توسع وتجميل ، وترسم أسوارها وأبوابها ، وذلك فضلاً عن صناعة المراكب المقدسة ، وإقامة تماثيل ، واستبدال الأحجار باللبن وتغيير الأخشاب المحلية بأخشاب ثمينة مستوردة من الخارج ، وعمل تكسيات بصفائح الذهب لقمم المسلات الهرمية الشكل ، وجدران البيت الكبير - المعبد أو قصر الفرعون - وتزويد كل القاعات بالأثاث المطعم بالذهب والأحجار الكريمة) .

(وكان لكل مدينة شجرتها المقدسة ، كما كان لها معبودها المحلي ، ولكن هذا المعبود لم يكن كافياً ليرضى حماستهم الدينية ، وفى كل مدينة - مهما كانت ضئيلة الأهمية - كان الإله المحلي يتحد مع معبودات أخرى قد أتت فى يوم ما من مدينة قريبة أو بعيدة . . فعندما شيد رمسيس الثانى مقر إقامته الموجود فى الدلتا الشرقية - بررعمسيس - جمع فيه طائفة من المعبودات ، فكان «آمون» موجوداً بجوار «ست» عدوه اللدود فى الماضى وفى المستقبل ، و«توم» معبود أون ، و«بتاح» معبود منف ، ومعبودات الدلتا مع معبودات سوريا وفينيقيا ، كأن لم يكن لدى المصريين آلهة كافية ، فراحوا يتعبدون لآلهة البلاد المجاورة) - الحياة اليومية فى عهد الرعامسة ص ٣٧١ / ٣٧٥ .

قد يكون جمع رمسيس الثانى للآلهة المصرية وغير المصرية إعلاناً عن سعة فتوحاته ، واكتمال قدراته ، وإعلاناً عن أنه مؤيد من الآلهة ، وأنه منصور لامحالة .

ويبدو أن رمسيس سنّ سنة (حميدة) أمكن تطويرها زمان احتلال مصر ، فانضم آلهة الرومان - زيوس وهرقل وأرتميس وأفروديت وديونيسوس وبرياب - إلى قائمة الآلهة المصرية ، وتمصرت هذه المعبودات فى أكثر الأحيان ، حتى كان على « هليوس » نفسه أن يحمل على يده تمساحاً ، كأنما أراد الكهنة إثبات قدرة مصر على (قهر الغزاة) ، باغتصاب آلهتهم . . وما دام فى الإمكان الاستيلاء على آلهتهم ، فعن طريق هذه الآلهة يمكن تطويع القوى المحتلة لصالح مصر ، و (تطبيع العلاقات) بين الغزاة والمحتملين !!

❖ ولما ثار أخناتون على (البابوية الآمونية) - كما يقول بريستيد - وقيد كثيراً من سلطاتهم ، سرعان ما كادوا له ، وانتصروا عليه ، واستردوا كل ما فقدوا ، وعاثوا فى مصر فساداً ، حتى إن (حورمحب المحارب المحنك الذى تولى الحكم بالنيابة ، فى الفترة بين اعتلاء ذرية أخناتون ورمسيس الأول للحكم - كان يعلم أنه خلال سنى الاضطرابات التى تلت الثورة الدينية ، كان الكتاب ومحصلو الضرائب وكل من حاز سلطة يضغطون على صغار الممولين بصورة شنيعة) ولهذا سنّ مرسوماً ضد المفسدين ، فكل قاض يثبت عليه أنه أساء استعمال سلطته كان

يحكم عليه بجذع أنفه ، ويُتَقَى في شبه معتقل ، في سيلا ، في برزخ السويس) .
(وتناول مرسوم سيني الأول تحذيرات بلهجة شديدة إلى الوزراء وكبار الموظفين والقضاة وحاكم كوش ، وإلى قواد حملة السهام ، وإلى حراس الذهب ، وإلى الأمراء ورؤساء القبائل في الجنوب والشمال ، وإلى الفرسان ورؤساء الاسطبلات ، وحملة المظلات ، وإلى جميع حرس القصر الملكي ، وجميع المبعوثين . . وكان المقصود من هذا كله حماية « معبد ملايين السنين » الذي كان الملك قد شيده في أبيدوس ، وخصص له في سخاء الأملاك والخدم والمواشى لمنع هؤلاء الموظفين من استغلالها) - الحياة اليومية في عهد الرعامسة ص ٣٤٨ .

ولعل قصة فلاح وادى الملح تعبر عن إحدى صور هذا الفساد الذى سيطر على الجهاز الحكومى .

(وما لم يكن فى مقدور البلاد أن تقاوم تلك القوة السياسية الكهنوتية ، التى كانت بمثابة دولة داخل الدولة ، وكانت البلاد دائماً فريسة لتعديدها الاقتصادية ، فإن مصر هوت بذلك إلى الانحطاط بسرعة ، إلى أن صارت حكومة كهانة فقط ، حتى إنه حوالى سنة ١١٠٠ ق.م . سلّم الفرعون صولجانه إلى رئيس القوة الحاكمة التى صارت وقتئذ هى حكومة المعبد) .

(وفى خلال التطور الطويل الذى كان من جرائه استيلاء الكهنة على إدارة شئون العرش ، لبست المظاهر الخارجية والرسمية للتدين من حلل الفخامة والأبهة ، ما لم تصل إليه من قبل أى قوة دينية فى تاريخ التدين القديم ، ولذلك ، فإن معابد ذلك العصر ستبقى دائماً من أروع الآثار الباقية من العالم القديم) - فجر الضمير ص ٣٥٧ وأعانهم على هذا تلك الثروة الهائلة التى صارت تصب فى أوعيتهم .

أصدر الملك (نفر إر كارع) - الأسرة الخامسة - مرسومًا لرئيس الكهنة (حمور) يقول :

(إنى لا أسمح لأى إنسان له السلطة أن يأخذ أى كاهن من الكهنة الذين فى المقاطعة التى أنت منها لأى عمل فى المقاطعة تسخيرًا أكثر من العمل الذى يقوم به للإله شخصيا فى المعبد الذى هو فيه) .

(ويجب كذلك المحافظة على المعابد بواسطة الكهنة القائمين فيها ، ولايفرض عمل ماتسخيرا على حقل ما من حقول الإله المكلفة به كل الكهنة ، ولا يؤخذ لأية سخرة كانت فى المقاطعة فلاحون ، أيا كانوا ، من الذين فى أى حقل من حقول الإله المكلفة به كل الكهنة ، وذلك لأنهم مُعَفَّون لمدة الأبدية ، وذلك طبقًا لمرسوم ملك الوجه القبلى وملك الوجه البحرى - نفر إر كارع - ولا توجد أية وثيقة فى هذا الموضوع فى أية مصلحة) .

(وكل فرد من المقاطعة سيستولى على كهنة ممن فى حقل الإله المكلفين به فى هذه المقاطعة ، ويسخرهم فى المقاطعة - يجب عليك أن توجهه إلى بيت زراعة المعبد ، حتى يشتغل فى كل أعمال التسخير الخاصة بمصلحة الحرث هذه فى هذا المعبد ، وهكذا مع كل فلاح فى حقل الإله) .

(وكل أمير من أمراء الجنوب ، أو كل موظف ، أو قريب للملك ، أو رئيس شرطة ، يعمل ضد تعليمات هذا المرسوم الذى اتخذ لقلعة « حور » ، وذلك بالتصرف فى ممتلكات الإله ، أو فى الرجال ، أو فى الممتلكات الأخرى أيا كانت مما يملكها - فإنه سيكون تحت طائلة أى تسخير من أعمال المقاطعة) .

(ختم فى حضرته أنا الملك فى الشهر الثانى من فصل الصيف اليوم العاشر) - مصر القديمة ج ١ ص ٣٣٨ .

وكان (رع ور) من رجال (نفر إر كارع) يحمل من ألقاب الدولة ما لا يقل عن ثلاثين لقبًا ، منها أنه كان الكاهن لآلهة الوجه القبلى ، والكاهن لآلهة الوجه البحرى ، وأكبر كاهن فى الدولة ، والسمير الوحيد ، ومدير القصر ، ورئيس

أسرار الملك ، وكان له خدم وموظفون بنوا قبورهم داخل مقبرته أو حولها -
المصدر السابق ص ٣٤٠ .

واستمر هذا الحال حتى جاء الفاتح العظيم رمسيس الثانى الذى أنجب ١٢٠ من
الذكور ملكوا البلاد وأمسكوا بوظائفها طويلاً ، لكن كل هذا تم بالتنسيق الكامل
مع نفوذ الكهنة ، أو مع إرادتهم ، ذلك لأن رمسيس الثانى كان من الممهدين
لاستيلاء كهنة آمون على العرش الفرعونى ، إذ (ألقى فى أيديهم رئاسة الكهانة
فى « الكرنك » ، وفى « العرابة » . . واعترف لهذه الطائفة بأن تنصيب الكاهن
الأكبر لآمون قد جاء من وحى الله وبإذنه ، وأنه لا دخل له فيه) - مصر القديمة
ج ٦ ص (ن) .

وأصدر قوانين صارمة ضد كل من يتعدى على (المؤسسات الدينية . . يُجدع
أنفه ، ويُجلد مائة جلدة ، ويكوى بالنار كيّاً ، ويلزم بغرامة تبلغ أحياناً مائة
ضعف لما اغتصبه) - المصدر السابق ص (م) .

(ولقد بلغ من شأن رجال الدين ونفوذهم أن أصبحوا أصحاب ثروة عظيمة ،
ومكانة قوية) - المصدر السابق ص (ن) - وكان أكثر الفراعنة اهتماماً ببناء عمائر
الآلهة ، وبخاصة فى النوبة ، فقد نحت فى الصخر معبد (بوسمبل) ، الذى
يعد مفخرة الزمان ، ومعبد (بيت الوالى) ، ومعبد (السبوع) ، ومعبد (جرف
حسين) ، ومعبد (الدر) وغيرها مما غمرته مياه السد العالى ، فضلاً عن منشآته
فى طيبة وفى الدلتا .

وتبعه ابنه رمسيس الثالث الذى أعلن مفاخرًا : (قمت بأعمال مجيدة ،
وإنعامات عظيمة العدد لآلهة وآلهات الجنوب والشمال ، وصنعت صورهم التى
فى بيوت الذهب ، وبنيت ماكان قد سقط مخرباً فى معابدهم ، وأقمت بيوتا
ومعابد فى ردهاتهم ، وغرست لهم خمائل ، وحفرت لهم بحيرات ، وأسست
لهم قُرباً إلهية من الشعير والقمح والنبذ والبخور والفاكهة والماشية والطيور ،
وبنيت « ظلال رع » لأجل الأقاليم ممكناً بالقرب المقدسة اليومية ، ووضعت
المراسيم العظيمة لإدارة معابدهم ، مسجلة فى قاعات السجلات سرمدياً) .

وأُتبع هذا (الإعلان) ببيانات تفصيلية لأعماله - مصر القديمة ج ٧
ص ٤٥٤ - ٤٧٨ .

وإلى جوار هذا (جدد معبد «موت» في طيبة ، وهو مبنى من الحجر ، بمثابة
أعجوبة أسست لتكون عملاً خالداً ، مدخله من حجر الجرانيت ، والأبواب
والعوارض من الذهب ، ومحرا به من الجرانيت الجميل ، ومصرا عاه من النحاس
المطروق ، ومائدة قربانه من الفضة المطروقة مشغولة بالذهب ، وزوده بمخزن
مجهز بالعبيد والإماء ، وبمئونة الخبز والجنة والثيران والطيور والخمور والبخور
والفاكهة والخضر ، كما أقام تمثالا للإله من الذهب المطروق ، ولوحات
عظيمة من الذهب المطروق ، نقش عليها اسم جلالته ، ولوحات أخرى من
الفضة ، ومنخل من الفضة المشغولة بالذهب لإقامة الشعائر ، وتمائيل
الشعائر ، وتمائيل من الذهب لكل من «موت» و«خنسو» .

(وقدم للإله عشرة آلاف حقيبة من الحب ، لتموين القرابين الإلهية اليومية ،
تحمّل إلى طيبة كل سنة ، كما قدم له هدايا الأراضي والممالك التابعة لمصر) .

(وضع سفينة فاخرة طولها ثلاثون ومائة ذراع ، من خشب الأرز ، منشأة
بالذهب الجميل ، حتى سطح الماء ، فى وسطها محراب عظيم من الذهب
المطعم بالحجر الثمين ، كأنها قصر مزين برءوس كباش من الذهب ، من قدام
ومن خلف) .

(وقدم إليه من بلاد بُنت أشجار المر ، لكى تعطر بيت الإله ، وغرس له
جميزاً معطراً فى ردهة المعبد) .

(وصنع أسطول نقل مزود بسفن وزوارق حربية ، لنقل محاصيل أرض
«زاهى» ، والممالك التى فى نهاية الأرض) .

(وخصص له قطعانا من الحيوانات الكبيرة ، والدجاج ، وحيوانات صغيرة ،
بمئات الألوف ، يشرف عليها كتاب ومفتشون ورعاة ، لديهم علف يفيض عن
الحاجة) .

(وأنشأ كروما للنبيذ فى الواحات الجنوبية والشمالية ، وأخرى فى الجنوب ،
دونت فى قوائم عديدة) .

(وأقام كذلك معبداً للإله «خنسو» ابن الإله «موت» ، على نفس الطراز) .
(وأقام بناءين جديدين فى «منف» للإله «بتاح» ، زودهما بكل ماتتسع له سخاؤه من خيرات مصر) .

هذا ماسجله كتاب مصر القديمة جـ ٧ ص ٣٦٤ / ٣٧١ أما ما دونه عن ثروات المعابد وأملاكها والقرايين والهبات التى أوقفت عليها ، فقد أفسح لها الأستاذ سليم حسن من كتابه الصفحات ٣٧١ إلى ٤٩٣ . (١)

* وبهذا (صار «آمون طيبة» - وهو متوج بتاج من العظمة ، لم يسمع بمثله فى بذخ الشرق كله - فى أيدي كهنته الماكرين ، مجرد مصدر للقرارات السياسية والإدارية ، بل إن الأحكام القضائية المعتادة كان يصدر الفصل فيها بإيحاء من الإله ، كما كان غير ذلك من أمور الوصايا والهبات خاضعاً كذلك لما يوحى به الإله) - فجر الضمير ص ٣٥٧ - حتى قيل إن (ماكان يدعيه حورس معبود إدفو من أملاكه الخاصة ما لا يقل عن ٣٣ كيلو متراً مربعاً ، موزعة قطعاً صغيرة وكبيرة فى الوجه القبلى ، عدا الممتلكات العقارية ، وما كانت تبلغه بقية ثروة المعبد من أموال معدة ، ومن دخول وفوائد ، وعدا ما كان يُنتجُه صنّاع المعابد من الكتان والدقيق والزيت ، وما كانت تقيمه المعابد من حمامات ومخابز ومصانع الجعة لاستثمارها) - ديانة مصر القديمة ص ٤٣٣ .

وكان «مين» سيد إيسو وقفط (يملك - بجانب العديد من رجال الدين - موظفين إداريين كثيرى العدد ، من كتاب ورؤساء الأعمال ومشرفين على قطعان الماشية ، وآخرين يشرفون على أصونة للثياب والنقل وأمناء المخازن ، بالإضافة إلى المحاسبين) .

أما آمون (فكان يملك ثروات طائلة ، حتى أنشأ لإدارة هذه الثروات هيئة مثقفة ، رتبها ترتيباً منظماً واعياً) - الحياة اليومية فى عهد الرعامسة ص ٣٤ .

(كان الذين يديرون ثروة آمون وحقوقه وقطعانه كتاب وموظفون خاصون ، ومعماريون ونقاشون ونحاتون ، بالإضافة إلى قائد جيوش آمون وضباطه وكل

(١) وانظر (تاريخ مصر) لبريستيد ص ٢٢٧ و ص ٤٠١ .

الموظفين المكلفين بتجهيز التقديمات والأطعمة ، من خبازين وطباخين وحلوانية وصناع الجعة والكرامين والزارعين ومجهزي الزيوت والبخور ، كما كان النساجون والغزالون والصباغون والحلاقون والموكلون بإدارة عقار آمون ، كموظفي المساحة ، ووكلاء صوامع الغلال ، ورؤساء الفلاحين والطحانين وصيادي الوحوش والسماكين) .

(وطبقاً لأرقام مستند وجد في قبر رمسيس الثالث - ١١٩٨ - ١١٦٩ ق.م- كان آمون يملك من بين ما يملك ٨١٣٢٢ عبداً ، و ٤٢١٣٦٢ رأساً من الماشية ، و ٦٥ مقاطعة ، و ٤٣٣ حديقة ، و ٨٦٨١٦٨ أورورا^(١) من الحقول ، و ٩٣ قاربا ، و ٤٦ مصنعا ، و ١٦٤٥ تمثالاً إلهياً .

(وخلال الـ ٣١ سنة من حكم رمسيس الثالث ، زادت ثروة الإله بمقدار ٥١ كيلو جراماً من الذهب ، و ٩٩٧ من الفضة ، و ٢٣٩٥ من النحاس ، و ٣٧٢٢ قطعة من الملابس ، إلخ) .

بل كانت له مناجم الذهب في النوبة ، وتسع مدن في سوريا ، تأتية محاصيل أرضها وضرائبها بانتظام ، كما كانت له حدائق في طول البلاد وعرضها .

هذا على حين لم يكن (لهليوبوليس سوى ١٢٩٦٣ رعايا ، و ٥٨٤٠٥٨٤ أورورا من الحقول ، وكان لنفسه ٣٠٧٩ رعايا ، و ٤٨٠٠٠ أورورا) .

(ومن ثم كان لآمون خمسة أمثال هليوبوليس ، و ٨٦ ضعفاً لنفسه) - ديانة مصر القديمة ص ٢٢٨ / ٢٢٩ .

وأورد الأستاذ سليم حسن بياناً بالرعايا التابعين للمعابد في عهد رمسيس الثالث على النحو التالي :

معبد مدينة هابو ٦٢٦٢٦ - معبد الكرنك الصغير ٢٦٢٢٣ - معبد الإلهة موت

(١) الأورور مقياس يوناني ، يقابله بالمصرية القديمة (أستات) ، وهو يساوي نحو ثلثي فدان .

٩٧٠ - معبد خنسو ٥٤١ - معبد الأقصر الصغير ٤٩ - معبد هليوبوليس
٣٦٤ ر٢١ - معبد منف ٣٠٧٩ - المعابد الصغيرة ٥٦٨٦ .

كما أورد توزيع الأراضي المنزرعة لحساب المعابد على النحو التالي :

طيبة ٣٦٩٢ كيلو متراً مربعاً - هليوبوليس ٤٤١ - منف ٢٨ - العابد
الصغيرة ٩٩ - مصر القديمة ج ٧ ص ٤٨١ .

* ونتيجة اتساع مطامع الكهنة ، وسيطرتهم على رمسيس الثالث - ١١٩٢ -
١١٦٠^(١) - انصرف الملك عن تقوية ملكه ، واستمع إلى نصيحة من أحاطوا به
من الأجانب والمتملقين ، حتى صار من بين الأحد عشر أميناً في القصر الملكي
خمسة غير مصريين ، أحب الاستماع إلى نصيحتهم له في الإكثار من الجنود
المرتزقة الأجانب ، ليكونوا عوناً له ضد المصريين الذين أخذوا يثنون من الأزمة
الاقتصادية التي سببت ارتفاعاً في الأسعار ، لاعهد للبلاد به ، مما اضطر عمال
الجبانة في طيبة إلى الإضراب عن العمل ، لأن مقرراتهم لم تصرف لهم لمدة
شهرين في العام التاسع والعشرين من حكم الملك ، وحاولوا أن يلفتوا نظر
رؤسائهم دون جدوى ، وفي اليوم التالي تجمعوا وهاجموا مخازن معبد
الرمسيوم ، وهم يصيحون بأنهم جائعون ، بينما تكدست الحبوب وأكوام
الذهب في مخازن إحدى زوجات الملك - بردية هاريس - فتأمرت مع اثنين من
كبار موظفي القصر لقتل الملك وتولية ابنها بتاءور . . لكن بعد قتل الملك قبض
على جميع المتآمرين ، واستولى الكهنة على العرش ، وصار كبير الكهنة
(حريحور) ملكاً على مصر .

ومع سيطرة الكهنة صارت المحاكم لا قيمة لها ، إذ كانت الكلمة العليا في
كل شكوى ما يحكم به الإله ، فإذا اتهم أحد الناس آخر بالعدوان ذهب الشاكيان
إلى المعبد ، ووضعوا ورقة أمام تمثال الإله ، وطلب الكاهن من ذلك التمثال أن
يحكم بينهما ، ثم يبلغ المتقاضين بما حكم به الإله ، وهو حكم لا رجعة فيه ،
ومن ثم كان يعتمد على ما يقدم المتقاضون للكهنة ليتحقق الفوز بالحكم - مصر
الفرعونية ٣٧٦ و ٣٨١ .

(١) يلاحظ الاختلاف في توقيت حكم هذا الملك بين إرمان والدكتور أحمد فخري .

شعائر وطقوس

- ١ -

لم يكن رمسيس الثالث أول من سقط بين أنياب الكهنة ، ولا كان آخرهم ، لأن تاريخ الكهنة ربما كان أسبق كثيراً من تاريخ الملوك ، وسطوة الكهنة على الملوك لا تبدأ بالعناية بالمقابر ، وبالأهرامات ، وإن كانت هذه علامات كبرى على هذه السطوة .

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن الملكية نشأت في حجر الكهانة ، واتصلت مصالهما منذ عهد بعيد ، أو منذ قيام الملكية .

بل إن الملكية لم تقم إلا وفق شروط الكهنة ، وبالرغم من الصورة الخارجية التي تبين أن الملكية ثمرة النزاعات القبلية التي انتهت إلى سيطرة الأقوى ، لكن الكهنة يمثلون الطيور الجارحة التي تجهز على الفريسة ، بعد أن ينال (السبع) منها ، وكان حسب السبع من يثنون على شجاعته وقوته ، وسخائه وأريحيته ، ثم يجمعون بين قوته وسخائه ، وقوة الإله وسخائه ، ثم يخترعون له نسباً إلهياً ، ثم إذا هو إله . . . وحين يصبح الإله صنعة إفكهم وبهتانهم يجد نفسه مقيداً بمرضاتهم أو بأطماعهم أو بأحاييلهم وبما يلوحون له من فنون شيطانية .

يقول إرمان : (اصطنع كاهن مقبرة أمحوتب بن حابو وثيقة زعم أنها ترجع إلى عهد أمحوتب الثالث ، تقول : إن الملك عهد بمقصورة المقبرة إلى أسمى من كان على سطح الأرض إذ ذاك ، وهو «آمون رع» ، ملك الآلهة ، وإن أى موظف كبير فى المستقبل لايعنى بهذا الوقف وبعييده ، «يستحوذ على أى رجل منهم لينسبه إلى أى من أملاك فرعون ، أو إلى عمل له هو نفسه ، أو لايتدخل

من أجلهم إذا أضربهم غيرهم - فإنه سينزلق إلى ما ان الإعدام لآمون رع ، سيد الكرنك ، إنه لن يدعهم يشبعون فى وظائفهم سيلقى بهم فى لهيب الملك يوم مقتله ، وسينفث تاجه النار على رؤوسهم ، وسيغرقون فى البحر حيث تخفى أجسادهم» .

وزعم هذا الكاهن (أنه فى عهد الملك القديم زوسر - حوالى ٢٧٠٠ ق.م - امتنع الفيضان سبع سنين ، فأقبل الملك على وزيره الحكيم ، وهو أمحوتب نفسه ، وسأله الرأى ، فبحث هذا فى الكتب القديمة ، وتبين منها أن أخنوم إله اليفانتين هو الذى يُجرى الفيضان ، وظهر الإله فى الحلم للملك ، ووعد أنه لا يتخلف الفيضان تارة أخرى ، لهذا أهدى الملك إلى خنوم وآلهة اليفانتين سائر منطقة الشلال الأول ، بخراج حقولها ، وجميع أنواع الضرائب والمكوس) - ديانة مصر القديمة ص ٣٦٦ / ٣٦٧ .

الخبران ، أو الترهتان - كما هو واضح - تعبران عن (وسيلة) لجعل الملك فى خدمة الإله ، وجعل الإله فى خدمة الملك ، وكلاهما يعمل فى خدمة الكهنة .

* وقد يبدو أن دعوى (الملك الإله) أريد بها (عزل) الملك عن شعبه ، أو تحريك الملك داخل الدائرة التى رسمها الكهنة ، كما هو الشأن مع كثير من الملوك ورؤساء الجمهوريات الذين تُرسم لهم السياسة ، وتكتب لهم الخطب ، ولا يتحركون إلا بإشارات مهبط الوحي ، أو هيئة المستشارين ، أو مدير مكتبه ، وقد يطفو على السطح «راسبوتين» . فيمسك بدفة السفينة .

ومن طريق (العزل) صار الملك يؤدى شعائر خاصة بالمعبود ، لايحضرها غير الكاهن (راسبوتين) الذى يكون همه الأكبر التعبير عن مدى صلته بالله ، والإيحاء بقدرته على امتلاك هذا الإله .

(كانت الشعائر التى تقام فى جميع معابد مصر ، باسم الملك ، وعلى نفقته - تعد سرّاً يتم فى دجى الظلام ، فى قدس الأقداس ، دون أن يشترك الشعب فيه ، ويظهر الكاهن القائم بالعمل نفسه فى «بيت الصباح» ، ويأخذ المبخرة ويشعلها ، ويتقدم نحو المذبح ، مطهراً الأماكن الملحقة به برائحة البخور . . . ولما كان التابوت الذى يحوى التمثال الخشبي المذهب للمعبود أو

المعبودة مغلقاً ، فإن الكاهن يفض الختم المصنوع من الطين ، ويسحب المزلاج ، ويفتح المصراعين ، فيظهر التمثال المقدس ، وعندئذ يسجد الكاهن ، ويبخر التمثال ويدهنه بالطيب ، ويسبح بالأناشيد التعبدية ، والتمثال - حتى هذه اللحظة - عبارة عن قطعة فنية لأرواح فيها ، فيهبه الكاهن الحياة ، بأن يقدم له على التوالي عين حورس التي انتزعها منه عدوه «ست» ، وعثرت عليها الآلهة ، وتمثالاً صغيراً للمعبودة «معات» - الحقيقة - ابنة «رع» ، ثم يسحب المعبود بعد ذلك من التابوت ، ويأخذ الكاهن في تزيينه ، كما لو كان يزين الملك ، فيغسله ويُبخره ويلبسه ثيابه ويعطره ، ثم يعيده إلى داخل التابوت ، ويضع أمامه كل أنواع الأطعمة التي كانت تأتي عليها النيران بعد ذلك ، وبعد إتمام التطهير النهائي بالنظرون والمياه والتربتين ، كانت تختم الشعائر الدينية ، ثم يغلق التابوت ، ويسحب المزلاج ، ويوضح الختم ، ثم ينسحب الكاهن إلى الخلف ووجهه نحو الإله ، مزيلاً أثر خطواته - الحياة اليومية في عهد الرعامسة ص ٣٨٠ .

ويضيف إرمان طقوساً يومية ، هي - في جملتها - صورة من الطقوس السابقة ، لكن الكاهن يجد نفسه منفرداً بالإله ، في قدس الأقداس ، عند انبثاق الفجر ، فينبسط في تقربه من الإله ، ويحييه بالركوع عدة مرات ، مرتلاً أو منشدًا بعض الأناشيد ، (ثم يتناول الأدوات الدينية الموجودة في صندوق بالقرب منه ، ويأخذ في التزيين اليومي للإله ، فينضح التمثال بمحتويات أربع جرار من الماء ، ويكسوه بشرائط من الكتان الأبيض والأخضر والأحمر والمائل للحمرة ، ثم يدهنه بالزيت ، ويزجج عينيه بمساحيق خضراء وسوداء وغيرها ، ثم يضع أمام الإله مختلف أنواع الأطعمة والشراب ، من خبز وإوز وأفخاذ بقر ونبيد وماء ، ولا بد من الزهور التي لاتخلو منها مائدة مصرية) .

(وحين يحل الكاهن الحبل ، ويفض الختم الذي كان قد أغلق به مسكن الإله خلال الليل ، فإنه يجب أن يقول : « إن الرباط قد حلَّ » ، والختم قد فُضَّ لاجتياز هذا الباب ، كل ما كان في من شرّ قد ترك جانباً ، أنا آت وأحضر إليك عين حورس ، إن عين حورس لك ، أنا «تحت» ، حين كان يصلح «العين» ، وكان معنى هذا أن الكاهن مطهر) .

(ثم يُدخل المفتاح فى القفل ، ويسحب المتراس ، ويقول : «إن إصبع ست خرج من عين حورس ، وكانت هذه سليمة» . . ومن الواضح أن الإصبع هى المفتاح) .

(و حين يرفع الكاهن الغبار عن المحراب ، بواسطة قطعة من القماش ، يتصور نفسه حورس ، وقطعة القماش عينه ، ويقول : «أنا حورس ، أنا آت وأبحث عن عيني ، أنا لا أسمح لها أن تكون بعيداً عنك») .

(و حين يمسح الدهان القديم ، يأخذ فى دهان الإله من جديد ، يقول : «إني آت ، لأملأك بالدهون التى خرجت من عين حورس ، أنا أملؤك بها حتى تربط عظامك ، وتضم أعضاءك ، وتطرد كل رطوبة شريرة») - ديانة مصر القديمة ص ١٩٥ / ١٩٦ .

ويبدو أن هذا الطقس كان يهيئ لزيارة الشعب ، إذ (كان فى إمكان من يريد أن يدخل إلى قصر المعبود ويرتاده أن يقدم قرباناً يسيراً للمعبد ، فيعبر الفناء ، ويخترق المرج الذى يمرح فيه بحرية تامة الكباش أو العجل المحفوظ الذى يتجسد فيه المعبود ، وأن يقترب من بركة الماء التى يسبح فيها التمساح الذى يمثل المعبود «سوبك» ، ثم يضع تحت أقدام المعبود لوحة تذكارية صغيرة من الحجر الجيرى ، حفر عليها شكل المعبود ، وبجانبيها أذن أو أذان وعيون ، لإجبار المعبود على الاستماع له ، والنظر إليه ، وإجابة طلباته المختلفة) - الحياة اليومية فى عهد الرعامسة ص ٣٨١ .

ولعل الكهنة كانوا يعملون على جذب الزوار بتلاوة الأناشيد ، كما كانت الموسيقى تعزف بواسطة الكاهنات (اللواتى كن يقطعن ويصلصلن بشخايلهن وصنوجهن وعقودهن الكبيرة) .

(وكانت الحيوانات التى تذبح فى ساحة المعبد تمثل أعداء الإله التى تقتل لإرضائه) - ديانة مصر القديمة ص ١٩٧ .

* ويضيف كنت أ. كتشن (رئيس الثانى) ص ٢٢٠ / ٢٢٢) أنه (كانت للإله عاداته مثل البشر ، يصحو فى الصباح ، يفطر ويعمل ، ثم يتناول غداءه وعشاءه ، ثم ينام) .

لذلك كانت الورش والمخازن ، مع خيوط الشمس الأولى ، تعج بمن
بجهزون قربان الصباح : خبزاً طازجاً ، وكعكاً ، وعجة ، وإبريقاً من النبيذ ،
وخضراً وفاكهة ولحوماً ، (لحم طير ، ولحم عجل وثوراً كاملاً في المناسبات
والأعياد ، وباقات زهور) .

وأول ما يفعله كهنة الخدمة يومياً هو الاغتسال ، (طقس التطهر) ، ثم يمشی
موكب كهنة الخدمة ومعهم العبيد يحملون مواد القرايين ، يتقدمهم كاهنان ،
أحدهما يحمل مبخرة تنشر روائحها الشذية ، والآخر يحمل التمثال الرمزي
للملك ، وهو يقدم القربان للإله . وهذا التمثال الملكي يمثل نائب الملك في هذه
الطقوس ، لأن المفروض أن يقود الملك بنفسه مثل هذه الطقوس .

بعد ذلك توضع مواد قربان الصباح على المناضد والمذابح ، ثم تبدأ شعائر
طقس الصباح ، وأول هذه الشعائر نشيد إيقاظ الإله ، بعده يرفع كاهن أقفال
أبواب المقصورة ، ثم يفتح بابها فينكشف الوجه المقدس ، ثم يتقدم الكاهن من
الإله (تمثاله) ، ويضعه في أبهى زينتته ، ثم يبخره ، ويقدم له الشراب ، ثم يقوم
بإبدال (أربطته التيلية) ، ويدهنه بالمراهم الشذية ، ويجدد زينتته . . بذلك يكون
الإله مهياً لتناول فطوره ، فترفع إليه عينات من كل أصناف القربان الموجودة على
المناضد ، وكل ذلك له إجراءات طقسية طويلة بطيئة معقدة ، بمصاحبة شعائر
قولية (أناشيد) . . وكان المعتقد أن الإله كائن روحاني يحل في تمثاله ، ولذلك
هو يستمتع بما تنطوي عليه العطايا من إيماءات ذات مغزى .

بعد ذلك يبدأ الجزء الثاني من خدمة الصباح ، فيعاد الإله إلى مكانه
بالمقصورة ، ويعاود إغلاقها ، وينصرف الكهنة .

ثم يجرى طقس يسمى (عكس القرايين الأول) ، وفي هذا تؤخذ من قرايين
الإله هبات رمزية ، وتجري شعائر معينة تقدم فيها هذه الهبات للفراغة السابقين
والفرعون الحالي ، تأكيداً لارتباطهم بالآلهة ، بل هم في مصاف الآلهة ، ثم
ترفع الأطعمة الفاخرة من جميع الموائد .

بعد ذلك يجرى طقس (عكس الهبات الإلهية الثاني) ، وفيه توزع القرايين
كطعام عادي على كهنة الخدم ، وهم خدمة المذبح .

أما الغداء أو العشاء الذى يقدم للإله كل يوم فكانت طقوسه مقتضبة وقصيرة .

وعلى مدى الأربع والعشرين ساعة كانت تجرى طقوس أخرى قصيرة وبسيطة .

وعندما يهل القمر الجديد كل شهر ، ثم عند ظهور أوجه القمر المختلفة ، كانت هناك شعائر أخرى تضاف للطقوس المعتادة ، وبالمثل كانت هناك شعائر وطقوس خاصة بالأعياد الدينية للإله ، تجرى داخل حرم المعبد ، ولا يشارك فيها الجمهور .

وفى مقابل هذه الخدمة والعناية كانوا يتوقعون من الإله أن يشمل مصر كلها برعايته وبركته .

* بمقارنة رواية كتشن بما سبق من روايات يتبين أن كل راو لا يتقيد بنص ، ولا يستعين أو يلتزم بما ورد فى نقش أو بردية ، بل إن كل راو يستهدى بثقافته العامة فى استنطاق اللغة التصويرية ، ومن ثقافته العامة تلك الطقوس والشعائر التى تأخذ بها الكنائس الغربية والشرقية والمعابد اليهودية ، والفارسية والبوذية .

- ٢ -

وزيادة فى الاستهواء الشعبى كان ثمة (موكب الخروج) ، إذ كان المعبود يخرج من مكانه فى المعبد مرة واحدة على الأقل كل عام فى موكب كبير ، يطوف بالمدينة وبالصواحي المحيطة بها ، وكان الأهالى يحتشدون فى هذا الموكب ، وقد شاهد هيرودوت حشداً من المراكب مملوءة بالرجال والنساء يعزفون على الناي ، ويضربون بالصاجات ، ويتغنون ، ويصفقون ، وهم متجهون إلى باسط Bast - الحياة اليومية فى عهد الرعامسة ص ٣٨٧ .

وكان ثمة أعياد ، مثل عيد ذكرى ميلاد الإله ، أو انتصاره على عدوه ، وعيد رأس السنة ، وأول يوم فى الشهر . . وفى هذه الأعياد كانت صورة الإله تخرج من محرابها ، وتنقل خارج قدس الأقداس ، فيما يشبه صيوأنا خفيفاً ، بعد تزيينها لهذه المناسبة بالتمايم وقلائد الذهب ، وكانت تحمل أمامه أعلام مزينة بصور إلهية - ديانة مصر القديمة ص ٢٠٢ .

وكثيراً ماكان الإعداد المسرحى لهذه الأعياد يأخذ شكل الإبهار ، مبالغه فى الإمساك بزمام الجماهير ، وتضفير مشاعرهم .

حينما كان حورس معبود إدفو يريد الاحتفال بعيدة الكبير ، يزوره بهذه المناسبة إلهة المعبد الصديقين فى دندرة والكاب ، ويصحبه رفيقه « خنسو » ، والحراب الأربع التى حارب بها الإله « ست » ، وكان على هذه الآلهة أن تحيى معاً عيداً يستغرق عدة أيام ، احتفالاً بانتصار حورس على ست ، واعتلائه العرش .

وكانت الموسيقى تأخذ مكانها فى سفينة أمير إدفو ، كما كان على أمير الكاب - عند رسو سفن الوافدين عند المعبد - أن يمىسك سفن الآلهة من مقدماتها ، على حين يجبر بها من مؤخراتها أمير مدينة أخرى ، وكان على أمير دندرة أن يجلب هو ورجاله الهدايا ، وعلى أميرين أن يقدموا ثور الأضحية ، وعلى آخر أن يؤدى خمسمائة رغيف ، ومائة قدر من الجعة ، وفخذ ثور ، وثلاثين عنزا ، لطعام أهل المدينتين الأخريين الذين رافقوا آلهتهم لهذا المعبد ، فإذا ما وصل هؤلاء إذا هم يجلسون ويشربون ويحتفلون بالعيد بين يدي هذا الإله

الجليل ، ويشربون ويتضمخون بالدهون ، ويهللون فى صوت صاحب مع سكان المدينة .

وفى أول أيام العيد كانت الآلهة تصعد مع مرافقيها الذين أمضوا ليلتهم بجانب المعبد إلى (معبد علوى) كان يقع على حافة الصحراء ، وهناك يستقر الجميع على الأرض ، ويقدم شئ من القربان ، وطرف من الشعائر ، ثم تعرض الآلهة ، ويحتفل (كاتب كتاب الآلهة) بانتصار حورس ، وكان يهتف أربع مرات : (لقد عاد حورس منتصراً ، وتم كل ماعهد به إليه ، إن أمه إيزيس فرحة ، لأنه نال وظيفته هذه بقلب مبتهج) ، وكان آلهة إدفو (الأرواح الحية تجلس على عروشها) ، وترنو ببصرها إلى (سيد الآلهة) ، وكان (الفرح يعم إدفو) ، أما الكهنة فكانوا يجيبون مرددين (افرحى ايتها الأرواح الحية ، لقد انتصر حورس ، وتم كل ماعهد به إليه) .

وفى غمار هذه الهتافات كان الكوكب يستأنف سيره إلى (قاعة المدرسة) ، حيث تجلب أولاً عنزة حمراء ، وثور أحمر ، تنزع أحشاؤهما ، ويحرقان قربانا ، بعد أن يحشى جوفهما بكافة الأعشاب المعطرة ، ويصب عليهما (عصير العنب الطازج والنبذ) .

ومن ثم كان كاتب كتاب الآلهة يتلو كتاب (تمجيد حورس الذى ثبت له إرثه) ، ثم أربعة كتب أخرى ، وكان القربان يقدم لرع ، بحيث (يدعى بأسمائه جميعا) ، وكان يجلب له مائة رغيف أبيض ، وقدور خمسة من الجعة ، وفطائر وبلح ولبن وإوز ونبذ ، وكان الكهنة يرتلون أثناء ذلك (الحمد لك يارع ، الحمد لك ياخبرى ، بسائر أسمائك هذه الجميلة ، إنك تُقبل قوياً شديداً ، وقد أشرقت فى جمال وبهاء ، وقهرت التين ، أمل محياك الجميل إلى الملك) .

وكان الأمر يستمر على هذا النحو ثلاثة عشر يوماً ، حتى تثوب فى النهاية الآلهة الغربية إلى مواطنها ، وآلهة إدفو إلى معبدها - ديانة مصر القديمة ص ٤١٦ / ٤١٨ باختصار .

التعاويد

- ١ -

تمثل أهم التعاويد التى احتفظت بها النقوش وأوراق البردى فى كتابين :

١- متون الأهرام : وهى التى وجدت فى أهرام الأسرتين الخامسة والسادسة ، وأكثرها ما كان منقوشاً فى حجرة دفن الملك (وناس) الذى تنحصر شهرته فى هرمه الذى بناه فى سقارة ، وقد وجدت على جدران حجرة دفنه تعاويد وصلوات دينية ، كان الغرض منها أن تحفظ المتوفى فى آخرته ، وهذه هى أول مرة نجد حجرة الدفن فى الأهرام منقوشة جدرانها بمتون دينية ، ثم عرفت النقوش فى حجرات دفن الملوك (تيتى) ، و (بيسى الأول) ، و (مرن رع) ، و (بيسى الثانى) ، وكلها فى منطقة سقارة ، متشابهة ، وتحتوى على آلاف الأسطر .

ولما جاء عصر الدولة الوسطى وجدت متون مشابهة لها مكتوبة بالمداد الأسود على توابيت خشبية لعلية القوم . . أما فى عصر الدولة الحديثة فقد وجدت متون أكثر نمواً وأغزر مادة ، مكتوبة على ورق بردى ، كان يوضع مع المتوفى فى قبره ، ويسمى علماء الآثار الآن (كتاب الموتى) ^(١) - مصر الفرعونية ج ١ ص ٣٥١ / ٣٥٢ .

ويذكر أن ماسبيرو هو الذى اكتشف هذه المتون سنة ١٨٨١ م ، ثم ترجمها إلى

(١) جاء فى كتاب (كنوز الفراعنة ص ١٧٣) أن (كتاب الموتى) روجع فى العصر الصاوى مراجعة دقيقة ، وأضيفت إليه نصوص جديدة ، وحذفت غيرها .

الفرنسية سنة ١٨٨٢ م ، وترجمها سيث Sethe إلى الألمانية سنة ١٩٠٨ م .

وقد اتفق العلماء على أن هذه النصوص تترجم الكثير من عقائد وتقاليده تذهب فى قدمها إلى ما قبل الأسرات ، إذ توجد فيها إشارات إلى تلك الحروب التى استعر أوارها فى أوائل أيامها ، مشاراً إليها كحروب بين الآلهة المختلفة ، الذين كانوا يعبدون فى ذلك الوقت - على هامش التاريخ المصرى القديم ص ٥٤ .

وليست النصوص الواردة فى داخل كل هرم مطابقة لما فى الهرم الآخر ، بل إن الكهنة الذين أشرفوا على اختيارها لكل ملك كانوا يختارون ما يرونه (صالحاً) لكل ملك ، وقد أمكن جمعها ودراستها ، ومقارنة بعضها ببعض ، ومجموعها ٧١٤ تعويذة - مصر الفرعونية ص ١٤٠ .

وكان الهدف منها إعطاء هؤلاء الذين استكتبوها على توابيتهم قوة على أن ينالوا إما شكلاً من الوجود ، فيه قدر من النعيم فى الآخرة ، وإما - وهو الأرجح - تأليها من أجل حياة أبدية ، لم تكن محتوياتها أسطورية فقط ، فكثيراً ما أضيفت حواش إلى المتلوات الفردية ، لإعلام الميت لأى غرض سحرى تتلى ، وقضلاً عن ذلك كانت هناك متلوات أنسب للأحياء منها للأموات ، وثمة حواش مضافة إلى المتلوات تمثل نظرة التشاؤم السائدة بالنسبة للوجود فى الآخرة ، إذ يوصى بها - مثلاً - لإبقاء عمل القلب وسائر الأعضاء ، والحصول على الهواء الذى يتنفس به ، وعدم المشى مقلوباً ، أو أكل الغائط ، وتجنب موت آخر . . ثم متلوات أخرى لتحويل النفس إلى أى شكل ممكن ، مثل التحول إلى الصقر الإلهى ، أو الإلهة حتحور ، أو إلى تمساح ، أو لهب ، أو إلى أى إله يشاء - حياة الروح فى ضوء العلم ص ٤٢ / ٤٣ .

وخوفاً من عواقب (المحاكمة) الأوزيرية اخترع الكهنة صيغة سحرية شديدة القوة والتأثير ، لدرجة تجعل إله الشمس ، القوة الحقيقية الكامنة وراء تلك المحاكمة ، يسقط من سماواته فى (النيل) إذا لم يخرج ذلك الميت برئ الساحة من محاكمته - مصر القديمة ج ٥ ص ٢٤٢ .

وهذا يدل على الشك فى تحقيق العدالة ، لأن الآلهة يزنون بأكثر من ميزان ،

فالجنة السماوية للفرعون وتتبعه أسرته وكبار موظفيه وحاشيته ، كهانا وقادة وخداما ، فالسعيد فى الدنيا سعيد فى الآخرة ، (إن ماءك - ذريتك - مأواه السماء ، أما الآلاف فمأواهم الأرض) . . (إن ماء الملك «تيتى» فى السماء ، وشعب «تيتى» على الأرض) . . (إنك تدخل أبواب السماء التى حرمت على المواطنين) . . (لقد فتح لك مصراعا باب السماء ، وانفجرت لك أبواب السماء ، وهى التى تصد الناس بعيداً عنها) .

هذه العبارات - سواء صاغها الكهنة ليؤرثوا الضغينة ضد الملوك ، حتى يشبوا إلى العرش ، أو صاغتها المعاناة الشعبية - تعبر عن فجوة لا تزال تتسع بين الحاكم والمحكوم ، وتعبّر عن السرف والسَّعة الذى يمتص عرق ودماء الكثرة الكادحة .

ولهذا لم يمتد حلم الشعب إلى أكثر من أن تكون جنته فى (حقل القربان) ، فى بلدة هليوبوليس التى كانت بمثابة المركز الرئيسى لعبادة الإله رع ، أول من حكم الدنيا ، ناشراً العدل والمساواة بين الجميع ، لكنه تخلى عن حكم العالم الدنيوى ، ورفع نفسه إلى عالم السموات . .

وعند نهاية الدولة القديمة ، وانتشار المذهب الأوزيرى ، طالب الشعب بحق التمتع بالجنة السماوية التى وُعد بها الملوك ، فأجيب إلى طلبه بعد حرب شعواء قلبت خلالها الأنظمة الاجتماعية رأساً على عقب - مصر القديمة ج ٢ ص ٥٢٧ / ٥٣٣ .

وكتاب (تحذيرات نبى) للحكيم إيبور يعبر عن أسباب تلك الثورة الدموية ، فيصف البؤس العام الذى حل بالبلاد من سرقة وقتل وتخريب وقحط ، وتشريد الموظفين ، وتفكك الإدارة ، والقضاء على التجارة الخارجية ، وغزو الأجانب البلاد ، وتولية الغوغاء مراكز الطبقات العليا . . أصبحت البلاد ملأى بالعصابات . . أحجم الفلاحون عن الزراعة خشية اللصوص وقطاع الطريق . . انتزعت مومياوات عليه القوم وألقيت فى الطريق العام . . أصبح الرجل الأحق يشك فى وجود الإله ، ويقول : (إذا عرفت أين يوجد الإله قدمت له قربانا) .

ويقول الحكيم إيبور للمليكه : (إن القيادة والفتنة والصدق معك ، لكنك لاتنتفع بها ، فالفوضى ضاربة أطنابها فى طول البلاد وعرضها ، لكنك مع ذلك

تغذى بالكاذب التي تُتلى عليك ، فالبلاد قش ملتهب ، والإنسانية منحلة ،
ليتك تذوق هذا البؤس بنفسك) - مصر القديمة ج ١ ص ٤٠١ / ٤٠٥ .

هذه الثورة (الانقلابية) في الدنيا أحدثت حلمًا انقلابيًا في الآخرة ، مما يفيد
قوة ارتباط بالآخرة في الوجدان الإنساني ، ومما يفيد طبيعة السلطة الكهنوتية التي
تشتمل حركة الريح ، فتتشر القلوع في اتجاهها .

٢ - أما كتاب الموتى فقد ألفه كهنة المعابد للكسب منه ، إذ زعموا فيه أن
يكون وسيلة تساعد الميت على التخلص من العقوبة بمخادعة وتضليل ذلك
القاضي الرهيب ، قاضي محكمة الآخرة - فجر الضمير ص ٤١ .

وقد كتبت النسخ الأولى بالخط الهيروغليفي في سطور رأسية بالخبر
الأسود ، أما عناوين الفصول والفقرات الهامة فقد كتبت بالخبر الأحمر لتمييزها ،
ثم أخذت البرديات تزين برسوم خطية صغيرة بالخبر الأسود ، ثم صارت تلك
الرسوم في عصر الأسرة التاسعة عشرة تلون حتى تحولت إلى أعمال فنية قائمة
بذاتها .

وكان الاسم القديم لكتاب الموتى (تعاويد الخروج نهاراً) ، وهو عنوان يوحى
بقدرته تلك النصوص على أن تمكن المتوفى من مغادرة قبره - الموتى وعالمهم
ص ١٦٤ - أو لأن النهار هو أسوأ وقت عندهم ، إذ لاتضيئ الشمس لهم بأشعتها
إلا حين تغرب ، (عندئذ يفتحون عيونهم عندما يشاهدون الشمس ، فتطفح
قلوبهم بالفرح حين يرونها ، ويهللون عندما تكون من فوقهم ، إنها تمنح أنوفهم
الهواء) ، ويفرحون ، إذ يستطيعون مساعدة الشمس بدورهم ، فيمسكون الحبل
المعقود بمقدم سفينة الشمس ، ويجرونها في العالم السفلي الذي لاتهب فيه أى
ريح ، وذلك على نحو ما تجر السفن في النيل حين تسكن الرياح - ديانة مصر
القديمة ص ٢٥٤ .

* وإلى هذين الكتابين كان كتاب (الأبواب) ، وكتاب (إمدادات) من كتب
السحر التي نقشها ملوك الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين على الجدران ،
وعلي التوابيت ، لتساعد على الخروج من المآرق التي تحيق بالموتى - المصدر
السابق ص ٢٦٨ .

كل هذه الكتب وكتب أخرى لم تصلنا - دون شك - كانت من وحي عبادة أوزيريس ، التى أساسها الأول أن الإنسان - ملكاً أو مملوكاً - مسئول بعد الموت عن أعماله فى الدنيا ، أمام محكمة إلهية ، يتولى القضاء فيها أوزيريس نفسه ، ويساعده فيها «توت وأنوبيس وحورس ومعات» ، واثنان وأربعون قاضياً ، فإذا حكمت هذه المحكمة بأن حسنات الميت ترجح سيئاته كوفئ بالنعيم الخالد ، وصار مثل أوزيريس ، أما إذا حكمت المحكمة بأنه أساء فى حياته فجزاؤه أن يفترسه الوحش ، أو أن يلقي به فى النار ، أو أن يضرب عليه نوع آخر من العذاب - على هامش التاريخ المصرى القديم ص ٥٥ .

ويبدو من (كتاب الموتى) ، أن مثل هذه المحكمة قد اجتمعت فى كل من أبوصير وبوتو وأبيدوس وهيراكليوبوليس ، وفى معبد سكر فى منف ، وفى أماكن مقدسة أخرى ، وكان «تخوت» فى كل منها هو الذى (برّر) الميت ، بصفته أوزير جديداً ، وقد أشار إلى محكمة الموتى ذلك الملك الشيخ الذى ترك تعاليمه لابنه «مريكارع» ، إذ حذره فيها من (القضاة الذين يفصلون فى قضايا المظلومين ، إنك لتعلم أنهم غير رحماء فى ذلك اليوم الذى فيه يُقضى للمسكين) - ديانة مصر القديمة ص ٢٥٥ .

وقد ألف الكهنة تلك المحكمة من اثنين وأربعين قاضياً قصداً الإشراف على أخلاق المتوفى ، من أى ناحية كانت من أنحاء البلاد ، حيث يجد المتوفى نفسه تواجه قاضياً على الأقل من بين أولئك القضاة قد جاء من البلدة التى كانت موطناً له ، فيكون ذلك القاضى على علم بسيرة ذلك المتوفى المحلية - فجر الضمير ص ٦٧٤ .

* وقد بينت نصوص (التواييت) أن الثواب هو الصعود إلى السماء ، بعد رحلة جمة المخاطر ، للإقامة فيها مع الآلهة ، فى مجموعة من الجزر تحيط بها المياه ، أشبه (بالجزر) الكائنة فى (نهر المجرة) . . ولهذا تقول المتون :

(يامخلبى حورس ، وباجناحي تخوت ، اعبرابه ، ولاتركاه دون أن يعبر) . . وتقول : إن المجددين يقيمون فى جزر فى السماء ، فيها حقل يسمى (حقل الطعام) ، ومن هذا الحقل يتناول المجددون أطعمة شهية مختلفة تتجدد

ولا تنفذ ، وهناك حقل آخر يسمى (حقل يارو) ، وشجرة جميز تسمى (شجرة الحياة) ، يجلس إليها الآلهة . ويأكلون منها .

وإن السماء « نوت » ، والثعبان الذى يحمى الشمس ، يعطيان الصاعد إلى السماء - حين وصوله إليها - ندييهما ، ليرضع منهما ، فمتى رضع عاد صبيا . وهو يأكل الخبز مع الآلهة ، ويشرب الخمر ، وصحته تزداد تحسنا على مر الأيام .

ويذكر فصل عنوانه (ضم أهل بيت الرجل إليه فى العالم السفلى) أن من الثواب (اجتماع شمل أهل البيت من الأب والأم والأطفال والأصدقاء والأقارب والأزواج والحظيات والعبيد والخدم ، بل وكل ما يملكه الرجل ، ليكون معه فى العالم السفلى) - فجر الضمير ص ٢٤٥ - وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله فى ثواب أهل الجنة : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ - كما أن الجنة لا يدخلها عجوز تمثل فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً ﴾ (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿ ٣٦ ﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ - وشجرة الجميز التى هى (شجرة الحياة) فى الجنة أقرب إلى ﴿ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴾ التى ﴿ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴾ - فإذا عرفنا أن الجميزة فى مصر تماثل السدر فى الحجاز ، أيقنا بهذه (الإشارات) أن ثمة (أثارة) سماوية فى التراث المصرى القديم ، ويذكر (كتاب الموتى) من مظاهر الثواب أن الميت يجلس فى قاعة أمام أوزيريس ، ويخرج إلى (حقل يارو) ، ويأكل خبزاً وفطائر ، ويكون له حقل من القمح والشعير يبلغ علو النبات فيه سبعة أذرع ، ويقول كتاب (الموتى وعالمهم ص ١٧٢) : إن ارتفاع القمح خمسة أذرع وطول السنبل ذراعان ، تعبيراً عن وفرة الخيرات ، ومثل هذه (التعبيرات) تروج فى الكتب الشعبية (الإسلامية) !! ويذكر أن خدام (حورس) يحصدون له هذا الزرع ليأكل منه ، وله أن يدخل العالم السفلى ويخرج منه ، وله أن يقيم فى حقل يارو ، أو فى حقل الطعام ، وفيهما يكون ممجداً يزرع ويحصد ، وتكون له نساء (حورعين) يتمتع بهن ، ويعمل كل ما كان يعمل على الأرض .

أما العقاب فقد تقدم أن من صوره وحشا له رأس تمساح وجسم أسد يلتهم المذنب ، وناراً يلقى فيها وهناك صور أخرى هى أن يبقى فى قبره فريسة الجوع

والعطش ، محروماً من رؤية الشمس ، وأحياناً يتولى القضاة الاثنان والأربعون الذين يجلسون فى محكمة أوزيريس ضرب المذنب بالسيوف ، وقد يتم تركيز محور باب على عينه ، وهذا الباب يفتح ويقفل ، والميت يصيح من الألم ، كلما فتح أو أقفل ، وقد يعلق طعام فوق رءوس المذنبين ، فهم يقفزون للوصول إليه ، وكلما قفزوا بعد عنهم الطعام - على هامش التاريخ المصرى القديم ص ٥٨ / ٥٩ .

* وكان مما يخشاه الميت ألا يكون له فم يتحدث به مع الآلهة ، وأن يسلب منه قلبه ، وأن تقطع رأسه ، وأن يفسد جسده بالرغم من تحنيطه ، وأن تنتزع منه بعض الكائنات المعادية (مكانه وعرشه) ، وأن يضل طريقه (فيقع على مذبح الإله) أضحية تعيسة ، وقد يعوزه الطعام والشراب . . إلخ .
وكان من شأن أوراد (كتاب الموتى) أن تساعد على هذه الأخطار وما يماثلها .

(طوبى إذن لمن يكون بجانبه هذا السحر ، ويعرف كيف يحتفظ به ، لأنه يعرف الورد الذى يفيد ضد التماسيح التى تسلب الميت سحره) .
ومعرفة سائر الأوراد تحقق كل المراد :

(من يتل هذا الورد على نفسه كل يوم يسلم على الأرض ، ويخرج من كل نار ، ولا يلقي سوءاً أبداً) - ديانة مصر القديمة ص ٢٥٢ .
وكان من تقاليد القوم (وضع رقية سحرية مع المتوفى ، حتى لا ينزع منه قواه السحرية ، حينما يكون فى العالم السفلى) .

ومن جرّاء ثقة الناس العمياء فى تلك التعاويذ صارت يد الكهنة فرصة لاحتد لها للكسب ، وقد ازداد خصب خيالهم فى إنتاج التعاويذ باستمرار ، وكانت بطبيعة الحال تباع للمشتريين السذج الذين كان عددهم فى ازدياد ، وقد ساعدت تلك الوسيلة كثيراً على زيادة مخاوف الشعب من أخطار الحياة الآخرة .

كانت التعاويذ تشمل كل ما يخاف منه المرء . . لدفع الثعابين والتماسيح عن الميت ، والخروج من النار التى تحكم المحكمة بالعذاب فيها ، وحتى لا يفقد فمه

أورأسه أو قلبه ، ولتساعده على تذكر اسمه ، وعلى التنفس والأكل والشرب ، وعلى تقمص أى شكل يريده .

وكانت تعاويذ أقرب إلى الشفاعة أو الوسيلة لدى القضاة :

(لا تبلغوا عنى شراً لذلك الإله التى تتبعونه . . لاتقدموا ضدى أية شكاية أمام الإله العظيم . . إنى إنسان طاهر الفم ، طاهر اليدين) .

كانت مناظر المحاكمة فى الآخرة ، ومتن إعلان البراءة ، تنسخ بكثرة على صفحات البردى ، يقوم بنسخها الكتبة ، ثم تباع لكل الناس ، ولا يكتب اسم المتوفى فى هذه النسخ إلا بعد شرائها ، كما جرى بعد ذلك فى (صكوك الغفران) البابوية .

وكان فى الإمكان الحصول على شهادة تقول : (إن فلانا - الذى ترك مكان اسمه خاليا - كان رجلاً فاضلاً) .

وبلغت جرأة بعض التعاويذ تهديد أكبر الآلهة إذا هو لم يستجب لتحقيق ما يطلب منه .

- ٢ -

يمتاز (كتاب الموتى) بأنه دون مرافعة يلقيها أمام المحكمة الكاتب أوزيريس -
 أنى^(١) (عسى ألا يكون هناك شئ يعوقنى أثناء المحاكمة) .

وقد تضمنت هذه المرافعة مايسمى بالاعتراف السلبي ، وفيه ينفى (أنى)
 ارتكابه كل مايخالف القيم الأخلاقية التى استمدتها - دون شك - من قانون
 عام ، أو من كتاب مقدس .

ومهد لهذه المرافعة بشفاعة حورس بن أوزيريس التى تقول :

(لقد أتيت إليك يا «أون - نفر» ، وأحضرت إليك «أوزيريس - أنى» .
 قلبه كان على الميزان نقيا . . لم يرتكب خطيئة ضد إله أو آلهة . . لقد وزنه
 «نحوت» وفقا لأمر هيئة الآلهة ، وإنه بالحقيقة عادل وحق . . امنحه الفطائر
 والجمعة ، ودعه يدخل إلى حضرة «أوزيريس» ، عسى أن يكون شأنه شأن أتباع
 حورس إلى الأبد . . إلى الأبد) .

وأيّد «أنى» هذه الشعائر بقوله :

(إننى لم أرتكب إثما . . لم أسرق بالإكراه . . لم أسط . . لم أقتل . . ولم
 أرتكب أذى . . لم أختلس القرايين . . لم أقتطع من التقدّمات . . لم أسلب
 إلها . . لم أنطق بالكاذب . . لم أستلب طعاما . . لم أسبب ألما . . لم أرتكب
 الزنا . . لم أتعامل بخبث . . لم أمارس انتهاكا . . لم أفعل الفحش . . لم
 أسبب خراب الأرض المحروثة . . لم أكن بالمتلصص . . لم أرتكب غثيمة . . لم
 أكن حانقا غاضبا إلا لسبب حق . . لم أغرر بزوجة رجل . . لم أغرر بزوجة
 إنسان . . لم أذنس نفسى . . لم أسبب الرعب لإنسان . . لم أصم أذنى عن
 كلمات العدل والحق . . لم أتسبب فى حزن . . لم أمارس التكبر . . لم أشعل
 نار عراك . . لم أحكم دون روية . . لم أسع فى وشاية . . لم أضخم
 الكلمات . . لم أسبب ضرا و علة . . لم ألعن أبدا المالك . . لم ألوث أبدا
 المياه . . لم أنطق باستهزاء . . لم ألعن أبدا إلها . . لم أذنس قرايين الآلهة . . لم

(١) كان اسم المتوفى لايرد فى النصوص الجنائزية إلا مرتبطاً باسم أوزيريس .

أسرق قرابين الموتى المباركين . . لم أحرم الرضيع طعامه . . لم أرتكب خطيئة
ضد إله مدينتي . . لم أذبح بنية شريرة ماشية الآلهة) - كتاب الموتى ص ١١٧ .
مع أنى حذفت بعض العبارات المكررة ، فإنه لا يزال بعض المعاني المتداخلة ،
بسبب من سوء الترجمة ، أو بسبب الجمع بين أكثر من ترجمة .
وفي موقف آخر من المحاكمة يتكرر هذا الاعتراف السلبي - ص ١٢٤ /
. ١٢٨

وفي ص ١٢٩ نجد خطاباً إلى آلهة العالم السفلى يقول :

(اضمنوا لي أن أحضر إليكم ، لأننى لم أرتكب ذنباً ، لم أفعل خطايا ، لم
أقم بالشر ، لم أتهم إنساناً زيفاً . . لأجل هذا لا تدعوا ضراً يحيق بى . . إنى
أعيش فى العدل والحق ، وأطعم قلبى على العدل والحق ، وما صدر كأمر للبشر
قد فعلته ، وقمت بالأشياء التى ترضى قلوب الآلهة . . لقد أرضيت الإله ، لأننى
قد نفذت مشيئته . . أعطيت الخبز للجوعى ، والماء للعطاش ، والكساء للعرايا ،
وزورقاً لمن تحطمت مراكبهم . . لقد صنعت القرابين للآلهة ، ومنحت وجبات
المقبرة للموتى المباركين . . لذلك خلصونى ، وامنحونى حمايتكم ، ولا ترفعوا
ضدى اتهاماً أمام الإله العظيم ، إننى نقى الفم ، طاهر اليدين . . لقد طهرت
نفسى وصدري بالمطهرات ، ونظفت أعضائى السفلية ، واستحمت أحشائى فى
بحيرة العدل والحق ، وليس هناك عضو فى جسدى ينقصه العدل والحق)
ص ١٢٩ / ١٣٠ .

نفس التكرار والتداخل فى (الاعتراف السلبي) ، ولولا أن هذين العاملين قد
تم إعدادهما قبل أن تكون الوفاة والمحاكمة لكننا نقول إنه بسبب هول الموقف .

إن كلا من (الاعتراف السلبي) ، و (الخطاب إلى آلهة العالم السفلى) يصدر
عن دستور أخلاقى مدون تأخذ به المحاكم فى الدنيا ، كما تأخذ به محكمة
الآخرة ، ذلك لأن المتوفى مدان بمخالفة القواعد الأخلاقية فى الدنيا ، وقد
يذهب بنا الظن إلى أن هذا (الدستور الأخلاقى) يرجع فى مجمله إلى (كتاب) له
جذور سماوية بعيدة ، سقى تربتها يوسف وإبراهيم وإدريس ونوح ، وغيرهم

من الرسل الذين لم ترد أسمائهم في القرآن الكريم . . وصدق الله سبحانه : ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ .

ومما يفيد أن هذا (الاعتراف السلبي) ليس من خصوصية (آنى) أنه تكرر فى بردية (نو) وبردية (نبنى) .

ولأن (الشوق الإنسانى كان مرتبطاً بالتوحيد مع الإله ، أو بالتبعية له ، كما هو واضح من إلحاق اسم المتوفى باسم أوزيريس - فإن (أوزيريس - آنى) يشير فى (كتاب الموتى) إلى تبعية عضوية ، تتمثل فى (تحويلات) إلى سنونو ، إلى صقر ذهبى ، إلى صقر مقدس ، إلى ثعبان ، إلى تمساح ، إلى بتاح ، إلى روح (تم) ، إلى عنقاء ، إلى بلشون ، إلى زهرة لوتس ، وإلى الإله الذى يمنح الضوء والظلام .

ومن هنا نجد أن كل عضو فيه - من شعر رأسه إلى أصابع قدميه - مثال لعضو أحد الآلهة ، مما قد يوحى بالتوحد الكونى :

شعر (أوزيريس - آنى) الظافر هو شعر (نو) - الماء الأزلى .

وجه (أوزيريس - آنى) الظافر هو وجه (رع) - إله الشمس .

عيننا (أوزيريس - آنى) الظافر هما عيننا (حتحور) - إله الحب والجمال والسعادة .

أذنا (أوزيريس - آنى) الظافر هما أذنا (وب - وات) - فاتح الطريق .

شفنا (أوزيريس - آنى) الظافر هما شفنا (إنبو) - أنوبيس - حامى الموتى .

أسنان (أوزيريس - آنى) الظافر هى أسنان (سرفت) - الإلهة العقرب .

عنق (أوزيريس - آنى) الظافر هو عنق (إيزيس) - الأم المقدسة .

يدا (أوزيريس - آنى) الظافر هما يدا (با - نب - ددو) - الروح المقدس لأوزيريس .

كتفا (أوزيريس - آنى) الظافر هما كتفا (واجت) - ربة اللهيب .

حلق (أوزيريس - آنى) الظافر هو حلق (مرت) - إلهة رأسها مكللة بزهور

اللوتس .

ساعدا (أوزيريس - أنى) الظافر هما ساعدا سيدة (ساو + نيت) ربة سايس - من أقدم الآلهات فى مصر .

فقرات ظهر (أوزيريس - أنى) الظافر هى فقرات ظهر (ست) - إله الشر .
صدر (أوزيريس - أنى) الظافر هو صدر رب (خرعحا) - إله فى مملكة أوزيريس .

لحم (أوزيريس - أنى) الظافر هو لحم (عاتشفت) - رب الرعب العظيم .
جانب وظهر (أوزيريس - أنى) الظافر هما جانب وظهر (سخمت) - ابنة رع ، ومهلكة أعدائه .

أرداف (أوزيريس - أنى) الظافر هى أرداف (الأوتشات) - عين حورس - الشمس .

قضيبي (أوزيريس - أنى) الظافر هو قضيبي (أوزيريس) - إله الخصب والبعث وكبير الآلهة .

ساقا (أوزيريس - أنى) الظافر هما ساقا (نوت) - إلهة السماء .
أقدام (أوزيريس - أنى) الظافر هى أقدام (بتاح) - إله الخلق والصناعة .
أصابع (أوزيريس - أنى) الظافر هى أصابع (الجوزاء) - إلهة - كوكب .
عظام رجل (أوزيريس - أنى) الظافر هى عظام أرجل (اليوريات الحية) - مجموعة آلهة .

يلاحظ أن الترجمة تحدثت عن (جانب) واحد ، وعدة (أقدام) ، ويلاحظ أن عملية التحول هذه وردت فى الأساطير الهندية ، فيما يسمى تقمص الأرواح أو الأجساد ، وهولون من التعذيب أو التطهير من الذنوب فى الدنيا ، إذ تحل روح الإنسان فى جسم حيوان . . ولعل ماجاء فى كتاب (التحويلات) أو (مسخ الكائنات) لأوفيد إنما هو اقتباس فكرى مما ورد فى (كتاب الموتى) ، ومعالجته معالجة أدبية خاصة ، كما فعل كل من هوميرو ودانتى ، مع بعض القصص المصرية القديمة .

فكرة القانون

يقول صمويل كير : (التاريخ المصرى يوحى بأنه حوالى عام ٣٠٠٠ ق.م فى مصر كان «العقل السحري» و «العقل المنطقى» ، أى أن الأساليب الدينية والمنطقية فى التفكير قد كانا أكثر توازناً مما كانا عليه حوالى عام ١٠٠٠ ق.م ، سواء فى مصر أو فى عالمنا الحاضر . لقد استخدم المصريون الأقدمون المنطق بأعلى درجة ، حين استدعى ذلك ، كما أنهم قدسوا ما كان بعيداً عن فهمهم) - أساطير العالم القديم ص ٢٥ .

وتوازن الدين والمنطق يعنى (تقنين) القيم الأخلاقية التى تحمى المجتمع ، وتسدد مسيرته ، ولا بد لسلامة هذه القيم ألا تخضع لإرادة الفرد ، وإلا انحرفت أهدافها ، مهما كان صقاء هذا الفرد ، وحرصه على سلامة المجتمع ، فما من إنسان إلا وله (هوى) يميل به أو يهوى ، وجوانب قصور تعثر به أو تفضل . . ومن هنا كان العون السماوى الذى يجنب الإنسان بعض الشطط ، أو عواقب الغفلة .

وهذا (دستور قوانين «حمورابى» يقضى فى العدالة حسب المركز الاجتماعى للمدعى أو المذنب ، أما الانعدام التام للفوارق الاجتماعية أمام القانون الذى هو من أرقى مظاهر الحضارة المصرية ، فلم يكن معروفاً فى بابل ، وكان نتيجة ذلك أن المبادئ الأخلاقية فى بابل لم تساهم إلا بالنزr اليسير ، إن لم تكن لم تساهم بشئ مطلقاً فى الإرث الأخلاقى الذى ورثه العالم الغربى) - فجر الحضارة ص ٣٣ .

وهذا لا يتوقف على قدم الحضارة المصرية ، بل على استعانة هذه الحضارة بتوجيهات سماوية .

ولعل تعظيم الحق والعدل والسعادة ، فيما سمي الإلهة (ماعت) ، هو تعبير عن الجذر السماوى الذى أخذ - مع تراكمات التطور الزمانى والمكانى - يتحول إلى (رمز) إلهى ، يتردد فى (ترنيمات زرادشت) .

ومما يؤيد وجود الجذر الإلهى فى القانون المصرى أن (المثل الأعلى لحكماء الاجتماع المصريين أخذ شكل رسالة التبشير بقدم المخلص) ، وهى لمحة إلى ما عهد فى الكتب المقدسة من التبشير بالرسول القادم ، (وهى الاعتقاد بمجىء حاكم عادل يكون فاتحة عصر ذهبى ، وإقامة العدالة بين جميع بنى البشر . . . وقد ورث عنهم العبرانيون هذا الاعتقاد فيما بعد) - فجر الضمير ص ٤٠ - ليس لأن العبرانيين بشروا بالماشيح أو المخلص فحسب ، بل لأن هذا كان أسلوباً متبعاً ، حتى بشر السيد المسيح بالرسول محمد ، عليهما الصلاة والسلام ، ثم انقطع التبشير ، لأن رسالة محمد هى الخاتمة .

ذكر الأستاذ سليم حسن (مصر القديمة ج ٣ ص ١٧٠ / ١٧٤) أن أمنمحات الأول (٢٠٠٠ - ١٩٧٠ ق.م) مؤسس الأسرة الثانية عشرة ، (حرص على إذاعة أسطورة تقول : إن الولايات التى حاقت بالبلاد ستنجاب على يد رجل عظيم يصلح عوجها . ويرى بحكمته علها . . . وقد آمن المثقفون بهذه «النبوءة» الأسطورة ، لأنها كتبت بأسلوب بليغ أحسن صياغتها الكاهن المرتل «نفر رو هو» تبريرا لاعتلاء «أمنمحات» عرش الملك) .

وقد جاء فى هذه النبوءة الأسطورة (سيأتى ملك من الجنوب اسمه «أمينى» ، وهو ابن امرأة نوبية الأصل ، وقد ولد فى الوجه القبلى ، وسيتسلم التاج الأبيض ، وسيتسلم التاج الأحمر ، فيوحد البلاد بذلك التاج المزدوج ، وسينشر السلام فى الأرضين - مصر - فيحبه أهلها . . . وسيفرح أهل زمانه ، وسيجعل ابن الإنسان يبقى أبد الأبدين ، أما الذين كانوا تأمروا على الشر ، ودبروا الفتنة ، فقد أخرجوا أفواههم خوفاً منه ، والآسيويون سيقتلون بسيفه ، واللوبيون سيحرقون بلهيبه ، والثوار سيستسلمون لنصائحه ، والعصاة إلى بطشه ، وسيخضع المتمردون للصل الذى على جبينه) .

الخبر يتحدث عن (حيلة سياسية) ، تمت بالاتفاق بين (المرشح) للملك

والكاهن ، لكسب تأييد الجماهير للحاكم الجديد الذى كان له فضيلة إعلاء شأن (أمون) ، ولعل هذا أحد بنود الاتفاق ، لأن (أمون) لم يكن معروفا من قبل . . . ويلاحظ أن الماشيح أو المخلص عند اليهود أخذ شكل (حيلة سياسية) لرفع معنويات اليهود بعد الأسر ، وفى الوقت نفسه فهو يحمل طابع (التبشير) ، برجل مؤيد من السماء (يخرج الناس من الظلمات إلى النور) .

* وحقيقة هذا (الجذر السماوى) غابت عن عالم المصريين بريستيد الذى قال : (جدير بنا ألا ننسى الحقيقة المتفق عليها الآن ، وهى أن الدين فى طوره الأول لم تكن له علاقة بالأخلاق ، كما نفهمها الآن ، كما أن المبادئ الأخلاقية الأولى لم تكن سوى عادات شعبية ، قد لا تكون لها علاقة بالشعور بالآلهة أو الدين ، وقد كانت مظاهر الطبيعة أول ما أشعر المصرى بوجود الآلهة ، مثله فى ذلك مثل الشعوب الأخرى القدامى ، فكانت الأشجار والينابيع والأحجار وقمم التلال والطيور والحيوانات فى نظره مخلوقات مثله ، أو مخلوقات حلت فيها قوى طبيعية غريبة ، لاسلطان له عليها ، ومن ثم كانت الطبيعة أول مؤثر مبكر فى عقل الإنسان ، فوصف له العالم الظاهرى أولا بعبارات دينية رهيبة ، وصارت مظاهر الإلهية الأولى فى نظره هى القوى المسيطرة على العالم المادى . . . وكان أبعد ما يتوهمه عبادة إله من هذه الآلهة أن إلههم يحمل فى نفسه فكرة الحق أو الباطل ، أو أنه يرغب فى وضع هذه المطالب على كاهل عباده الذين كانوا يرون من جانبهم أن غاية ما يطلبه إلههم منهم هو تقديمهم القرابين زُلفى له ، كما كانوا يفعلون لرئيسهم المحلى سواء بسواء . . . على أن أمثال هذه الآلهة كانت فى جملتها آلهة محلية ، كل منها معروف لدى منطقة معينة فقط ، ولكن كثيرا ما كان يمتد الاعتقاد فى إله ما إلى جهات بعيدة فى العالم القديم ، بسبب الهجرة أو انتشار السكان) .

(وتدل المصادر التى وصلت إلينا على أن الوازع الخلقى قد شعر به المصريون الأقدمون قبل أن يوجد الشعور به فى أى صقع آخر ، فإن أقدم بحث عن «الحق والباطل» فى تاريخ الإنسانية عثر عليه فى ثانيا مسرحية «منفية» ، تُشيد بعظمة مدينة منف وسيادتها ، ويرجع تاريخها إلى منتصف الألف الرابع ق.م) .

(ويدل شكل هذه المسرحية بداهة على أنها بحث فى أصول العالم ما بين دينى وفلسفى ، وهى من تأليف طائفة من الكهنة فى المعابد المصرية ، غير أن موضوعها لم يتناول ماكانت عليه حالة الشعب المصرى بأسره فى ذلك الحين) - فجر الضمير ص ٣٧ / ٣٨ .

إذا كانت مسرحية منف أقدم تناول للحق والباطل فهى دليل على أن الحكم على ثلاثة آلاف عام قبلها - بدون نصوص موثقة - يهدم نظرية أن مصر أسبق الحضارات القديمة فى معرفة الحقوق والواجبات ، وفى الالتزام بالحقوق والواجبات ، كما قرر بريستيد ص ٣٣ .

وإذا كانت مصر شاركت العالم القديم فى التعرف إلى الإله أو الآلهة من خلال المظاهر الطبيعية ، فإن هذا الإله أو هذه الآلهة ، إذا لم تكن متصفة بالحكمة والعدل والتمييز بين الحق والباطل - فقدت مصداقيتها ، لأن التوجه إلى الله بالدعاء وبالصلاة وبالقرايين رهن بانتصافه للمظلوم من الظالم ، وبالأمل والرجاء فى أن يفرج الكرب ويكشف الغمة ، ويكون خير عون وسند ، ومادامت الآلهة مرتبطة بالمظاهر الطبيعية ، والمظاهر الطبيعية ليست ملكاً لفرد أو أفراد ، بل إنها تملك قوى (متعالية) غير متميزة ، فإنها - دون شك - لا تميل ولا تنحرف ، فإذا حكمت فى أمر من أمور البشر التزمت المثل الأعلى والخير العام . . ومن ثم ما كان لمخلوق أن يطلب عون إلهه إلا فى العدل . . ومن هنا تتجلى القيم الأخلاقية فى أكمل صورها ، حين يقف العبد من إلهه موقف الابتهاال والضراعة ، فأكثر ما يكون التوجه إلى الله ، حين يجور الإنسان على الإنسان ، أو حين يطغى ويستبد ، وما أكثر ما يحدث هذا ، بل وقد يحدث الجور فى موقف الإنسان الإله ، فيطلب ما ليس له ، أو يدعى نسباً بالإله ، أو يهرطق هرطقة فى وجه الإله !!

ثم إن وقوف الإنسان عند الرموز الأسطورية التى تؤكد ارتباط المعتقد بالمظاهر الطبيعية (بداية) ، قد يتحول بهذه (الرموز) إلى أغشية تغشى المعتقد بتقادم الملة . . وقد أصيبت أديان سماوية بهذه الأغشية فى أكثر من مرحلة من مراحل تطورها ، وما زالت اليهودية والمسيحية والإسلام تحمل من أعباء هذه الأغشية .

* ويقول بريستيد : (نجد مرسوماً على جدران معبد الأقصر قصة ولادة «أمنحوتب الثالث» فى مناظر محفورة ، يرجع تاريخها إلى أواخر القرن الخامس ق.م . . نجد الأمير الطفل أمنحوتب محمولا على ذراع إله النيل ، تتبعه صورة طفل آخر ، وهذه الصورة التى تنطبق تمام الانطباق - فى شكلها الظاهر - على صورة الأمير هى الكائن الذى يسميه المصريون الأقدمون «كا» وهو نوع من الملائكة سام ، كان الغرض منه على الأخص إرشاد المتوفى إلى ماقدّر له فى الحياة الأخرى ، التى يجد فيها كل متوفى من المصريين ملاكه «كا» فى انتظاره) - فجر الضمير ص ٦٧ .

وهذا تصور مرتبط بجذر سماوى ، يتحدث عنه الإسلام فى صورة (رقيب وعetid) ، وفى صورة (قرين) أيضاً ، كما ورد فى سورة (ق ١٨ و ٢٣) ، إذ يصحب المتوفى يوم القيامة (قرينه) ، ويقول : «هذا ما لدى عتيد . . ربنا ما أطغيته» .

وإذا كان (الكا) أو (البا) - كما ورد فى أكثر كتب المصرىات ، دون قدرة على التمييز بينهما - يمثل (الروح) المفقار للميت (إلى حين) ، فهو جذر سماوى كذلك ، سواء أخذ شكل طائر أو لم يأخذ ، وسواء تردد عليه فى قبره أو لم يفعل .

يقول (إرمان) عن علاقة (الكا) بصاحبها :

(المعتقد أن «الكا» تشبه صاحبها تماماً ، وقد ورد أنه عندما خلق إله الشمس - فى بداية نشأته - أول إلهين ، وذلك بعد أن تفلهما - أى نطق بلفظ «كن» - فقد وضع ذراعيه من ورائهما ، ففاضت عليهما «الكا» التى كانت له ، ودبت فيهما الحياة ، ومن ثم كان الذراعان الممتدان رمزاً «للكا» ، منذ أقدم الزمان ، فإذا مات الإنسان هجرته «الكا» ، على أنها تكون قريبة منه ، لتبادر إلى مساعدته إذا دعاها ، وقد ورد فى نص : «إنك تعيش سعيداً أبداً ، وبجانبك الكا التى لك ، إنها لن تهجرك أبداً») - ديانة مصر القديمة ص ٢٣٦ .

وهذا التصور لبث الروح لا يبعد كثيراً عما جاء فى القرآن الكريم : ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ - ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾ .

ولأنه من روح الله فهو خالد ، وإن حارت البرية فى تحديد كنهه ، سواء عند فلاسفة الغرب أو فلاسفة الشرق ، وما أكثر حيرة الإسلاميين فى أمره ، مع أن الله - سبحانه - نهى عن البحث فى هذا الأمر ، لأنه لا طائل من ورائه ، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ .

وما تزال ذاكرة (الشعب) تتحدث عما صنع الزمن بموروث (الكا) ، فإذا هى (قرين) من الجن ، (يؤاخى) الإنسان ويحميه ، فإذا فهمنا من لفظ (الجن) دلالة (الخفى) الذى لا يرى ، فقد وقفنا عند حدود الفهم المصرى القديم ، ولعل منه قوله سبحانه : ﴿لَهُ مَعْقَبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ .

* أما ماهو عن (بعث أوزيريس للحياة من جديد ، بأن ضمت الآلهة عظام أوزيريس ، ثم ضمت رأسه إلى عظامه ، فكذلك بالنسبة للميت ، «إنها تعطيك رأسك ، وتجلب لك عظامك ، وتجمع لك أعضاءك ، وتضع قلبك فى جسدك» . و «روحك الممجة وعافيتك تأتيان إليك كأنك إله» ، وستصاحبك من جديد «الكا» التى لك و «تأتى لك حياتك ، وتأتى لك روحك الممجة» .

(إن «رع» و «حورس» ينصبان لك سلما « يقف أحدهما على هذا الجانب ، ويقف الآخر على ذلك الجانب » ، ومن ثم « ترقى عليه إلى السماء ، ويفتح لك باب السماء ، وتنزع لك المزالج الكبار ، فتجد رع واقفاً ، فيأخذك من يدك ، ويقودك إلى قصر السماء ، ويجلسك على عرش أوزيريس ، لتتولى حكم الممجدين) .

(وهكذا يتم البعث حياة حقيقية جديدة ، « فلهم قلوبهم ، ولهم أرواحهم ، ولهم أفواههم ، ولهم أرجلهم ، ولهم أذرعهم ، ولهم سائر أعضائهم) .
(والأوراد التى تتحدث عن البعث كثيرة ، فى أقدم ما حفظ لنا من أدب جنازى) - ديانة مصر القديمة ص ٢٤٧ / ٢٤٩ .

هذه الصورة التى تحدث عنها (إرمان) لا تكاد تبعد عن قصة إبراهيم مع الطير ، حين قال : ﴿رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ .

وفى جدال الله للكافرين الذين أنكروا البعث بقولهم : أئذا متنا وكنا ترابا

وعظاما ، أثنا لمبعوثون ، أو آباؤنا الأولون ؟ ! فكان رده سبحانه : ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ
وَالْآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ .

وبين الله سبحانه أن الذي أنشأهم أول مرة قادر على النشأة الآخرة ، ﴿ يَوْمَ
تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

فالحديث عن (البعث) ليس مجرد فكر مصرى ، بل هو من أفق سماوى ،
ضَمَّرَته الأيام بصفائرها .

ديانة عالمية

- ١ -

سبقت الإشارة إلى حرص الفاتحين المصريين على بناء معابد مصرية في البلاد المفتوحة ، لتعين على توطيد الوجود المصرى ، كما تفعل الدول الكبرى اليوم بترويج لغتها وثقافتها ، لتكون وسيلة لتثبيت الوجود السياسى والاقتصادى .

وكان بعض الفاتحين المصريين يستعين ببعض آلهة البلاد المفتوحة كسباً لمودتها ، وعدم إشعارها بوطأة الغزاة ، بالإضافة إلى المصاهرة ، وإلى تربية أبناء ذوى النفوذ ، فى تلك البلاد (الأجنبية) ، مع أبناء الملوك والأمراء المصريين ، ترويضاً لهم على حب مصر والولاء لها ، وهو مايجرى حتى الآن من البلاد المستعمرة مع البلاد المتخلفة ، أو التى تخضع لمشيئتها .

ونتيجة هذه السياسة (الواعية) كان يعبد فى واحات الصحراء الغربية - فى الزمن القديم - الإله «آش» الذى كان يشبه «ست» عند المصريين ، ثم حلّ محله «ست» و «سوتخ» . . وفى الدولة الحديثة أصبح «آمون» الإله الرئيسى فى معابد الواحات .

وقد خلعت الصحراء على معابدها مزيداً من القداسة ، فللعزلة والوحشة واتساع الأفق وروعة ورهبة الطبيعة الصامتة ، مايولد أشباحاً وأرواحاً ، وينشر خلف كل شئ من الأسرار والأحاجى ، مما أعان كهنة هذه المعابد على اتخاذ طقوس غريبة ، ومسوح غير مألوفة ، وادعاء قدرات لايسهل فى غير هذا المناخ تصديقها .

عندما قدم الإسكندر الأكبر إلى مصر سنة ٣٣٢ ق.م راقه الذهاب إلى سيوه ، ربما ليضع (سلة الغلال) فى ميزانه ، وإن كان التاريخ يتحدث عن وقوعه فى أسر الكاهن الأعلى الذى سحره بنبوءاته ، ثم ألبسه تاج آمون ، ليصبح الإسكندر ذا القرنين ، وليكون ابن الإله .

وقد شيد تحتمس الثالث - فى أحد حصون بلاد النوبة الذى يسمى (نحر الشعوب الأجنبية) - معبداً لآمون رع ، معبود الكرنك .

والى جانب «آمون رع» انتقل إلى بلاد النوبة الإلهان المصريان «بتاح» و«رع حراختي» ، وكذلك «إيزيس» و«حتحور» ، وقد أضيفت إليهم من ملوك مصر آلهة كذلك ، مما أعان على أن تصير النوبة جزءاً من مصر ، محكوماً بدينها وتاريخها ومصيرها .

وفى عهد رمسيس الثانى شيدت المعابد الكبيرة فى أبو سمبل ، وجرف حسين ، وبيت الوالى ، والدّر ، وغيرها .

وقد حصل كهان هذه المعابد على أوقاف ودخول مناسبة ، أعانت على إعالة كثير من فقراء النوبة .

وكان الحاكم الحقيقى لبلاد النوبة هو «آمون نباتا» برأس الكبش ، وبوحيه كان الملك يُختار أو يُعزل أو يُؤمر بموته ، وبأمره خرج الملك لاستخلاص الأراضى المصرية المقدسة من الأيدى النجسة .

وكانت منطقة الحدود بين بلاد النوبة ومصر ، مما يلى الشلال جنوبا ، تدين فى بداية الأمر للإله العظيم «خنوم» ، الذى كان يحمى منابع النيل فى إلفانتين - ديانة مصر القديمة ص ٣٩٠ / ٣٩٦ .

✽ ثم سيطر الثالث الأوزيرى (أوزيريس - إيزيس - حورس) على العقيدة المصرية ، فصارت تصنع له التماثيل الصغيرة الدقيقة التى يحملها المصرى معه أينما ذهب .

وقد تجاوز هذا الثالث حدود مصر إلى بلاد الإغريق والرومان ، وإلى الهند

وبلاد الغال (فرنسا) ، وظلت طقوس عبادة أوزيريس حتى بعد ظهور المسيحية بأكثر من أربعة قرون .

لكن إيزيس كانت الأقرب إلى الوجدان المصرى ، إذ كانت تتفرد بحمايته فى رحلته الشاقة إلى العالم الآخر ، ومن ثم تحتل مكانة كبيرة فى (كتاب الموتى) - كتاب الموتى ص ٢٥١ / ٢٥٢ .

هذا إلى أنها كانت الواهة الأولى للحياة ، فى مجمع الآلهة ، مرتبطة بالنيل وبمياهه التى تمنح الحياة ، وفى الموكب السعيد الذى كان يقام احتفالاً بالفيضان السنوى ، كان يحمل عالياً من مياه النيل ملء كوب فى إناء إيزيس الذهبى ، وكان يغنى فى مدحها ترنيمة تقول : (بقوتك تمتلئ كل فروع النهر) ، و (يامن تأتين بالنيل ذى التيار الذهبى ، وتقودينه فى موسم الفيضان ، فوق أرض مصر ، لتدخلى البهجة على البشرية) - مصر الرومانية ص ١١٣ .

وقد انتشرت عبادتها فى كل عالم البحر المتوسط ، وكانت روما مركزاً رئيساً لها .

يسجل كتاب دينى وجد فى أوكسير نخوس قائمة بالهيئات والألقاب والسجاي والمخصصات والتشبيهات التى عرفت بها (هذه الإلهة ذات الأسماء المتعددة فى أماكن متعددة فى الوطن وفى الخارج) ، ويكفى قدر ضئيل من الاقتباس لإعطاء أمثلة على ١٥٠ اسماً ولقباً فى أكثر من مائة مكانة ، مدونة بقوائم .

وقد لاحظ ديودور الصقلى ذلك ، فقال : (إن نفس الإلهة يسميها البعض إيزيس ، والآخرى يسمونها ديمتر ، والبعض يسميها مانحة القانون ، وسيلين ، وهيرا ، والبعض يدعونها بهذه الألقاب مجتمعة ، وأطلق البعض على أوزيريس ديونيسيسوس ، والبعض الآخر أطلقوا عليه بلوتو أو آمون ، وعدد قليل يسمونه زيوس) (Paganism and the Greco-Roman World) - مصر الفرعونية الرومانية ص ١٠٤ / ١٠٥ .
Bibliotheca Alexandrina

ويقول إرمان ، مستعيناً بنص كشف فى مصر ، من القرن الثانى الميلادى :

(من روما وإيطاليا إلى الهند وفارس ، ومن البحر الأسود إلى البحر الأحمر ، كانت السيادة فى كل مكان للإلهة «ذات الأسماء العديدة» ، فستون بلدًا وقطرًا وشعبًا كانوا يعبدونها على أنها «الفضلى ، الجميلة ، الطاهرة ، المقدسة ، المتصوفة ، حبيبة الآلهة» ، وفى روما ، وعند الأمازونيين كانت تعبد على أنها «محاربة» ، وفى بامبيكى فى سوريا على أنها «أترجاتس» ، وفى كريت على أنها «دكتينس» ، وفى صيدا على أنها «عشترتى» ، ولها المعابد «فى المدائن جميعا ، شيدت لكل الأزمنة ، وقد تركت للجميع القوانين ، وهى تريد أن يرتبط الرجال والنساء معاً» ، وقد أعطت هؤلاء ذات القوة التى أعطتها أولئك ، وهى «الإلهة ذات الشكل الجميل فى أولمب ، زينة النساء ، المحبة ، الرؤوف» ، وإن العالم يدين لها بالنبذ ، فهى أول من أحضره فى أعياد الآلهة ، وهى التى «تقود الشمس ، منذ شروقها إلى غروبها» ، لبهجة جميع الآلهة ، وجميع الكائنات الحية ، وهى التى «تجلب فيضان الأنهار ، وفيضان النيل» فى مصر ، وهى النهر الكبير فى أفريقيا ، والكنج فى الهند ، وبفضلها يحيا كل شئ ، عن طريق الأمطار والينابيع والطل والثلج ، ولها السلطان على الرياح والرعود والبروق والعواصف الثلجية) - ديانة مصر القديمة ص ٤٨٣ .

ويقول إرمان : (إننا لنجد فى أفريقيا الشمالية ، وفى أسبانيا ، وفى الدانوب ، وفى فرنسا ، وحتى فى المجترة نفسها - نقوشًا تكرم فيها إيزيس ، وسيرابيس ، وكان لإيزيس ربوعها كذلك فى مناطق جبال الألب ، وفى ألمانيا . . . ويقرر أحد المصادر المسيحية - فى تقرير - أن نونسبرج ، جنوب بوزن ، كانت كأنها إسكندرية ثانية ، ملأى بأنوبيس ذى الشكلين ، وبصور نصف إنسانية ، ذات أشكال متعددة . . . ملأى بحماقات إيزيس واختفاء سيرابيس . . . إلخ) .

(وهكذا سادت عقيدة إيزيس فى كل مكان فى أوروبا ، وقد كان سلطانها ينمو على الدوام ، حتى نهاية القرن الثانى ، عندما أخذت عقيدة متراس الفارسى تنافسها) .

(وإننا لنجد فى أثينا - فى منتصف القرن الرابع - قبراً لكاهن إيزيس ، دفنت معه فيه الأدوات من الفضة التى كان يستخدمها فى المعبد) .

(وفى المحاولات الأخيرة فى إحياء الوثنية المختصرة ، كان للعقيدة المصرية دورها أيضاً ، فكان چوليان يكرم الآلهة المصرية) .

(وفى عام ٣٩٢ - عندما قام أربو جاست الفرنجى بتنصيب أوريجين على العرش ، وأتاح للأرستقراطية الوثنية نصراً قصير الأمد - لم تُنس كذلك عبادة إيزيس) .

(وفى عام ٣٩٤ احتفل نيكوماك فلافيان - باعتباره قنصلاً - بأخر الأعياد الرسمية فى روما ، تمجيداً لماجناتر وإيزيس) .

(وفى القرن الخامس عشر عمد المتصوف أسكليداس إلى الإقامة فى مصر ، ليدرس التعاليم المقدسة من مصدرها ، وقد نظم الأناشيد للآلهة المصرية ، وألف كتاباً فى الديانة المصرية) - ديانة مصر القديمة ص ٤٨٧ / ٤٨٨ .

ويلاحظ أن غزو آلهة مصر لأوربا تمّ من قبل فتوحات الإسكندر بزمان طويل .

(فى حوالى سنة ٤٥٠ ق،م جاب هيرودوت مصر ، ولاحظ أن الآلهة المصرية ليست شيئاً آخر غير آلهته الخاصة ، فأزويريس وإيزيس هما ديونيسوس وديمتر ، وحورس هو أبوللو ، وست عدو الآلهة إنما هو تيفون الجبار ، ونيت إلهة سايس إنما هى أثينا ، ومين هو پان ، وآمون هو زيوس ، بل إن باستت ذات رأس القطة تتفق مع أرتيمس) .

(ويذكر عن أبيس الذى شاهده فى فناء أمام البوابة الجنوبية لمعبد بتاح ، أنه ينشأ من شعاع من السماء ، وأنه أسود ، وأن على جبينه غرة مربعة ، وعلى ظهره صورة نسر) - المصدر السابق ٣٧١ .

وفى نقوش المقابر القديمة فى شمالى سوريا ، فى الألف سنة قبل الميلاد ، نجد عادة دفن الجثة فى تابوت ، أو فى تابوتين لحمايتها .

كما أن أحد النصوص المصرية القديمة جداً يدل على أن الجثث كانت تحنط فى كريت كما فى مصر .

وإلى الشرق من بحيرة طبرية صخرة منعزلة ذكر أن أيوب اعتمد عليها ، وقد مثل عليها رمسيس الثانى وهو يمجّد إلها متبربراً .

وقد افتخر رمسيس الثالث بأنه شيد فى فينيقيا معبداً لآمون ، كان «بيتاً مليئاً بالخفايا والأسرار ، وكان يشبه الأفق السماوى الذى فى السماء» ، وكان اسمه «بيت رمسيس فى كنعان» . ووضع الملك كذلك تمثلاً كبيراً لآمون يستقر فيه ، يسمى «آمون رمسيس ، تأتى إليه شعوب سوريا بتقدماتها ، لأنه إلهى» .

وقد أصبحت الأختام فى تلك البلاد تحمل صور الآلهة المصرية . كما أصبحت المقابر تحلّى على الطريقة المصرية .

وكانت «حتحور» تسمى «سيدة جبيل» ، وكانت حامية الملاحين ، وإن كانوا لا يبحرون إلى جبيل ، وكان آمون يعبد فى جبيل فى الدولة الحديثة - ديانة مصر القديمة ص ٣٨٧ / ٣٨٩ .

ولأن مصر كانت ملتقى طرق تجارية عالمية برية وبحرية ، فقد ارتحلت الحضارة المصرية ، أو بعض معالمها إلى أقصى مكان يقع فى الحسبان ، فى سالف العصر والأوان .

يروى الدكتور ميلاد حنا عن مقابر أسرة مينج (١٤٠٩ - ١٦٤٤ م) ، التى تقع على بعد نحو خمسين كيلو متراً فى اتجاه الشمال الغربى من العاصمة بكين ، ويسمونها (مقبرة الـ ١٣ إمبراطوراً) ، يقول :

(عندما نزلت إلى المقبرة ذاتها ، وجدت نفسى أربط بينها وبين مجموعة مقابر الملوك بالبر الغربى ، بمدينة الأقصر ، وكيف أن كلا منهما منحوت فى قلب الجبل ، وأخذ نحتها عشرات السنين ، وكان منظر الحجرة الجنائزية والتابوت من الحجر متماثلاً فى مصر والصين إلى حد كبير) . . بل إن طريق الكباش بين معبدى الأقصر والكرنك يماثل الطريق من البوابة الرئيسية إلى مقابر أسرة مينج ، حيث أنشئوا على جانبيه الطريق تماثيل لبعض الحيوانات المشهورة لديهم ، مثل الجمل والفيل والزرافة وغيرها - الأعمدة السبعة للشخصية المصرية ص ١٦ .

وهذا التشابه قد يكون منبثقاً عن طبيعة الجبل الذى نحتت فيه المقابر ، وقد

يكون بسبب الاتصال الفكرى ، بعد أن كثر الرحالة والمغامرون ، وبعد اتساع المد
الإسلامى .

كان للديانة المصرية منافسوها فى أوربا القديمة ، غير أنه لم يقدر «للأم العظيمة» فى آسيا الصغرى ، ولا «لثراس» إله الشمس عند الفرس ، ولا لإله اليهود ، أن يتنزع أى منهما الأسبقية من الآلهة المصرية ، ذلك لأن الإجلال الغامض الذى كان يحس به المرء نحو هذه البلاد ذات الحضارة القديمة والآثار العجيبة ، وما صاحب المعابد الضخمة ، وأكواخ القصب ، والتماسيح ، من حكمة عميقة قديمة ، وما عرف من أن زعماء الفكر الإغريق قد تلقوا تعليمهم عن الكهنة المصريين ، وتلك الطقوس الخفية التى كانت تؤدى فى أعياد إيزيس وسرايس ، والتى توحى - بطريقة مدهشة - بأفكار سامية طاهرة ، ثم ما وقر فى الأذهان من أن الديانة المصرية تقدم لأتباعها عزاء فى كافة الأزمات ، وتمنحهم الإيمان بحياة أخرى أفضل ، يقضونها فى مملكة أوزيريس . . لكل هذا لم تكن عبادة الآلهة المصرية عبادة سطحية جوفاء . كما كانت عبادة الآلهة الرومانية ، بل كانت ديانة حقيقية ، تملأ قلوب البشر ، وتسمو بهم ، وكان كاهن إيزيس الفقير فى قميصه من الكتان يهيج للنفس ما كانت تصبو إليه من امتلاء روحى .

ومن ثم استشعرت الدولة الرومانية الخطر عليها من معابد إيزيس .

فى الفترة ما بين (٥٩ - ٤٨ ق . م) قامت الدولة الرومانية خمس مرات بتدمير معابد إيزيس ، وحرّم أغسطس بناء شئ منها داخل روما ، وصلب تيبيريوس الكهنة ، ودمر معبدهم ، وألقى بتمثال الإلهة فى نهر التيبر .

لكن كاليجولا أقام معبداً كبيراً لإيزيس فى حقل مارس ، زاد فيه دوميتان .

وبعد مائة عام أصبحت إيزيس وسيرايس يسميان «الإلهان المصريان قديما والرومانيان الآن» .

وبذلك سادت الديانة المصرية أنحاء واسعة من العالم ، وقد ساهم هادريان كثيراً فى هذا المجال ، فقد زار مصر ومعه الإمبراطورة ورجال البلاط ، وكان من المتحمسين لهذه البلاد ولآلهتها .

ولعل فترة العداء لآلهة مصر كانت بسبب الحروب التى نشأت بين القادة

الرومان ، بسبب طموحات كليوباترة . مما أدى إلى انقسام الأسطول الرومانى بين أنطونيوس وأكتا فيوس - ديانة مصر القديمة ص ٤٦٧ / ٤٦٩ .

* ومن الأناشيد التى كانت تمجد إيزيس فى الدولة الرومانية الشرقية بخاصة :

(أيتها القديسة ، أيتها الحامية الأزلية للإنسان ، يامن تعين بهم فى سخاء ، وتزودينهم بعطفك الأبوى ، إن أصابتهم محنة ، لايمضى يوم ، بل ولا لحظة ، لاتفizzين فيها عليهم من الخيرات ، ولاتحمين فيها البشر فى البحر والبر ، ولا تمدين فيها يد النجدة لأولئك الذين تدقهم عواصف الحياة . . إنك تسكنين عواصف القدر ، وتخيفين الحركات المؤذية للنجوم) .

(إن أهل السماء يقدسونك ، وسكان العالم السفلى يخدمونك ، إنك لتديرين الأرض ، وتسيرين الشمس ، وتحكمين العالم ، وتجوين تارتاروس ، وإن النجوم لتجيبك ، والأزمان صائرة إليك ، وإن الآلهة لتحبك ، والعناصر تخدمك ، بأنفاسك تهب الريح ، وتخصب السحب ، وينبت الحب ، وينمو الحب ، وينمو النبات) .

(أمام جلالتك تخشع الطيور التى فى السماء ، والحيوانات المتوحشة التى تهيم فى الجبال ، والأفاعى التى تختبئ فى الثرى ، والمردة التى تسبح فى البحر) .

(إنى أضعف من أن أستطيع مدحك ، وأفقر من أن أقدم إليك القرابين ، إنه ليعوزنى البيان البليغ للتعبير عما أشعر به نحو جلالتك ، وإنه لينبغى أن يكون لى - لأداء هذا الواجب - ألف فم ، وألف لسان) - المصدر السابق ص ٤٨٦ .

وقد وجد فى كيوس - فى بثنيا - أنشودة تقول :

(يامليك مافى السموات جميعا إننى / أحبيك يا أنوبيس «حورس» ، يالأزلى / ووالدك أوزيريس المقدس ، المتوج بالذهب / إنه زيوس الكرويندى ، إنه آمون القوى / الملك الخالد ، ذو الاحترام السامى على نحو سيرابيس / وأنت كذلك أيتها الإلهة المقدسة ، أيتها الأم إيزيس ، ذات الأسماء العديدة / يامن

ولدتها السماء على أمواج البحر المتلاثلة / وأنشأتها الظلمة على نحو النور لسائر البشر / يامن تحمل الصولجان على جبل الأولب ، بصفتها أكبر الجميع سنا / وتحكم الأرض والبحار كسيدة إلهية / يامن ترين كل شئ ، إنك تهين البشر خيرا كثيرا) - المصدر نفسه ص ٤٧٤ .

*وتتحدث نصوص النذور عن تقدمات قيمة ، من معادن ثمينة ، ثعابين مرصعة بأحجار كريمة ، وشخايل وصحاف من فضة .

وقد أهدت سيدة أسبانية إلى إيزيس أدوات من فضة تزن أكثر من سبعين رطلا ، علاوة على ثعبان مرصع بكثير من الأحجار الكريمة وحلى أخرى .

وقد تقرب ج. مناتئوس فى مالمسين ، على بحيرة جاردا ، إلى إيزيس ببناء معبدها ، وشيد مبنى آخر أمامه ، وفى بنفنت شيد لوسليوس (قصرًا فخماً من أجل إيزيس العظيمة ، سيدة بنفنت ، ورفاقها الآلهة) ، وأقام مسلتين من الجرانيت الأحمر أمامه ، وكتب على القصر وعلى المسلتين بالهيروغليفية ماينبئ بذلك ، وأن هدفه أن تمنحه عن عمله هذا (حياة طيبة سعيدة) - المصدر نفسه ص ٤٧٥ .

وقد احتفظت الشعائر اليومية العادية فى المعابد الأوربية لإيزيس بالصيغ القديمة التى كانت لها فى مصر ، وفى الصباح الباكر كان مرتل المعبد يخطو عتبة المعبد ، ويوقظ الإله ، باللغة المصرية القديمة ، بنفس أنشودة الصباح : (إنك تصحو فى سلام ، وصحوك لطيف) ، التى كانت تنشد آلاف من سنين خلت ، لمثل هذا الغرض ، ثم كانت تلى ذلك الشعائر المعتادة القديمة ، من تطهير الإله بالماء ، وتبخيره ، وتكسيته ، وتزيينه ، وإطعامه .

وكما كان فى مصر ، كان هناك رؤساء كهنة ، وعرافون ، ومشرفون على لباس الإله ، وعلى المظاهر الخارجية للعبادة ، وكاتب ، ومجمع مقدس من حملة الناوروس ، وكانت النساء تأخذ بنصيب فى العبادة ، على نحو ماكان فى مصر .

وكان من الأعياد الكبيرة لإيزيس عيد نوفمبر الذى يظل ثلاثة أيام ، يمثل فيه

موت أوزيريس ، والبحث عن جثته ، ثم العثور عليه . . أما احتفال مارس الكبير فيبدأ بموكب ، فى ملابس تنكريه متنوعة ، من بينها الجندى والصياد والمبارز والفيلسوف وحمار ودبة وقرد ، فإذا استوفى الشعب متعته بهذه المساخر المضحكة يشاهد موكبا من نساء كاسيات بأثواب بيض ، ومتوجات بأزهار الربيع ، ينثرن زهراً فى الطريق ، ويسكنن عطراً ، أو يحملن أنشطا ومرايا يحركنها كأنهن يزين صفائر الإلهة .

ثم يتلو ذلك رجال ونساء معهم مصابيح ومشاعل ، ثم يأتى الموسيقيون ومعهم المزامير وجوقة من مغنين شبان ، فى ملابس بيضاء ، يغنون أغنية نظمت لهذه المناسبة . . ويتبع هذه الموسيقى الحديثة فرقة الموسيقى القديمة المقدسة ، على رأسها عازف الناي لسيرايس . . ويتبع هؤلاء جميعا الكهنة ، يحملون المصابيح والمذبح وأدوات أخرى مقدسة . . وتليهم الآلهة ، يتقدمهم أنوبيس ، ثم القرايين .

ويتجه الجميع شطر البحر ، حيث تقف على أهبة الاستعداد سفينة جميلة محلاة بصور مصرية .

ويتلو رئيس الكهنة (بِقَمْعٍ صلاتة تقية) ويطهر السفينة ، ويكرسها للإله ، ثم ينصب السارى ، ويفرد الشراع ، ويسكب الجمهور العطور فى السفينة ، وبعد ذلك تقطع حبال السفينة التى يتبعها الناس بأنظارهم حتى تختفى ، ثم يعود الموكب إلى المعبد ، ويدخل الكاهن والمكرسون غرفة الإلهة ، وبعد ذلك يخرج كاتب المعبد ، ويهتف للإمبراطور ومجلس الشيوخ والشعب الرومانى والبحارة وسفائنهم ، فيهلل الشعب ، ويُقبل قدمى تمثال الإلهة - المصدر نفسه ص ٤٧٩ / ٤٨١ .

* ويلاحظ أن كثيراً من التراتيل التى تنشد لحورس تشبه - بشكل فذ - التراتيل المسيحية ، فى روحها ، وعباراتها ، ذلك لأن المسيحية تربت فى حجر الديانة المصرية القديمة ، بصورة أو بأخرى ، فهذه التراتيل الجميلة التى مطلعها (ياشمس حياتى ، ياأيها المخلص العزيز) كانت تغنى لحورس فى مصر يوماً ما .

وإن عبادة سيرابيس التى انتشرت انتشاراً عظيماً فى جميع أقطار العالم المتمدن ، فى القرنين الثالث والرابع قبل الميلاد - ترى فيها أعجب الطلائع والظواهر المؤذنة بعبادات وطرق العبادة التى قُدر لها أن تتسلط على العالم الأوروبى ، طوال الحقبة المسيحية .

على أن ثياب الطقوس والرمز والصيغة الاصطلاحية التى اتخذتها المسيحية ، وما برحت ترتديها إلى يومنا هذا ، فى كثير من الأقطار ، قد نسجت - ولامراء - فى عقائد ومعابد جوبيتر وسيرابيس وإيزيس ، التى انتشرت عند ذلك من الإسكندرية إلى كافة أصقاع العالم الممدن ، فى القرنين الثانى والأول ق.م - معالم التاريخ الإنسانية ص ٤٦٩ .

ومع هذا ، حين قويت شوكة المسيحية ، وبخاصة بعد تأييد الإمبراطور قسطنطين لها فى القرن الرابع ، سعت المسيحية للاستئثار بالأرض التى انتشرت عليها ، فحاربت اليهودية حرباً شرسة ، كما واجهت كل المظاهر الوثنية فى المعابد اليونانية والرومانية والمصرية .

وفى الإسكندرية التى تبنت الأرثوذكسية المسيحية حدث هجوم على معبد سيرابيس سنة ٣٩١ ، وكان البابا شنودة قديس الأقباط الكبير يشيد بأنه دمر بنفسه معبد أثريب بجوار دير ، وكان هذا الصنيع قدوة للآخرين ، وقد توسل الوثنيون إليه أن يبقى على معبدهم ، لكنه طاردهم ، وأباح كل شئ فى المعبد للنهب ، ثم حمل إلى دير منه غنيمة ثمينة من أوان وتماثيل مقدسة وأسفار .

وقد أشاع المسيحيون أن كهنة أحد الآلهة ، ويدعى كونوس ، يسرقون أطفالهم ، ويلذبحونهم ، ثم ينثرون دماءهم على المذابح ، ويصنعون من أمعائهم أوتارا لقيثاراتهم ، فثار القديس مكاريوس التكوى ، وهدم معبدهم ، وأحرق بنفسه الإله كونوس وكاهنه الأكبر هوميروس . . وكان أن تنصّر فى اليوم نفسه كثير من الوثنيين خوفاً ، ولاذ كثيرون بالفرار ، فاحتل المسيحيون ديارهم - ديانة مصر القديمة ص ٤٦٢ .

واستمر تخريب المعابد المصرية على يد المسيحيين ، مع أن بعضها كانت ملاجئ لهم ، هروباً من العنف الرومانى ، وبخاصة أيام دقلديانوس .

الحضارة المصرية

- ١ -

فيما يذكرون أن التطور الإنسانى استغرق ما لا يقل عن مليون سنة ، حتى
أمكن الوصول إلى العصر الذى اتخذ فيه الإنسان أدوات تعينه على تيسير الحياة ،
سواء من الحجر أو من الشجر ، ثم من الحديد أو البرونز .

وثمة تطور فزيولوجى يقول إن إنسان ما قبل التاريخ الذى كان يعيش فى
شرقى آسيا ، قريبا من بكين الحالية ، كان مخّه أكبر من مخ الصياد الذى عاش فى
أوربا ، فى وقت لاحق بمقدار ثلثيه - فجر الإسلام ص ١٧ و ٢٦ .

وكل هذه وغيرها (تهويمات) لا تمت إلى العلم إلا من خلال كونها فروضا ،
ترجع بأولية الإنسان إلى خمسة عشر مليون عام ، أو إلى خمسة ، أو إلى
مليون ، وتعود بنشأة الحضارة إلى خمسة عشر ألف عام ، أو إلى عشرة ، أو إلى
خمس .

ويستندون فى هذه (التهويمات) جميعا إلى (نقوش) أو أدوات ، أو بقايا
إنسان وجدت هنا أو هناك ، مع أن هذه النقوش والأدوات وبقايا الإنسان التى تم
العثور عليها لا تنفى أن ثمة ما هو أقدم وأكثر دلالة لم يتم العثور عليها .

وإذا كان القرن العشرون بعد الميلاد قد بلغت فيه الحضارة الإنسانية شأوا
بعيدا ، حتى تم الحصول على أقوى الطاقات قدرة على التخريب والبناء - فإن
استخدام هذه الطاقات فى حرب كونية تقضى على المعالم الحضارية الحالية ،
يفتح الطريق أمام علماء يعثرون على مخلفات الإنسان الذى يعيش الآن فى

مجاهل استراليا ، أو فى غابات الأمازون ، أو فى وسط أفريقيا ، حيث الجبال والمستنقعات والصحارى الشاسعة ، ويكون الحكم على الإنسان من خلال هذه المخلفات حكما على ما وصل إليه التطور فى القرن العشرين . . ومن يدري فقد يتكرر الحكم إثر دورة حضارية أخرى بعد الحرب الكونية ، أو يكون أشد قسوة من (تهويماتنا) حول مخلفات طوفان نوح وما نزل بعباد وثمود وقوم لوط .

إن الفروق الزمنية فى (تهويمات) العلماء بالملايين من السنين دليل على الضبابية والعشوائية التى تتحكم فى هذه (التهويمات) . ولو أننا أخذنا فى الحسبان كبر حجم المخ وصغره ، لكانت كثرة الخلايا المخية فى رءوس الحيوانات الضخمة دليل تفوقها العقلى ، ولكانت الأسود والنمور أقرب إلى الحضارة من القطط ، ولكان الديناصور أحق بالبقاء من السحالى ، ولكانت الآلات الدقيقة أقل قدرة من الآلات الكبيرة ، من نفس النوع !!

ومن عجيب أمر العلماء أنهم لا يضعون فى حسابهم (خبر السماء) ، فيكفيهم ضلال تلك الحسابات التى تقوم على دراسة التربة أو دراسة العظام ، مع أن التربة والعظام ، التى توضع تحت مجاهرهم وفروضهم لا يمكن الحكم عليها حكماً لمرئية فيه ، لأن ثمة عوامل كثيرة زيفت أو تُزيف ما يمكن أن تبوح به من أسرار .

وحسبنا أن كثيراً من (النظريات) العلمية فى المسيرة الحضارية - منذ بداية التدوين التاريخى حتى اليوم - تقوم على أنقاض نظريات أخرى ، احتفل لها العلماء حيناً من الدهر ، ثم مالبتوا أن أهالوا عليها التراب .

* ولعل الحضارة المصرية القديمة - مع كثرة الدراسات المزودة بأعرق النقوش والنصوص والأبنية والأدوات - أكبر دليل على تلك (المتاهة) التى يحبس فيها العلماء .

يقول الأستاذ عبد القادر حمزة : (أمامى - وأنا أكتب هذه الدراسة ، مارس ١٩٤٠م - جدول بالمؤلفات التى وضعت عن مصر القديمة وتاريخها ، منذ خمسين سنة فقط ، باللغات الفرنسية والإنجليزية والألمانية والإيطالية ، يصل العدد فيه ما يقرب من ألف مؤلف ، وهذا من أمهات المؤلفات ، فكيف

بغيرها!!) - على هامش التاريخ المصرى القديم هـ ص ٣ - وكيف بمافاته الحصول عليه فى اللغات التى ذكرها ، وكيف بما هو فى اللغات الأخرى ، وكيف بما جد بعد عام ١٩٤٠م !!

وقد سبقت الإشارة إلى أن كثرة هذه المؤلفات اعتمدت على استنتاجات تنقصها الأدلة الصحيحة ، بسبب من ضياع الكثير من النصوص ، ومن صعوبة اللغة القديمة ، ومن التزييف الذى أصاب بعض النقوش .

ومع هذا كله فقد حظيت الحضارة المصرية القديمة بالاهتمام الأكبر من الدارسين ، وبالتقدير الأكبر من المنصفين . . وفى ضوء ، أو من خلال ما وصلنا من آثار ، لاملجال للشك فيها - نضع بين يدى القارئ بعض الخطوط التى قد تعينه على الثقة بالمستقبل ، بسبب من إشراق هذا الماضى .

يقول العالم الفرنسى الكبير مورى A. Moret :

(لم تجد الطبيعة - فى ذلك الوقت - على بقعة من بقاع الأرض بالخصائص اللازمة لنمو مجتمع إنسانى ، كما جادت على مصر ، ولهذا لا توجد فى أية بقعة من بقاع الأرض صناعة من صناعات عصر الحجر المصقول هى فى إتقان الصناعة التى توجد من هذا النوع فى مصر ، على أنه لم يوجد فيما بين النهرين ، ولا فى سوريا ، أى أثر للإنسان سابق على أربعة آلاف سنة قبل الميلاد ، ما خلا نقطاً قليلة فى فلسطين لم يُحدد تاريخها بعد بدقة ، ولكن يظن أنها من عصر الحجر المصقول ، وفى هذا الوقت ، أى فى حدود أربعة آلاف سنة قبل الميلاد ، نرى المصريين يدخلون فى العصر التاريخى ، من عصور المدنية) - على هامش التاريخ المصرى القديم ص ٢٧ .

ويقول العالم الأمريكى الكبير بريستيد :

(فى القرون التى تقع بين ٥٠٠٠ و ٣٥٠٠ ق.م قامت أول دولة متحضرة كبيرة فى وقت كانت فيه أوروبا ومعظم غربى آسيا لا تزال مسكونة بجماعات مشتتة من صيادى العصر الحجري) .

ويرد هذا إلى (أن وادى النيل - فى عصور ما قبل التاريخ - كان يتمتع بميزة

فريدة ، إذ لم يكن معرضاً لشدائد عصر الجليد ، بل كان منفصلاً عنها ، ومحتمياً منها بمياه البحر الأبيض المتوسط اللطيفة الواسعة الأرجاء ، على حين أن حياة صيادى العصر الحجري الأوربي فى شماله قد عاقها من التقدم الرياح القطبية واندفاع الثلوج التى لا تقاوم) .

(ولقد كان غربى آسيا على تمام النقيض من مصر ، تحوط دائرته الشمالية تلك الهضبة الجبلية الممتدة من البوسفور حتى بلاد إيران ، فكان معرضاً بدرجة عظيمة لأخطار ذويان الجليد المخربة ، وزمهرير برده القارس ، وقد ترجع قصة الطوفان العام التى ورد ذكرها فى بابل ، ثم فى التوراة ، إلى فيضان جليدى من هذا النوع ، ولقد كانت هذه القوة الطبيعية المزعجة المغيرة من هذه المرتفعات الشمالية الواقعة فى غرب آسيا نذيراً لغارات بشرية متتابعة ، كانت كذلك تنزع من هذه المرتفعات ، وتغمر الإقليم فى دورات معلومة ، فتقلب النظام الاجتماعى والحكومى القائم ، ولذلك كان التقدم البشرى فى الإقليم إذا خطا خطواته الأولى نحو التطور لا يلبث أن يعثر وتزل به قدمه ، فيرجع إلى سيرته الأولى ، فيحاول النهوض مرة أخرى ، ويعانى نفس العملية المرة بعد المرة) .

(إن هؤلاء المصريين الذين عاشوا فى مصر ما قبل التاريخ المدفونين فى أقدم الجبانات - هم وأجدادهم - كانوا أقدم مجتمع عظيم على الأرض استطاع أن يضمن لنفسه غذاء ثابتاً ، باستئناس الموارد البرية ، من نبات وحيوان ، على حين كان تغلبهم على المعادن فيما بعد ، وتقدمهم فى اختراع أقدم نظام كتابى ، قد جعل فى أيديهم السيطرة على طريق التقدم الحضارى) .

و (لا جدال فى أن التقدم السياسى والاجتماعى وتطور الحضارة البشرية بوجه عام كان ظهورها كلها فى وادى النيل ، متقدماً بعدة قرون على أمثاله فى غربى آسيا ، والحقيقة أن الحضارة فى بابل أتت متأخرة فى تطورها الدينى والاجتماعى والسياسى عن حضارة مصر ، بما لا يقل عن ألف سنة) - فجر الضمير ص ٣٠ / ٢٨ / ١٥٩ بالترتيب .

وهذه الأسباب التى اعتمدها بريستيد وغيره تتنافى مع ما يقوله فلاسفة الحضارة الغربية من أن (التحدى) هو صانع الحضارة ، وحسب (بيان) بريستيد

تصبح الحضارة فى بلاد الرافدين هى الأقدم ، وهى الأجدر بالتمجيد ، وبخاصة أنها الأسبق إلى صناعة العجلة الحربية ، وكثير من العلماء يذهب هذا المذهب ، وبخاصة أولئك الذين تخصصوا فى دراسات هذه المنطقة من العالم .

ثم إن الحديث عن الهجرات والانهيئات الجليدية تذكر بفيضان النيل الموسمى ، وبالهجرات من جميع البلاد المحيطة بمصر ، حتى من جزر البحر المتوسط ، وهى هجرات قديمة ، كانت تصل أحيانا إلى سدة الحكم .

وعلى فرض أن مصر حماها الله من هذه المؤثرات الخارجية ، فثمة جزر فى المحيطات لم يحظ أهلها بقدر حضارى ، مع أن الطبيعة أغدقت عليهم بخيراتها .

ولا يمكن الزعم بأن الشعب المصرى زوده الله بما لم يزود به الشعوب الأخرى ، لأن قضية نقاء العنصر بعيدة كل البعد عن الصواب ، وقد أشبعها العلماء طعونا .

من هنا نقتصر فى تقويم الحضارة المصرية على ما وقع لنا من آثار ، حتى تكتشف الدراسات المتواصلة أسبابا أخرى غير هذه الأسباب .

يقول الأستاذ جوستاف چيكير أستاذ المصنوعات لوجيا في جامعة نيو شاتل
الفرنسية :

(وصل العمل الفنى فى صقل الحجر المصقول - فى مصر ، حداً من الإتقان
والدقة يتعذر أن يوجد له مثيل فى أى بلد آخر ، وهذه الدقة لا تلاحظ فى أدوات
البذخ فقط ، بل تلاحظ فى الأدوات العادية أيضاً) - على هامش التاريخ المصرى
القديم ص ٢٧ .

والتقدم الصناعى رهن بالتقدم الأخلاقى ، لأن القيم الأخلاقية هى التى
تحقق الاستقرار ، وتحدد الأهداف فى إطار اجتماعى يعين على التطور والإجادة ،
أما الهدف الفردى فيزول بزوال صاحبه ، وإن التمتع فى الأفق التماعياً باهراً ،
على حين يستعين الهدف الاجتماعى بأكثر من ينبوع وبأكثر من محرك ، ويخضع
للإرادة والمصلحة العامة .

وقد لاحظ الأستاذ بريستيد (أن المصرى كان يفكر دائماً فى الأشياء المعينة
والصور المجسمة ، فهو مثلاً لا يفكر فى السرقة ، بل يفكر فى السارق نفسه ،
ولا يفكر فى الحب ، بل فى المحب ، ولا يفكر فى الفقر ، بل فى الرجل الفقير ،
وهلم جرا ، ولذلك لم ير الفساد الاجتماعى ، بل شاهد المجتمع الفاسد ، ولهذا
نهض الوزير «بتاح حتب» - وهو رجل يقوم بأعباء الوظيفة بإيمان سليم فى قيمة
السلوك الحق والإدارة الحقة - ليحقق بذلك السعادة ، وسلم إرث تلك التجربة
إلى ابنه ، وكذلك الرجل التعس ، كان رجلاً حل به الظلم الاجتماعى ، فعبر
عنه فى صورة روح يائسة ، تعبر عن يأسه وأسبابه ، وكذلك كان «إبور» رجلاً
تسكن فى نفسه الرؤية التى أدركت كلا من الفساد الفتاك بالمجتمع والحلم الذهبى
بظهور الملك الأمثل الذى يصلح كل شئ ، وكذلك أيضاً كان «الفلاح الفصيح»
رجلاً يتألم من اضطهاد الموظفين له ، ويصرخ بأعلى صوته مستغيثاً من ذلك ،
وكذلك أيضاً كانت أوامر «أمنمحات» صيغت فى قالب ملك يتألم من الخيانة
المخزية التى حدثت له ، وجعلته يفقد كل ثقة بالناس فألقى تجاربه تلك إلى
ابنه) - فجر الضمير ص ٢٣١ .

والأستاذ سليم حسن مترجم (فجر الضمير) نقل فكر بريستيد فى (مصر القديمة ج١ ص «أ» و «ب») فقال : إن المصرى (كان يفكر فى دائرة الحس ، ولا يسمح لعقله بأن يخلق فى أجواء المعقولات والمعانى ، فهو لا يؤمن بالحب ، وإن كان يقدر المحبوب ، ولا يعرف الشجاعة ، ولكنه يقدر الرجل الشجاع ، وتبعاً لطريقته هذه فى التفكير كان لابد له من أن يجسّم آلهته ويصورها ويتخذ لها من الحيوان والكائنات مظاهر يقدها ويعبدها ، مع اعتقاده بالوحدانية) .

ولا أدري كيف أسلم الأستاذ سليم حسن زمامه للأستاذ بريستيد ، دون توقف ، ودون إشارة إلى (فضيلة) السبق ؟!

إن الوحدانية أقصى ما يصل إليه العقل متجرداً من كل نوازع الحس ، فإذا كان العقل فى مذهب أكثر الفلاسفة ثمرة حسية ، فإن الوصول إلى الوحدانية ينشأ عن عملية عقلية لم تخضع لنوازع الحس ، وإنما أخضعت المدركات الحسية ، الموصوفة بالعجز ، للوصول إلى الكمال المطلق ، المتمثل فى وحدانية الإله .

ثم كيف للمصرى (لا يؤمن بالحب ، وإن كان يقدر المحبوب ولا يعرف الشجاعة ، ولكنه يقدر الرجل الشجاع) ؟!

أهذا بسبب من طبيعة الأرض والمناخ ؟ أم أن الله - سبحانه - خصّ جبلة المصرى بهذه الخصيصة (الشاذة) ؟!

أهذا (الخلط) من أجل تعليل (تجسيد الألوهية) ؟ وأى شعب لم يفعل ذلك خلال مراحل تطوره الدينى ؟ وأى شعب اليوم يخلو معتقده من عملية التجسيد ؟ إذا كان الأستاذ بريستيد استنطق لغة الصور والرسوم ، دون أن يتبين دلالتها ، وفاته الفصل بين الرموز والمعانى ، فما كان له أن يفصل بين الحب والمحبوب ، لأن كلا من بتاح حتب ، والرجل التعس ، وإبور ، والفلاح الفصيح ، لم يفصل بين الحقيقة والواقع ، لأنهما شئ واحد ، فأنا لأعرف الظلم إلا إذا وقع بى ، ومهما قيل عن التعاسة دون أن أتحسسها فى حياتى أو فى حياة الآخرين تصبح سراباً ، أو كلمة باهتة المعالم ، أما وهى واقع فإنها تتحول إلى تكوين موحش

هيب عارى المخالب والأنياب ، ولهذا قيل (الشعور بالظلم غير الظلم نفسه) ،
ما أكثر حديث الظلمة عن الظلم دون شعور به ، أو تبين لأبعاده النفسية ، وإلا
لمعوا عنه ، إنهم يتحدثون عنه وهم يشربون دماء فرائسهم ، دون أن تطرف لهم
بن ، أو تتحرك فيهم شعرة .

جاء فى خطاب لإله الشمس ، عشر عليه فى متون التواييت الخشبية التى
جع إلى العصر الإقطاعى : (لقد خلقت الرياح الأربع ليتنفس بها الإنسان مثل
صيه الإنسان مدة حياته ، ولقد خلقت المياه العظيمة ليستعملها الفقير مثل
سيد).

(لقد خلقت كل رجل مثل أخيه ، وحرمت عليه إتيان سوء ، ولكن قلوبهم
فى التى نكثت ماقلته) .

(لقد جعلت قلوبهم لا تغفل عن الغرب - الموت - ليقربوا القرابين للآلهة
محلية) .

يقول بريستيد : (إن ظهور هذه النظرية الإنسانية - التى قضت على كل
ضوارق الاجتماعية فى نظر الخالق العظيم عند خلق الناس ، وجعلهم سواسية
سام المسئولية الخلقية - يعد أمراً غريباً ، ويزيد من غرابته ظهوره ما قبل عصر
سيح - عليه السلام - بألفى سنة ، أى أنه كان معاصراً لعهد الملك حمورابى -
نوالى ١٩٠٠ ق.م - الذى سنّ فى قانونه العظيم : إن كل العقوبات والأحكام
قضائية تدرج حسب مراكز المدنيين الاجتماعية ، أو مكانة المتخاصمين
لاجتماعية) - فجر الضمير ٢٣٥ / ٢٣٦ .

هذا المثال حجة على ماذهب إليه بريستيد من قبل ، لأن الحديث عن المساواة
ان من رجل حرم المساواة فى عصر إقطاعى ظالم مستبد ، وقانون حمورابى سنّه
لك يستمد قوته من الأمراء وكبار رجال الدولة ومن الإقطاعيين . . ومن العبث
نقول : كان بوذا وتولستوى من فئة الأمراء والاقطاعيين ، ثم وقفاً إلى جانب
لحق والعدل والسلام ، وهذا أمر لا يعالج من واقع أنه (شاذ يحفظ ولا يقاس
ليه) ، بل من واقع التكوين الإنسانى الذى يصعب أن تصبّه فى قالب واحد ،
لو كان الأمر فى عالم التوائم .

إن الحدث الواحد قد يبكي إنسانا ويضحك آخر ، مع أن مصدر التلقى واحد ، لكن الاستعداد النفسي يختلف من متلق إلى آخر .

- ٣ -

يقول سبنسر عن غرفة الدفن المصرية : إنها (رمزت للكون بأسره ، فكان سقفها يمثل السماء ، وأرضيتها الأرض ، وحتى في الدولة القديمة كانت سقوف غرف الأهرامات تغطي بنجوم منقوشة ملونة ، حتى تحاكي سماء الليل ، وتشتمل زخارف سقوف مقابر ملوك الدولة الحديثة على خرائط للنجوم ، ومجموعات المعبودات النجمية ، وكتب دينية تتصل بميلاد الشمس اليومي) - الموتى وعالمهم ص ١٧٥ .

فلم اهتم المصري بهذا الرباط القوى بالنجوم حتى داخل المقبرة ، هل لأنه طمع في أن يكون أحد هذه النجوم ، بعد أن يجتاز محاكمة العالم الآخر ، كما ورد في معتقداتهم ؟ هل كان رسم خريطة للنجوم حتى لا يضل طريقه هناك ، لأن مكانه محدد بموقع معين يحتاج إلى خريطة تهديه إليه ؟ أم أن الأمر يرتبط بشيء آخر لم نهتد إلى سره ؟

لاريب في أن علاقة مصر بالنجوم ، وعلاقة بابل بالنجوم ، لاترجعان إلى السماء الصافية ، وطول النظر إليها ، وإلا كان ابن صحراء الجزيرة العربية ، وابن صحراء مصر وليبيا هو الأقدر على أن يستنبط علوم الفلك ، مع أنه وقف عند حد الاهتداء بها في الظلام ، على حين تنافس علماء مصر وبابل على إحراز قصب السبق في علوم ماتزال إلى اليوم سرّاً مغلقاً أمام كثير من العلماء .

كيف تسنى للمصري أن يقسم السنة الشمسية إلى ثلاثة فصول ، ويقسم هذه الفصول مجتمعة إلى اثني عشر شهراً ، ويقسم كل يوم إلى أربع وعشرين ساعة ؟

لقد قيل إن فيضان النيل ساعد على تقسيم السنة إلى ثلاثة فصول : فصل الفيضان (أخت أو أخى) ، يعقبه فصل انحسار المياه (بيريت أو برويه) ، ثم فصل المحصولات (شيمو أو شومى) . . فهل هذه الفصول الثلاثة تعنى أن لكل فصل زمناً محدداً في واقع الحياة المصرية ، أم أن ثمة تداخلاً يستغرق شهراً أو أقل أو أكثر ، كما هو واقع في الفصول الأربعة : الشتاء والربيع والصيف والخريف ؟

وإذا أخذنا بالأعم الأغلب ، كما يقولون ، فكيف تم تقسيم هذه الفصول

إلى اثني عشر شهرا ، ومتى كان بدء السنة ؟ قالوا : اتفق أن وصل النيل إلى إيلفنتين في اليوم الذي ظهرت فيه الشعري اليمانية قبيل شروق الشمس ، فجعلوا هذا اليوم أول سنتهم ، أول شهر «توت» ، لكن مياه النيل لايسهل تحديد وقت وصولها ، لأن مياه الفيضان لا تعرف إلا بكثرتها ، أى أنها لا تتحدد إلا برصدها في أحد الروافد القادمة من هضبة الحبشة ، لا عن طريق مقياس النيل في إيلفنتين وغيرها الذي تنذبذب حركة المياه فيه بحركة الأمطار في وسط أفريقيا ، أو فوق منابع النيل ، حيث البحيرات ، وربطوا بين أشهر السنة الاثني عشر (توت ، بابه ، هاتور ، كيهك ، طوبه ، أمشير ، برمها ، برمودة ، بشنس ، بثونه ، أبيب ، مسرى) بمطالع القمر ، وبمتابعة حركة الشمس خلال ٣٦٥ يوما أو ٣٦٦ يوما بدليل عدد الدرج في معبد دندرة ، وتلك الفجوات المطللة على كل درجة ، لتدخل منها أشعة الشمس في واحد من الـ ٣٦٥ يوما . . لكن كيف أمكن رصد هذه اللحظات سريعة التلاشى ، في مطالع الشمس ومطالع القمر ، مع أن علم العرب والمسلمين - حتى اليوم - لا يكاد يجمع على لحظات انبثاق هلال الشهر العربى ؟

وقالوا : إن المصريين أول من اخترع المزولة والساعة المائية ، لتقسيم ساعات النهار وساعات الليل ، فكيف أدركوا أن الساعة ٦٠ دقيقة ، مع أنهم قسموا الشهر إلى ثلاثة أقسام لا إلى أربعة أقسام ، وقسموا الليل والنهار قسمين متساويين ؟

وقالوا : كانوا يستعملون أنية قُمعية الشكل ، طولها ذراع تقريبا ، ومثقوبة من أسفل ، وكانت سعة الإناء وقطر الثقب قد أعدت حسابيا ، بحيث تنسكب المياه من الثقب في مدة اثنتى عشرة ساعة تماما ، وغالبا ما تزين الواجهة الخارجية للإناء أشكال فلكية ، أو كتابات ونقوش تتعلق بأشكال رسمت أفقيا . . وكان هناك اثنا عشر شريطا رأسيا يفصل بين الواحد والآخر أفاريز ذات عدد مساو ، رسمت عليها رموز الحياة والزمن والاستمرار ، وفيها ثقب غير عميقة ، وعلى أبعاد متساوية تقريبا ، وكان كل شريط يخصص عادة لشهر معين ، ونظرا لأن الثقوب كلها متماثلة كانت تستخدم عمليا لكل الأوقات . . وكانت المزولة تستخدم لقياس الظل ، أو لتعيين زاوية اتجاه الظل .

كل هذا جميل ، لكنه لم يتم إلا بعد الاتفاق على المسافة الزمنية للساعة ، وأن النهار اثنتا عشرة ساعة وأن الليل اثنتا عشرة ساعة ، فلم لم تكن الساعة أكثر أو أقل من ٦٠ دقيقة ، وكيف فاتهم أن كلا من الليل والنهار ، يطول ويقصر ، وأن الحدود بين النور والظلام غير ممكنة على وجه القطع ؟

* ويذكر أن علم البروج المصرى أحدث ثورة فى كنيسة عصر التنوير الأوربي ، ذلك أن هناك ثلاث نسخ للتوراة ، كل واحدة منها اعتبرت الكنيسة مقدسة : نسخة عبرية ، ونسخة سامرية ، ونسخة سبعونية ، فى الأولى يبلغ مجموع الأعمار من آدم إلى إبراهيم ٢٠٢٣ سنة ، وفى الثانية يبلغ مجموع هذه الأعمار نفسها ٢٣٢٤ سنة ، وفى الثالثة يبلغ هذا المجموع ٣٣٨٩ سنة ، أما المدة من إبراهيم إلى عيسى فهى ٢٢٠٠ سنة ، وبهذا تكون أقصى مدة قدرت من خلق الإنسان إلى رسالة عيسى هى ٥٥٨٩ سنة .

وقد أخذت الكنيسة هذه الأرقام قضية مسلّمة ، وجعلتها إحدى العقائد المقدسة ، فانتشرت فى المؤلفات الدينية ، وسرت منها إلى المؤلفات العلمية التى ألفها القسوس .

وفى سنة ١٧٩٣م كان العالم الفرنسى ديبوى Dupuis قد درس البروج التى وجدت فى بعض المعابد المصرية ، فألف كتاباً استنتج فيه من علامات هذه البروج ، ومن حساب حسبه ، أولاً : أن المصريين هم أول من اخترع رسم هذه البروج ، وثانياً : أن عمر البروج المصرية يبلغ ١٣ أو ١٥ ألف سنة قبل الميلاد ، ثم قال : (وبما أن شعبا من الشعوب لا يستطيع أن يخترع هذه البروج فى مستهل حضارته ، فالحضارة المصرية ترجع إلى أبعد من ١٥ ألف سنة) .

ثارت ضجة فى الدوائر العلمية والدينية على أثر ذبوع الخبر عن بروج إسنا ودندرة ، وحيث انقسم العلماء إلى فريقين : فريق يقول إن الآثار المصرية تثبت أن خلق الإنسان أقدم من الزمن الذى حددته التوراة ، وفريق يتمسك بالتوراة ويدافع عنها .

وكانت صيحة شامبليون أن (دراسة الآثار والكتابات والعلوم المصرية تهدم الأسس التى تقوم عليها الديانة ، وتدمر سلطان التوراة) .

وتشجع الأب ميشيلايغ لانسي ، فجعل يطبع كراسات يلحن فيها مصر
وعلموها ، لأنها شوشت الأذهان ، وأوقعت أوربا فى حرب فكرية كانت فى
غنى عنها ، ووصف الكتابات المصرية بأنها كاذبة ، ووصف قراءة شامبليون
للكتابة الهيروغليفية بأنها تلفيق .

وفى ٢٥ مارس ١٨٢٥م كتب شامبليون إلى أخيه يقول : (أقول لك ، فيما
بينى وبينك ، إننى حصلت على نتائج ، هى مربكة إلى الحد الأقصى ، من وجوه
عدة ، ولذا يجب إبقاؤها فى الكتمان ، وهذه النتائج لم تخالف فى شئ ماكنت
أتوقعه ، وماكان يتوقعه معى « فورى » ، وقد تجلت أمامى أشياء كثيرة كانت
تردد فى نفسى تردداً مبهماً ، فصارت الآن عندى من الحقائق التى لايتطرق
إليها الشك) .

وفى سنة ١٨٦٣م ترجم إيمانويل دى روجى بعض الأوراق البردية التى فى
متحف برلين ، وأشار إلى الذين يرون بنية حسنة أن أرقام التوراة سور لايصح
تخطيه ، ثم قال : (إن مبادئنا لاتسمح لنا بأن نتهم المسيحية بأنها تتزعزع أركانها
من جراء تقدم علم أيا كان ، ونحن على تمام اليقين من أن سلسلة التواريخ
المصرية ، مهما يكن القدم التى تنقلنا إليه ، ستأخذ مكانها فى العلم الحديث ،
بجانب العلم الذى يبحث فى القوانين الخاصة بسير الكواكب ، وبجانب العلم
الذى يبحث فى كيفية تكوين طبقات الأرض ، من غير أن يكون ذلك مسيئاً إلى
الإيمان المسيحى) .

وتحت ضغوط الحملات العلمية عادت الكنيسة إلى التوراة ، تُرجع البصر
فيها ، ففكرت ، ثم اهتمت إلى أنها أخطأت فى اعتبارها تلك الأرقام التى فيها
مقدسة .

أولاً : لأن الاختلاف بين النسخ الثلاث ينفى القداسة .

ثانياً : لأن التوراة حينما تقول إن فلانا وكذا فلانا لا يكون مرادها أن الثانى ولد
للأول ، من غير أن يكون بينهما جيل أوأجيال ، بل المراد أن الثانى من نسل
الأول ، وقد يكون حفيداً ، أوأبعد من حفيد .

وكان هذا التراجع ثمرة معركة حامية شغلت أوروبا من سنة ١٧٩٣ إلى سنة ١٨٨٠ م - على هامش التاريخ المصرى القديم ص ٤١ / ٥٠ .

- ٤ -

هناك ملمس دقيق يعبر عن الفطنة المصرية منذ زمن بعيد .

روى أن المقابر الأولى بسيطة وساذجة ، فلم تعد حفرًا دائرية أو بيضاوية ضحلة ، يوضع فيها المتوفى في وضع القرفصاء ، بحيث تطوى ساقاه على صدره ، فتلامس الذقن الركبتين ، وتثنى يداه أمام وجهه - الموتى وعالمهم في مصر القديمة ص ٢٧ .

معنى هذا أن المصريين ربطوا بين الجنين في بطن أمه وبين البعث ، فالمتوفى يكون في قبره بمثابة الجنين في الرحم ، حتى إذا حان حينه خرج إلى الحياة الآخرة بمثابة ميلاد جديد .

وبرسوخ هذا المعتقد والتسليم به أخذ الدفن شكلاً طويلاً يتناسب مع طبيعة التابوت ، لأن التابوت وغرفة الدفن صاراً يستخدمان لهدف إضافي هام ، وهو تدوين معالم الحياة الآخرة ، ورسم محطات العبور فيها ، وإشارات المرور ، وتزويد المتوفى بكل احتياجاته حتى لا يضل ، وحتى إذا أراد الاستعانة بشيء وجده .

من هنا (يستطيع المرء أن يصحب صاحب المقبرة على جدران قبره في طريقه للتفتيش على الخبازين وصانعي الجعة وعاصري العنب والطباخين والنحاتين والنجارين والصناع ، أو يجلس معه يستمتع بالموسيقى والرقص ، أو يشاركه لعبة الدامة ، وقد تتسلل بعض التفاصيل المجونية أحياناً إلى هذه الصور ، فنرى قرداً ينفش ريش الكركى ، أو بعض ساق خادم) - مصر الفراعنة ص ١١٠ .

إنها ليست وسيلة لربط الحياة الدنيا بالحياة الآخرة ، على طريق التعزية والتلهى فقط ، بل إن تصور الآخرة لا يمكن تحقيقه إلا من خلال الخيال ، والخيال لا يمكن تكوين صورة لما يجهل إلا من خلال جزئيات ما يعلم . . والكتب السماوية - في حديثها عن الجنة والنار - لجأت إلى جزئيات الحياة الدنيا ، لتقرب الصورة إلى المخاطبين ، مع الإشارة إلي أن النشأة الآخرة لا نعلم عنها حتى نعلم حاجاتها ، وصدق الله في قرآنه : ﴿ وَنَشِئْكُمْ فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

وتبع التفكير فى تزويد الميت بما يحتاجه توسّع فى البناء ، حتى يفى بكل ما يملك الميت وآله من قدرات ، وبطبيعة التقليد والتنافس ، ولأن اللصوص صاروا يسطون على الأشياء التى كان يزود بها الميت - صار القبر مصطبة من الحجر ، بعد أن كان من اللبن . . (وفى الأسرتين الخامسة والسادسة ابتنى كثير من العظماء بيوتاً حقيقية فى مصاطبهم . . . فمقبرة «رع ور» مدير قصر الملك «نفر ٠ إر - كا رع» - ٢٥٢٩ / ٢٥٢٧ ق.م - كانت تحوى أكثر من خمسين حجرة وبهواً وممرًا ، ومابقى من أجزاء تماثيله يؤكد أنه كان فيها أكثر من مائة ، ولو قارنا قبر «رع ور» بقبور أبناء سنفرو أو خوفو أو خفرع لرأيناه يفوقها فى عدد الحجرات أو الردهات وفخامة المبانى) - مصر الفرعونية ص ١٣٦ - (ومقبرة «مررو كا» وزير الملك «بيبي» - حوالى سنة ٢٣٧٥ ق.م) - كانت تحتوى على ما لا يقل عن إحدى وثلاثين غرفة ، خُصص منها واحدة وعشرون غرفة للميت نفسه ، وست غرف لزوجيه ، وأربع لابنه ، ثم ماذا من الصور لم يصور فى مثل هذه المقابر ؟ لقد صورت فيها زراعة الأرض ، وتربية الماشية ، وصيد الحيوان والطيور ، كما صُوِّر فيها الصنّاع ، والملاحون ، والموسيقيون ، والراقصات ، وذبح الضحايا من الحيوان ، وعصر النبيذ ، وسائر ما كان يبدو ساراً مشوقاً للطبقة الممتازة من المصريين - ديانة مصر القديمة ٢٨٤ .

* والتاريخ يتحدث عن أول مصرى اهتدى إلى البناء الحجرى ، مع أن لفظ (الأولية) لا يخضع لقانون علمى ، لأن هذا (الأول) لا ينبت من فراغ ، إنما هو حصيلة تجارب ومعارف عملت على تكوينه .

قالوا : كان أمحوتب (٢٥٤٦ - ٢٥٢٦ ق.م تقريباً) رئيس البنائين فى بلاط الملك زوسر ، وقد اشتهر بعلمه وحكمته ، بنى للملك زوسر قبراً على نمط من سبقه من الملوك - إن صحّت نسبة قبر بيت خلاف ، شمالى أبيدوس إليه - ثم فكر فى تشييد قبر آخر لسيدة فى جبانة العاصمة الشمالية ، ووضع تصميمه ليكون أفخم من أى قبر شيد من قبل ، وكانت الفكرة الجريئة فى أن يكون القبر مبنياً من كتل الحجر ، فشيّد مصطبة كبيرة من الحجر الجيرى الذى قطعه من المحاجر القريبة ، ثم كسا جدرانها بأحجار جيرية من النوع الأبيض الممتاز الذى كانوا يحصلون عليه من محاجر «طره» .

وقطع تحت تلك المصطبة ممرات وحجرات جانبية تتوسطها حجرة كبيرة ،
استخدم في تشييدها أحجار الجرانيت ، لتكون حجرة دفن الملك .

ثم عدل تصميمه الأول ، وأخذ يبنى مصطبة فوق أخرى ، وكل منها يقل في
الحجم عما تحتها ، حتى أصبح الشكل النهائي هرمًا مدرجًا ذا ست درجات ،
كلها مكسوة من الخارج بالحجر الجيري الأبيض .

وبذلك كان أمحوتب أول مهندس معمارى فى تاريخ مصر شيد قبراً يشبه
الهرم فى شكله العام ، ولم يكتف بذلك ، بل أحاط الهرم بسور كبير مشيد كله
من الحجر الجيري المقطوع من «طره» ، ارتفاعه عشرة أمتار ، وشيد داخل هذا
السور مباني عدة كان بعضها لأجل إقامة العيد الثلاثين ، والبعض الآخر كان قبراً
رمزياً فى الناحية الجنوبية ، أو معابد تتصل أيضاً بالأعياد ، كما شيد فى الناحية
الشمالية من الهرم معبدًا قامت فيه تماثيل للملك ،

وقد عرف زوسر قدر مهندسه ، فكرمه ، وأراد أن يخلده معه ، فسمح بأن
يكتب اسمه على تماثيله ، وهذا تقدير كبير ، لانظير له ، لأن الملك كان إلهًا
معبودًا من شعبه .

ولم يكن أمحوتب رئيس البنائين فحسب ، بل رئيس المثالين ، والمشرف على
الأعمال الإنشائية للملك ، كما كان حاكمًا لأحد الأقاليم ، وكان كبيراً لكهنة
الشمس فى مدينة «إيون» - هليوبوليس - وربما تولى وظيفة الوزير ، لأنها
أصبحت لقبه فى العصور التالية - مصر الفرعونية ص ٩١/٩٣ .

و أمحوتب هذا قد يحمل براءة ملوك الأهرام من الاستبداد ، لأن الملك
زوسر لم يطلب إليه أن يفعل مافعل ، إنما الرجل كان مهندساً عالمًا ، أراد توظيف
علمه وخبرته فى أمر غير مسبوق ، وأعانه الملك على تحقيق طموحه ، فزوده
بالإمكانات .

ونحن نعلم أن عملية البناء كانت تتم فى أشهر الفيضان ، أى أن عملية البناء
كانت تعد شغلًا لفراغ العاملين (ومحاربة البطالة) ، وحتى تتحقق راحة
العاملين ، بنى أمحوتب مدينة للعمال فى الجهة الغربية من الهرم ، وهى مقسمة

إلى ١١٠ قاعات ، تتسع لإيواء عدد يتراوح بين ٣٥٠٠ و ٤٠٠٠ عامل - مصر الفرعونية ص ١١٩ - وزود المدينة باحتياجات العمال .

ولو أن ثمة عسف أو استبداد ما أشاد العمال برئيس البنائين ، وجعلوا منه إلها ، ونسبوه إلى الإله بتاح ، فجعلوه ابنًا له ، وصنعوا في ذكراه أعيادًا ، بل مهرجانات ، توسلوا إليه في حل مشكلاتهم ، وقدموا له القرابين ، بل إن عبادته لم تقتصر على أبناء مدينة العمال ، فقد عبد في أماكن مختلفة ، وفي أشكال عدة ، ويبدو أن العمال بمختلف طوائفهم قدروا دوره في خدمة العمال ، وبالغوا في تكريمه ، ذلك أن الرجل لم يكن مهندسًا موهوبًا فحسب ، بل كان طبيبًا نابغة ، وقد ألف في الطب ، وكان حكيماً نابهاً ، وألف في الحكمة ، ولا شك في أن مدينة العمال استفادت من طبه وحكمته ، حتى رفعه القوم هذه الرفعة ، وحتى جاء الإغريق ليجعلوا منه أسكليبيوس إله الطب .

ونشأ عن تبادل التكريم بين أمحوتب والعمال أن كثيراً من الفراعنة حرصوا على رعاية العاملين في المحاجر والمقابر ، يؤيد هذا ما جاء في إحدى الوثائق على لسان رمسيس الثاني :

(. . . وكل واحد منكم عليه عمل شهر - بالتناوب - ولقد ملأت لكم المخازن بكل شيء ، من خبز ولحم وفطائر ، ونعال وملابس ، وكذلك العطور لتعطير رؤوسكم كل أسبوع ، ولكسائكم كل سنة ، ولأجل أن تكون أخصص أقدامكم صلبة دائماً ، وحتى لا يكون من بينكم من يمضي الليل يثن من الفقر ، ولقد عينت خلقاً كثيراً ليمونوكم من الجوع ، وكذلك خصصت سماكين ليحضروا لكم سمكاً ، وزراعاً لينبتوا لكم الكروم ، وصنعت لكم أواني واسعة على عجلة صانع الفخار ، مسوياً بذلك أوعية لتبريد الماء لكم في فصل الصيف ، والوجه القبلي يحمل لكم حباً للوجه البحري ، والوجه البحري يحمل للوجه القبلي حباً وقمحاً وملحاً وفولاً بكميات وافرة ، ولقد قمت بعمل كل هذا لأجل أن تسعدوا وأنتم تعملون بقلب واحد) - مصر القديمة ج٦ ص «ل» .

* لقد لاحظ علماء المصريات أن أهرام أبى صير تُغطى فيها جدران غرفه الدفن والدهليز بكتابات كثيرة ، سميت فيما بعد متون الأهرام . . على حين

خلت أهرام الجيزة (العملاقة) من أية كتابات ، واتهموا أصحابها بانعدام التقوى والصلاح - ديانة مصر القديمة ص ٢٧٩ .

لكنهم أمام ضخامة الأهرامات ، ولأنهم لم يجدوا فيها جثث أصحابها ، اكتفوا بالقول إنها «تُخلد أسراراً في الزمان أو الفلك أو الدين» .

وماتزال كثير من علامات الاستفهام والتعجب تصنع هالات مضيئة حول هذه العجائب الكونية ، التي استخدمت فيها (تقنيات) تعجز عنها وعن تفسيرها مفاخر الحضارة الحديثة ، حتى قيل إنه لو استخدمت أحجار الهرم الأكبر في عمل سور حول فرنسا ، لكان ارتفاعه ثلاثة أمتار ، وعرضه متراً واحداً .

لكن القضية لاتقف عند هذا الفرض (الغائم) ، بل عند الوسيلة التي تم بها نقل هذه الكتل الحجرية الضخمة ، وبالقيااس عليها كيف أمكن انتزاع حجارة المسلات من بطن الجبل ، ونقلها من جبال النوبة إلى حيث قامت في مصر السفلى والعليا .

ثم ، كيف قطع المصريون في الصخر أماكن كبيرة الحجم ، يضعون فيها سفناً كبيرة من الخشب ، لتكون تحت تصرف الملك ، عندما يقوم برحلتى النهار والليل ، مع إله الشمس « رع » ، أو عند عبور الأنهار والبحيرات في العالم الآخر؟

لقد تم العثور على عدة مراكب ، وبعد رفع الأحجار الضخمة التي سقفوا بها مكان واحدة ، تكشف أجزاء مركب كبير من الخشب في حالة جيدة ، ومعه جميع معداته من مجاديف وحبال ومقصورة للجلوس . . وطول هذا المركب ٤٣ متر ، وارتفاع مقدمته ٥ أمتار ، وارتفاع مؤخرته ٧ أمتار .

أ يكون هذا الإعداد الضخم لعدة مراكب (في الناحية الشرقية من الأهرام) من أجل رحلة الملك في الدار الآخرة حقاً ؟!

أحسب أننا نغرق في الاجتهادات حين تعوزنا الوثائق والمستندات .

* مهندس مصرى شاب اختطفه الموت قبل أن يتم بحشه (الفذ) عن أن الأهرام لم تبين لتكون قبوراً ، بل قلاعاً بدليل :

- ١ - لم يذكر هيرودوت فى كتابه عن مصر كلمة (قبر) ، أو (دفن) ، عند وصفه للأهرام ، رغم أنه أفاض فى شرح طريقة بنائها . وتكاليف هذا البناء .
- ٢ - أن ١٧ مؤرخاً عربياً ذكروا الأهرام ، ولم يشيروا إلى وجود جثة فى أى منها .
- ٣ - المؤرخ القيسى الذى يرميه أهله ومعاصروه بالكذب ذكر أنه شاهد بعينى رأسه عشرات الجثث فى أربع حجرات متقابلة داخل الهرم الأكبر ، ويمكن أن تكون هذه الجثث لمسيحيين هربوا من طغيان الرومان .
- ٤ - أهرام السودان كلها مصمته ، ليس فيها تجويف يصلح غرفة دفن .
- ٥ - مراكب الشمس لم تكن لأغراض جنازية - كما ذهب مكتشفوها - وإنما كانت قوارب يستخدمها المراقب إذا أراد الإبلاغ عن قوة مهاجمة .
- ٦ - يلاحظ أن سنفرو بنى ٣ أهرامات + واحد صغير + ٧ فى أماكن أخرى متفرقة ، ولم يدفن فى أى منها وإنما دفن فى أبيدوس .
- ٧ - أهرام الفيوم أنشئت لحماية الوادى من جهة الفيوم .
- ٨ - أثناء حكم الهكسوس قاموا ببناء بضعة أهرامات صغيرة ، استمراراً لعملية (سد الثغرات) .
- ٩ - آخر هرم فى التاريخ المصرى بناه أحمس الأول صغير جداً ، كأنه النقطة التى تأتى فى آخر الجملة الطويلة ، ولم يدفن أحمس فى الهرم ، إنما دفن فى وادى الملوك ، ووجدنا مومياءه فى العصر الحديث .
- ١٠ - الدولة الحديثة لم يبن خلالها أى هرم ، وقد دعم ملوكها الأهرام القديمة كقلاع للدفاع ، مازالت ذات أهمية لمواجهة بدو الغرب ، وسجلت الآثار زيارات من أحمس ورمسيس الثانى . . وقد تضاعف بالتدريج دور الأهرام فى عصر الخيول والمركبات .
- ١١ - الأهرام الأمريكية لم تكن قبوراً ، وقد استخدمها بناتها فى محاربة الأسبان ، ودارت حولها وفوقها معارك فاصلة انتهت بانتصار الأسبان .

١٢- لم تتكرر ظاهرة بناء الأهرام فى التاريخ المصرى الطويل ، رغم أن الديانة المصرية وإيمان الشعب بها لم يتغير تغيراً يذكر لعدة قرون ، ورغم أن مصر حكمها - بعد بناء الأهرام - ملوك كثيرون ، منهم من هو أعظم ثراء ، وأوسع نفوذاً ، وأعتى جبروتاً من خوفو وأولاده ، فلماذا ؟

١٣- أن الأهرامات كلها ، صغیرها وكبیرها ، قد بُنيت فى منطقة واحدة ، هى منطقة مصر الوسطى ، الواقعة بين منف القديمة وهضبة الأهرام ، أو شمالها ببضعة كيلو مترات ، وهى المنطقة التى تضم سقارة ودهشور والجيزة وميدوم . . إلخ .

وتتميز هذه المنطقة ذاتها بأن مجرى النيل فيها كان يتسع ويتفرق إلى عدة فروع كبيرة وصغيرة ، وأن مياه الفيضان كانت تغمر هذه المساحة الهائلة ، فتصبح بحيرة موسمية مترامية الأطراف ، لا يحدّها إلا المقطم من جهة الشرق ، وهضبة الأهرام وانحداراتها من جهة الغرب . . سطح هائل من الماء ، ولا مَعْلَم يهتدى به الملاح السائر بسفينته أو زورقه على صفحة هذه البحيرة ، ولا شئ يعينه على تحديد الاتجاه الذى يسير فيه ، أو على تمييز شماله من جنوبه ، أو شرقه من غربه ، إن كان سائراً بالليل ، قبل اختراع البوصلة .

إن جميع هذه الأهرامات قد أقيمت على الحافة بين الوادى من ناحية والصحراء الغربية من ناحية أخرى ، هذه الصحراء المنبسطة التى تشبه بدورها بحراً مترامياً من الرمال والتلال القليلة المتشابهة ، بخلاف الصحراء الشرقية الغنية بجبالها ووديانها ومعالمها الثابتة ، وبخلاف الصعيد الذى تحدد فيه المعالم بمجرى النيل وسلاسل الجبال على جانبي الوادى ، ومن ثم لم يبنوا هرمًا واحداً على الضفة الغربية للصعيد الأعلى ، فى وادى الملوك مثلاً .

إن الفيضان كان يزيل جميع المعالم والحدود التى صنعها الإنسان فى باقى شهور السنة ، وعندما كان ينحسر تبقى الأرض صفحة منبسطة خالية من العلامات ، ويحتاج الأمر إلى إعادة تحديد المعالم بعمليات مسح دقيقة ، تعتمد بالضرورة على نقطة أو عدة نقاط ثابتة ، يتم منها مقياس الأبعاد أو رصدها .

وبعد بناء الهرم الأكبر - بصفة خاصة - بدأت عملية استمرت حوالى مائتى عام ، هى بقية عمر الأسرة الرابعة والأسرة التى تلتها ، وتمت خلالها نهضة زراعية ورعوية هائلة ، تضمنت إنشاءآت العديد من مشروعات الرى الكبرى ، فى منطقة الدلتا ، من شق الترع ، وتقويم مجرى النيل ، وتسوية الأراضى ، وردم المستنقعات ، وإقامة الجسور ، وهو ماكان بالضرورة يستلزم وجود نقط معلومة الموقع والارتفاع بشكل دائم لايتغير ، تقاس منها ، أو ترصد ارتفاعات وانخفاضات وأبعاد غيرها من النقط .

١٤ - المقاسات الدقيقة التى بنيت عليها الأهرامات ، بحيث لايتجاوز الخطأ فى هذه المقاييس واحداً من ٢٥٠٠ جزء ، أو أقل من عشرة ستمترات فى طول الهرم كله ، ٢٣٦ متراً .

والخطوط البسيطة الحاسمة ، بحيث تنطبق وجوهه الأربعة على الجهات الأصلية الأربع انطباقاً لايقبل فى وقت عن مقاييس الهرم .

والنسبة بين أطوال الهرم وارتفاعه التى ضبطت بحيث تكون النسبة بين ارتفاع الهرم وطول قاعدته هى نصف النسبة الدائرية المشهورة (ط) .

أهذا كله من أجل بناء قبر ؟!

١٥ - لقد وجد الملاح أمامه منارة أو فئاراً لايتحتاج إلى أى ضوء ، يهتدى به فى سيره طول العام ، إلى المكان الذى يقصده ، دون خطأ يذكر .

ووجد المساح والمهندس نقطة ثابتة الموقع والمقاسات والاتجاه .

ووجد الفلكى نقطة واضحة غاية الوضوح ، ثابتة على الأفق ، ينسب إليها مواقع النجوم ، ومسارات الكواكب ، ودورة الشمس والقمر ، فيراقب سيرها ، ويقيس زواياها ، ويسجل أوضاعها بالنسبة إلى هذه النقطة الثابتة .

١٦ - أقيم الهرم الثانى ، وهو أصغر من سابقه ، على ربوة عالية ، فأصبحت رأسه فى نفس مستوى رأس الهرم الأكبر ، أو أعلى قليلاً ، وتحدد مكانه إلى الجنوب الغربى من الهرم الأكبر ، فأصبح قطارهما الشماليان الشرقيان واقعين على خط مستقيم واحد ، وأصبح وضع أحدهما إزاء الآخر دلالة حاسمة على الاتجاه .

ثم أقيم الهرم الأصغر إلى الجنوب الغربى من الهرم الأوسط ، ليعين الرأى على تمييز الهرم الأوسط عن الأكبر .

وبهذا انضبطت البوصلة ، بلا لبس ولا خطأ ، لتكون أعجوبة الفكر الإنسانى .

وفكرة هذه البوصلة استخدمها فن العمارة الإسلامية عند بناء المآذن العالية ، إذ يوضع فى رأس المئذنة هلال كبير ، يبدو لأول وهلة نوعاً من الزينة ، لكن إذا نظر إليه الرأى ، بحيث تكون دائرته كاملة الاستدارة ، يكون اتجاه القبلة ، ويراعى البناءون ضبطه على هذا الوضع بدقة كبيرة ، أما المساجد ذات المئذنتين ، فيضبط الخط الوهمى الموصل بين المئذنتين ، بحيث يكون عمودياً على اتجاه القبلة .

١٧- ولا يضير بعد ذلك أن يدفن فى هذه الأهرامات بانوها ، فالمساجد العريقة قصد منشؤها إلى تحقيق أغراض دنيوية وأخرية عديدة ، ليس أقلها إقامة الصلاة ، واجتماع المسلمين ، ونشر التعليم ، وإيواء المسافرين ، وجمع الصدقات ، إلخ ، وإلى جوار ذلك يدفن الملك أو السلطان أو الولى الصالح فى أحد أركانها ، تخليداً لذكراه ، وتذكيراً للناس بفضله .

فالقول بأن الهرم بنى خصيصاً ليكون قبراً للملك ، لا يقل سخفاً عن القول بأن المساجد قد بنيت لكى يدفن فيها السلاطين والأولياء ، أو أن السد العالى قد بنى لكى تنشأ خلفه بحيرة تحمل اسم جمال عبد الناصر ، أو أن قناة السويس قد شقت ليقام فى مدخلها تمثال ديليسبس .

١٨- لقد سمي القرآن الكريم الأهرامات (أوتادا) ، تسمية توحى بالثبات والرسوخ ، وامتداد الأسباب إليها ، ولم يسمها قبوراً .

١٩- زعموا أن الأهرام بناها رواد قدموا من كواكب بعيدة ، ثم رجعوا من حيث أتوا ، والثابت أن صناعة بناء الأهرام قد تطورت فى مصر على مدى حوالى ثلاثة قرون ، ابتداء من المصطبة الواحدة ، إلى المصطبتين ، إلى الهرم المدرج ، إلى الهرم الناقص ، إلى الهرم المدبب ذى الزوايا الحادة ، إلى

الهرم المفلطح ذى الزوايا المنفرجة ، حتى تكاملت ووصلت إلى ذروة الإلتقان والضخامة فى بناء الهرم الأكبر .

ثلاثمائة عام من التجربة والخطأ والتعديل والتحسين لا يستقيم لرواد الفضاء أن يعيشوها فى مصر إلا إذا تحولوا إلى مصريين - قلاع لاقبور ص ٢٤٦ / ٢٦٥ .
ويعلق المهندس الموهوب على دعاوى علماء المصر ولوجيا بقوله :

(إن كثيرا من الأفكار والتفسيرات والاستنتاجات التى تحفل بها كتب التاريخ والآثار المصرية القديمة ، والتى تبدو كما لو كانت أخطاء بشرية غير مقصودة - هى فى الحقيقة مغالطات مقصودة متعمدة ، حرص واضعوها على أن يدسوها على التاريخ المصرى القديم ، لكى يشوهوه ، ويحولوه فى نظر أبنائه - وفى نظر العالم - إلى تاريخ أمة من السفهاء والبلهاء والأذلاء ، تحكمها عصبية من الجبابة المغرورين) - المصدر السابق ص ٣٢ .

بقيت الإشارة إلى أن بناء المقابر فى الضفة الغربية للنيل لا يعنى الربط بين غروب الشمس ونهاية الحياة ، لأن هذه النظرة السطحية تتنافى مع تقدم القوم فى علوم الفلك ، وتحديد مواقع النجوم ، وتحديد مطالع الشمس خلال ٣٦٥ يوما ، وبناء الأهرامات بهذه الدقة الهندسية المثيرة . . إنما قد يرجع الأمر إلى أسباب أخرى ، مثل طبيعة التربة ، وتوفر مواد البناء ، أو ما هو مماجهل سره ، وكم فى حياة القوم ومعتقداتهم من أسرار ، وبخاصة أننا نجد أخناتون الذى حكم حوالى (١٣٥٢ - ١٣٣٦ ق.م) ، وينسب إليه توحيد العبادة لإله الشمس ، بنى مقبرته على الضفة الشرقية للنيل ، حيث أنشأ مدينة (آخت آتون) فى تل العمارنة . . وجاء على لسانه : (لسوف تقام من أجلى مقبرة فى الجبل الشرقى ، من آخت آتون ، لتكون مثواى هناك ، وكذلك مثوى الملكة نفرتيتى سيكون هناك أيضاً ، كما سيقام أيضاً هناك مثوى الأميرة مريت آتون ، فإن وافتنى المنية فى أى مدينة ، فى الشمال أو الجنوب أو الغرب أو الشرق ، فلسوف يؤتى بجثمانى لكى يدفن فى آخت آتون ، وإذا توفيت الملكة نفرتيتى فى أى مدينة ، فى الشمال أو الجنوب أو الغرب أو الشرق ، فلسوف يؤتى بها لتدفن فى آخت آتون ، وإن توفيت الأميرة مريت آتون فى أى مدينة ، فى الشمال أو الجنوب أو الغرب أو الشرق ،

فلسوف يؤتى بها لتدفن فى آخت آتون) - صناع الخلود ص ٢٣ .

ويلاحظ أن مقابر الأشراف كانت كذلك فى الضفة الشرقية ، فهل كان ذلك امتدادا للثورة الدينية على (البابوية الآمونية) ، أم أن التربة فى هذه المنطقة كانت العامل الأول فى الاختيار ؟

لو أن تغيير جهة الدفن من أمور العقيدة الجديدة لكان ثمة إشارة إلى خطأ العقيدة القديمة ، وحتى نصل إلى سبب يقينى ، أو أقرب إلى اليقين ، يمكن الاستعانة بخبر يقول : (إن تربة مصر ومناخها كانت تحفظ الجسم بعد الموت من البلى ، إلى درجة لا تتحقق فى أى بقعة أخرى من بقاع العالم) - فجر الضمير ص ٦٣ - وهذا قول لا يؤخذ (على علته) ، لأنه من المستحيل أن تتميز كل تربة مصر بهذه الفضيلة ، وبخاصة فى الدلتا أرض المستنقعات ، ثم إن التربة غربية الصحراء المصرية ، وشرقى البحر الأحمر ، لا تكاد تختلف عن التربة المصرية ، وإلى عهد قريب كانت لحوم الأضاحى تجفف على جبل «منى» ، ثم تخزن عاماً أو أكثر ، وقد رأيت القوم فى منطقة القصيم ، وسط هضبة نجد ، يفعلون ذلك ، ومع هذا لم يهتد القوم إلى (الاعتقاد الملحّ فى الحياة بعد الموت) ، أو إلى فن التحنيط .

لو أن تربة مصر ساعدت على بقاء الجثة ، لما كانت حاجة إلى التحنيط ، وكان حسب الميث أن يحفر له شق في الأرض ، ويهال عليه التراب ، أو يضاف إلى التراب ، قدر من الملح أو الجص ، ليعجل بامتصاص (الرطوبة) من جسمه ، لكن القوم - وقد تقدموا في علم الطب ، وتفوقوا في علم التشريح - اهتموا إلى أعقد العمليات (باستخراج أنسجة المخ من خلال فتحتى الأنف ، ثم الأحشاء من فتحة في جانب الجثمان ، ثم يقوم - المحنط - بتنظيف جوفه - الجثمان - بالماء ، ومعالجته بالدهون والزيوت ، ثم يغلق الفتحة بالخيوط) .

(ويقول هيرودوت : إن الجثمان يترك في ملح النطرون سبعين يوماً ، ثم يغسل ، ويغطى باللفائف ، مع أن عملية التحنيط كلها تستغرق سبعين يوماً ، يخصص جزء منها للعلاج بملح النطرون) - الموتى وعالمهم ص ١٢٥ .

التقدم الطبى إذن كان العامل الأول فى الاحتفاظ بسلامة الجسم عن طريق التحنيط ، ومهما كان جفاف التربة والمناخ فإن الدفن - من غير معالجة للأحشاء وخلايا المخ - لا يمكن أن يحمى من التعفن والتحلل وتخلُّق الديدان ، وما قد يبقى هى العظام التى يكتشف علماء الحفريات - فى أماكن مختلفة من العالم - ما يسمونه الإنسان الأول أو الديناصور ، من غير حاجة إلى مواصفات بتربة مصر ومناخها .

لقد كان التقدم الحضارى المصرى متكاملًا ، فالطب لا يمكن أن ينهض مع الإخفاق فى الهندسة أو فى الصناعة والزراعة ، أو فى الآداب والفنون ، والعلوم المادية والروحية . . إنك لا تستطيع أن تحكم على صحة إنسان من خلال جزء من أجزائه ، (فالجسد الواحد - كما يقول المصطفى عليه الصلاة والسلام - إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر) .

ولقد روى هيرودوت عن تقدم مصر فى الطب أن (الطب عند المصريين مقسم كما يأتى : كل طبيب يعالج مرضاً واحداً ، لاجملة أمراض ، والأطباء يملئون كل مكان ، فبعضهم لأمراض العيون ، وبعضهم لأمراض الرأس ، وبعضهم لأمراض الأسنان ، وبعضهم لأمراض الباطنية ، وبعضهم لأمراض

التي لا يعرف لها مكان معين) - على هامش التاريخ المصرى القديم ص ٨ - هذه شهادة رجل زار مصر بعد أن أخذ الخط الحضارى يتضاءل ، ومع هذا كان الطب يحتفظ بمظاهر شموخه ، وهو التخصص الدقيق ، وليس الممارسة العامة .

كانت أهم مراكز الطب فى المعابد ، وبخاصة معبد عين شمس ، ومعبد الإلهة (نيت) فى صالحجر ، ومعبد الإله (أنوب) فى بلدة (ليتوبوليس) ، ومعبد الإلهة (باست) - القطة - فى تل باسطة . . وكان كاهن تلك الجهة يحمل لقب كبير الأطباء . . وأقدم كتاب فى الطب يرجع تاريخه إلى عصر الملك (أوسافيس) من الأسرة الأولى .

وفى بردية سميث التى ترجع إلى عهد الدولة القديمة ، جاء فى القسم الأول منها معلومات مرتبة ترتيباً علمياً منطقياً ، فقد فحص مؤلفها الجسم الإنسانى من الرأس إلى القدمين ، ورتب مادتها بطريقة دقيقة ، وهى أوصاف طبية وبحوث عن حالات خاصة بجراحة العظام والعلاج الظاهرى .

وقد دون مؤلف هذه البردية عشر مشاهدات (حالات) عن الجمجمة ، وسبعاً عن الأنف ، وعشراً عن الفك والأذن والشفيتين ، وستاً عن الزور والرقبة ، وخمسة عن الترقوة والكتف ومشط الكتف ، وستاً عن الصدر ومقدمته ، وواحدة عن العمود الفقرى . . ومما يؤسف له أن الورقة قطعت عند هذا الحد .

والظاهر أنه كان يوجد فى مصر - فى عهد الدولة القديمة ، بل فى كل عصور التاريخ المصرى القديم - أطباء يعالجون بالطرق العلمية ، وبجانبهم طبقة ثانية من الأطباء يعالجون بالسحر والطب معاً ، وسبب ذلك طغيان العقائد الدينية ، وتدخلها فى الأمور الدنيوية ، هذا إلى تمسك المصرى بالمعتقدات القديمة الخرافية التى ورثها عن أجداده منذ عصر الأسرات ، ولاتزال آثارها باقية إلى الآن عند عامة الشعب المصرى - مصر القديمة ج ٢ ص ٣٦٦ / ٣٧٠ .

وليس من الخرافة ما ذكر من أنه (بعد تحنيط الجثة وتكفينها يجمع كل مالمسها ، اعتقاداً منهم بأن استيلاء العدو على شئ من ذلك ، وإن كان شعرة من رأس ، تعتبر سلاحاً سحرياً يؤذى المتوفى ، من أجل ذلك كانت كل الخرق

القدرة والفخار المهشم ، وماتبقى من الأملاح والخشب وعلامة الحياة ، والآلة السحرية ، تجمع كلها ، وتوضع فى نحو ٦٧ حجرة كبيرة ، ثم تختتم وتوضع فى حجرة التحنيط) - مصر القديمة ج ٣ ص ١٠١ .

إن هذا الخبر مع ماتغشيه المبالغة - يعبر عن الحرص على عدم انتشار الأمراض ، لأن هذه الأدوات الملوثة يمكن أن تكون سبباً - فى بيئة حارة - فى انتشار الأوبئة ، ولما كان من الخدم والعاملين فى المقبرة من يطعم فى هذه البقايا صيغ الخبر صيغة (خرافية) تخدم الهدف المقصود .

* وقد اعترف أعداء مصر بفضيلتها فى مجال الطب . . هذا قمبيز الذى كان يقف من مصر وآلهتها موقف الساخر المحتقر ، وقد انتهب تماثيل الآلهة والكتب من المعابد ، ليبين للفرس أى عجب استولى عليه) . . هذا القمبيز اتخذ الطبيب المصرى (اوزا - حر - رست) طبيباً خاصاً له ، وقد عرف هذا الطبيب كيف يخضد شوكة هذا القائد الفارس المتعنت ، (فبين لجلالته مقدار عظمة «سايس» ، حتى ذهب الملك الفارسى إلى معبد «نيت» ، وركع أمام سيده ، كما فعل كل ملك ، وقدم كذلك قرباناً كبيراً من كل شئ طيب إلى «نيت» العظيمة ، أم الإله ، وللآلهة العظيمة فى «سايس» .

(وفى عهد داريوس استمر هذا الطبيب الخاص يؤدى واجبه الوطنى ، فأرسله الملك إلى مصر ليعمل من جديد فى «سايس» ، فزود «بيت الحياة» ، مدرسة الكهنة ، بجملته الكتب والأدوات التى كانت تملكها وتم نهبها . . وقد شيد داريوس معبداً لآمون فى الواحة الخارجة ، وفى عهد داريوس تم هدم معبد يهود أليفانتين الذى كان شوكة فى عيون كهنة «خنوم» (ديانة مصر القديمة ص ٣٦٩ / ٣٧٠ .

وحسبُ المصريين أنهم نشروا فى العالم عادة الختان ، وغياً منهم بخطورة (القلقة) على العلاقة الزوجية ، وعلى صحة الزوج بصورة خاصة .

هذا مع أن (الليبيين - على حدود مصر الغربية ، ولهم علاقات متنوعة بالوجود المصرى - كانوا لا يختنون ، ومن ثم فإنهم كانوا يتعرضون للهوان ، بأن تقطع الأعضاء التناسلية لمن يذبح منهم - فى الحروب - وتجمع فى كومات

لتقدم للملك ، أما الشرذن والشكلس والأتاواشا والتورشا ، فكانوا يختنون كما يختن المصريون ، منذ عهود بالغة القدم ، ومن ثم لا ينالهم من الهوان ما ينال أولئك ، فيكفى بقطع أيديهم وتقديعها بدلا من أعضائهم التناسلية) - مصر الفراعنة ص ٢٩٩ .

وهذا خبر تعوزه الدقة ، لأنه لا مبرر لتمسك الليبيين بعدم الختان ، من دون بقية الشعوب المحيطة ، وعلى فرض أنهم - إباء وكبرياء - احتفظوا بهذه العادة ، فإن العدو كان يمكن أن يكتفى بقطع الأذن والأنف ، إذا أراد الاحتفاظ بدليل شجاعته وانتصاره ، وإلا فما الفرق بين قطع عضو أغلف ، وآخر غير أغلف ، مع أن النتيجة واحدة ؟

هامش ..

فى حديث الدكتور سيد كريم عن إيمحوتب (الطبيب الساحر ، إله الطب وطبيب الملك الخاص) - مجلة الهلال ، مايو ١٩٩٧م - ذكر أن إيمحوتب أتاحت له إحدى وظائفه الرسمية ، كمشرف على الصحة العامة ، النهوض بالطب فى مصر ، فأقام أول جامعة للطب بجانب معبد بتاح الرئيسى بمنف ، وجند كهنة معبد أون للإشراف وإدارة تلك الجامعة .

وأقام إيمحوتب للملك زوسر مدينة خاصة لمخازن العطاراة والنباتات الطبية ومزارعها ، أطلق عليها اسم (بوتيج) أى مخزن العطاراة ، وتحمل مدينة أبو تيج الحالية اسمها القديم ، واسم (أبو تيك) فى الألمانية واللاتينية يُطلق على الصيدليات ، كما أطلق اسم (فارماسى) - وهو من أسماء مخازن العطاراة والأدوية المصرية - على الصيدليات فى الإنجليزية والفرنسية .

ويضيف الدكتور كريم أن البحث العلمى اكتشف أن المصريين كانوا أول من استعمل الإبر الصينية فى التخدير والعلاج ، صنع بعضها من العاج ، ونقشت عليها بعض التعاويذ . . وعرف المصريون (البندول) وعلاقة أشكاله وحركته بالإشعاعات الجسمانية ، وسيطرتها . على الجسم ، فبرعوا فى استغلاله فى التشخيص والعلاج . . كما عرفوا التنويم المغناطيسى والطب الروحانى ، والطب النفسانى ، والأسرار العلمية لكل منها ، وأطلقوا على كل علم من تلك العلوم

اسم السحر ، لتبقى أسرارها بعيدة عن الفكر والممارسة .

وكان إيمحوتب يرى أنه لكي يتحقق الشفاء يجب الإيمان برب السماء ، وقال : إن الإله لا يتقاضى أجراً على ما يمنحه للبشر من نعم وهبات ، فممنع النذور التي كانت تقدم لكهنة المعابد لرضاء الآلهة ، وطلب ألا تقدم النذور إلا بعد أن يتحقق الشفاء ، فتكون تعبيراً عن الشكر والإيمان .

ويذكر جوردون تشيلد (تقدم الإنسانية ص ١٨٥) أنه كانت كتب طبية في وادي النيل ، منذ الأسرة الثالثة ، لدينا أمثلة لهذه الكتب في الفترة التي تلت الألف الثانية ق . م . أي بعد بردية إدوين سميث .

- ٦ -

يقول بيسر مونتيه : (لقد فرضت التقوى على المصريين أن يضعوا النيل فى صف الآلهة منذ أقدم العصور ، وأطلقوا عليه اسم حابى Hapi ، وصوروه فى هيئة رجل شديد الامتلاء ، له ثديان متدليان ، وبطن مكتنز ، يشده حزام ، وفى قدميه نعل ، وهذه إحدى علامات الثراء ، ويتوج رأسه إكليل من النباتات المائية ، ويداه تنشران علامات الحياة ، أو يحمل بين يديه مائدة مثقلة بالقرايين ، تكاد تختفى تحت أكوام من السمك والبط وباقات الزهور وسنابل القمح) .

(وكانت تصنع للمعبود «حابى» آلاف من التماثيل الصغيرة من الذهب والفضة والنحاس ، أو الرصاص والفيروز واللأزورد والقيشاني ، ومن مواد أخرى ، وكذلك تصنع خواتم وأقراط وتماثيل صغيرة لزوجة حابى ، واسمها «ريبت» ، وفى اللحظة التى يجب أن يرتفع فيها منسوب مياه الفيضان كانت تقدم القرايين للمعبود « حابى » فى كثير من المعابد) - الحياة اليومية فى عهد الرعامسة ص ٤٢ .

هذا الوصف التمثيلى لمآثر النيل على المصريين هو من وحى اللغة المصورة التى عرفت بها الكتابة الهيروغليفية ، بقدر ماهو من وحى الخيال المصرى الذى يجسد المعانى ، وبقدر ماهو من وحى الوجدان المصرى الذى اشتهر بالتقوى ، وبالعرفان بالجميل ، وبالسخاء فى حمد المنعم وشكره ، ومن ثم كان التأليه أيسر تعبير عن الامتنان والثناء على من هو جدير به .

ولأن فيضان النيل هو قمة مآثره ، وأبلغ مرحلة من مراحل التأثير فى حياة مصر والمصريين فقد كانت العناية بهذا الفيضان تستدعى حشد كل القوى من أجل الاستفادة منه والحيلولة دون طغيانه ، ومن أجل هذا جعلوا له مقاييس يقيسونه بها كل سنة ، فأقاموا له الأرصاد عند الحدود الجنوبية ، وسجلوا فى سجلات خاصة درجات علّوه وانخفاضه فى أوقات معينة من كل سنة ، ونقشوا هذه الدرجات على بعض حجارة المعابد .

أصبح النيل جزءاً رئيسياً من تاريخ مصر ، كما أصبحت مصر جزءاً رئيسياً من تاريخه . . ومن ثم كان الحرص على تدوين كل ما يتصل بهذا النيل من

أحداث ، وبخاصة فى الأعياد والاحتفالات التى كانت تعبر عن وفاء المصريين لوفاء النيل .

و (لو أنهم كانوا يلقون فيه عروساً كل سنة لكى يفيض ، لأشاروا إلى هذه العروس حين إشارتهم إلى الفيضان ودرجاته) .

(أضفُ إلى ذلك أن فيما دونه عن النيل ذكراً لسنى جذب ومجاعة رزئت بها مصرُ بسبب انخفاض الفيضان ، لم يذكروا فى ذلك عروساً قدمت ، أو كانت تقدم ، ولو أن هناك عروساً لوجب أن تذكر فى خلال ذكرهم تلك السنين) .

(ثم إن فيما تركه لنا المصريون وصفاً لاحتفالات دينية كانت تقام للنيل ، المرفوع إلى صف المعبودات ، وقصائد وجهها إليه الشعراء ، وأغانى تغنى به فيها المغنون . . هذه الاحتفالات والقصائد والأغانى كلها خالية من أية إشارة إلى إلقاء فتاة فيه تسمى عروس النيل ، ولو أن قصة هذه العروس صحيحة لماخلت منها) - على هامش التاريخ المصرى القديم ص ١٦ / ١٧ .

و (كانت تقام حفلة كل سنة ، فى موعد معين ، من أجل دعوة النيل إلى الفيضان . . كانت تقام فى منطقة جبل السلسلة - بين الأقصر وأسوان - وكان يحضرها الملك فى كثير من الأحيان ، فإذا لم يستطع حضرها مندوب عنه) ، وقد تم تدوين وصف كامل لكل حفل ، (وفى هذا الوصف أنه كان يذبح - على سبيل القربان للنيل - عجل أبيض وإوز وطيور أخرى ، ثم كان يلقى فيه قرطاس من البردى ، يدعى فيه النيل إلى أن يفيض ، وهذا القرطاس هو ما كان يلقى فيه ، وكان الكهنة يزعمون أن للكتابة فيه قوة سحرية) .

(وظاهر أنه لو كانت هناك عادة جارية بتقديم عروس لوجب أن تقدم فى هذه الحفلة ، ولكن واحدة من اللوحات الثلاث - التى جاء فيها ذكر هذه الحفلات - لم تشر إلى شئ يسمى عروساً تلقى أو لاتلقى ، وإنما أشارات إلى القرطاس من البردى) .

(على أن كلمة « عروس النيل » ليست اختراعاً محضاً ، بل هى كلمة كان

المصريون يقولونها ويريدون منها «أرض مصر» ، وكان معناها عندهم أن النيل
متى فاض دخل على أرض مصر كما يدخل الرجل على عروسه) - المصدر
السابق ص ٢١ / ٢٢ .

ومن المستحيل أن تبلغ مصر هذا الشأ والحضارى السامق ، ثم ترتكس خلال عشرين عاما من العذاب والقهر لتبنى مقبرة فى صورة هرم ، أو تلقى بعروس فى النيل لكى يفيض ، أو تعبد قرداً أو قطة .

إن الذين رصدوا الأفلاك ، وصنعوا التقويم ، وقاسوا الزمن ، وصنعوا الساعة ، واخترعوا الكتابة ، وبلغوا فى الطب مبلغ التخصص الدقيق ، وتفتنوا فى هندسة البناء - هم الذين أنشئوا أسطولا صغيراً ، فى عهد الملك «نكاو» ، كما روى هيرودوت - ليكتشف ساحل أفريقيا ، فنزلت السفن البحر الأحمر ، وسارت جنوباً لمدى ثلاث سنوات ، ثم عادت من بوغاز جبل طارق إلى مصر ، محملة بجميع خيرات أفريقيا ، عن طريق الموانئ التى مرت بها ، (وكان مما ذكره هؤلاء الملاحون أنهم ساروا وكانت الشمس تشرق عن يسارهم ، لكنهم وصلوا إلى نقطة أخذت بعدها الشمس تشرق عن يمينهم) .

وفى عهد «نكاو» أيضاً فكر المصريون فى توصيل البحرين الأحمر بالمتوسط ، وذلك بعمل قناة تبدأ من مكان على مقربة من الزقازيق ، حتى تصل إلى البحيرات ، فى نقطة قريبة من مدينة الإسماعيلية حالياً ، وهى قناة قديمة أنشئت على الأرجح فى أيام الدولة الحديثة ، لكنها أهملت حتى عفت آثارها) .

ويحكى هيرودوت (أن «نكاو» تحمس للمشروع ، ونفذ الجزء الأكبر منه ، لكن نبوءة أن هذه القناة ليست فى صالح مصر ، وأنه لن يستفيد منها إلا الأجانب ، وأن الآلهة تأمره بترك العمل فيها ، فانصرف عن المشروع فجأة ، لكن هذا المشروع بعينه أتمه «دارا» الفارسى لمصلحة بلاده) - مصر الفرعونية ص ٤٢٥ .

ولم يكن هذا النشاط البحرى حديث عهد فى مصر ، إذ كان للملاحة أثر فعال فى معتقدات القوم الدينية وفى شعائرهم ، فكان فى نظرهم أن الإله «رع» يسير فى الفجر فى سفينة الصباح ، وعند الغروب يسبح فى سفينة الليل ، أما النجوم فكانت تسبح فى قواربها الخاصة ، وكان للموتى قوارب لخدمتهم ، كانت توضع نماذج منها فى قبورهم .

وتدل النقوش على أن أول أسطول بحرى يرجع إلى الملك سنfro (٢٦٨٠-٢٦٥٦ ق.م) ، أول ملوك الأسرة الرابعة . . إنه فى عصر هذا الملك عاد من بلاد سوريا أربعون سفينة محملة بخشب الأرز أو فى مدى عامين صنعت عدة سفن ، طول كل منها نحو ١٠٠ ذراع ، هذا عدا ٦٠ سفينة أقل حجماً ، وما زالت كتل من أخشابه فى حالة جيدة داخل هرمه القبلى فى دهشور .

وتورط بعض المؤرخين فقال : (لابد أن الملاحة كانت تعتبر فى حيزالعدم فى عهد الفترة الأولى من تاريخ مصر ، وذلك لأن عزلة أهلها عن باقى العالم قد منعتهم من المغامرة فى عرض البحار ، وأنهم لم يقوموا بالملاحة إلا فى أواخر الأسرة الثامنة عشرة) ، ثم قال : (والسبب الذى منع المصريين أن يكونوا ملاحين عظماء هو السبب الذى حال دون عظمتهم التجارية ، وفى الوقت الذى كان فيه الفينيقيون يقومون بكل أعمالهم التجارية بطريق البحر مع جميع الدول ، كانت تجارة مصر محصورة فى بلادها ، وجعلتهم تحت رحمة الأجانب الذين كانوا يقومون بالأعمال التجارية الخارجية لهم) .

وقد فات قائل ذلك أن سكان وادى النيل - منذ أقدم العهود - قد وجدوا فى نهرهم المنقطع النظر مدرساً عظيماً يتعلمون على يديه أول درس فى الملاحة عرف فى تاريخ البشر ، فقد كانوا يعيشون طوال العام على شاطئيه الخصيبين ، وكان فيضانه السنوى يجبرهم على خوض الماء فى كل وقت ، وفى مدة الفيضان وهبوب الرياح لم تمنعهم المخاطر من اتخاذ النيل أهم طرق المواصلات ، ثم إن سواحل مصر البحرية طويلة ، وكان يوجد فى مصر موانى زاهرة ، وأساطيل هذه الموانى تقوم برحلات تجارية مع الموانى السورية . . وإذا كان المؤرخون قد وقفوا طويلاً عند الأسطول الذى وجهته حتشبسوت إلى بلاد بونت (الصومال) ، وهو يؤكد اتصال التجارة المصرية بأسواق التوابل والعطور فى أرض اليمن - فمرد ذلك إلى ندرة الأخبار التى وصلتنا ، وإلى أسلوب (الدعاية) الذى اصطنعتة حتشبسوت لأعمالها ، مع أن أول رحلة دونت إلى بلاد «بونت» هى التى أرسلها الفرعون (سحورع) ، وقد دُون فيها أنها أحضرت المر ومعدن الألكثروم والأخشاب بكميات وافرة ، بالإضافة إلى التوابل والعاج ، وغيرها من منتجات البلاد الحارة .

وقد عثر حديثاً على لوح حجري بهرم هذا الملك بأبى صير ، وجدت عليه
وم لأربع سفن عظيمة مشحونة بالأسرى الفينيقيين حولهم بحارة مصريون ،
أن ساحورع (٢٤٥٨ / ٢٤٤٦) ، ابن الأسرة الخامسة ، سَير أسطوله في
حرين الأحمر والأبيض المتوسط ، قبل حتشبسوت (١٤٧٣ / ١٤٥٨) ،
الأسرة الثامنة عشرة ، بنحو ألف عام .

وفى نقوش مقبرة بأسوان - من عهد (بيبي الثانى) - نقرأ أن (خنوم حتب)
خر قائلاً : (لقد رافقت سيدى خوى) إلى بلاد بونت إحدى عشرة مرة - مصر
- عمة ج ٢ ص ٢٢٦ / ٢٢٧ و ٢٦٠ و ٢٦٥ .

ثم إن ضخامة (مراكب الشمس) التى وجدت غربى الهرم الأكبر دليل قوى
عراقة مصر فى صناعة السفن ، مع أن أرضها لم تعرف بإنتاج الأخشاب .
* ولم تكن مصر لتمد أذرعها بعيداً عن حدودها إلا وقد وطدت أركان
كتها بجيش قوى ونظام سياسى قويم .

يقول بريستيد (تاريخ مصر ص ١٩٤) : يعتبر التقدم الحربى المصرى أقدم
عرف من نوعه فى التاريخ ، فقد قسم الجيش المصرى إلى فرق وفيالق ،
سمت قواته إلى قلب وجناحين ، فانتظم بذلك نظام المعارك الحربية ، وتمكن
مصريون من القيام بحركات الالتفاف حول أعدائهم ، وشملت معدات الحرب
خوس والنشاب والبلط ، وتمرن أفرادها على إطلاق النبال وتسديدها دفعة
حدة ، فعظمت منزلة فرقة النبال المصرية بين جيوش العالم ، ولما جلب
كسوس الخيل تزود الجيش المصرى بالعجلات الحربية ، وصار للفرعون
طبيلات لآلاف الخيول الجيدة ، كما صار له حرس كامل العدد والعدة ، له
أره الخاص ، ويتبع الملك فى غُدواته وروحاته .

روى أن سنفرو أرسل حملة إلى بلاد النوبة فى الجنوب ، ليعيد الأمن
طمأنينة إلى حدود مصر الجنوبية ، وقد عاد جيشه بسبعة آلاف أسير ، ومائتى
رأس من الثيران والأغنام . وأرسل حملات التعدين إلى شبه جزيرة سيناء ،
نى اعتبرته الأجيال إلها سامياً للمنطقة ، إلى جانب الإلهة حتحور ، والإله
يد ، لأن مقام به من تحصينات للحدود الشرقية أصبح المثل الذى يحتذى .

أما عن جَيْشَى تَحْوتَمَس الثالث ورمسيس الثانى ، وما دخل عليهما من نظم
حربية ، وفنون قتالية ، وما أتيج لهما من فتوحات مدت حدود مصر إلى أضعاف
مساحتها - فالحديث يطول ، وقد تتم مقارنات مع بعض القادة الذين نشطوا فى
المجال الحربى ، بعد ما وصلت القيادة المصرية إلى مرحلة (الاستنزاف) ، لكن ما
احتفظ به التاريخ الحضارى لمصر هو أن تحوتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م)
كان يصطحب معه فى حملاته كتاباً يؤرخون كل ما يحدث ، وإن هذا الفاتح
العظيم (أدرك أنه لن يستطيع الإبقاء على إمبراطوريته إذا لم تقم على أساس
المودة ، لهذا لم ينتقم من الأمراء الذين حاربوه ، بل قربهم وثبتهم فى وظائفهم ،
وقبل منهم الولاء بعد أن أقسموا له يمين الطاعة ، ورأى أن يأخذ معه بعض
أبنائهم ليتعلموا فى مصر مع أبنائه ، ومع أبناء كبار رجال الدولة ، ليشبوا مؤمنين
بصداقة مصر لهم ولبلادهم ، ولكى يرتبطوا منذ طفولتهم وشبابهم براوابط
الصداقة مع الأمراء المصريين ، ومع أبناء كبار الموظفين ، وبنى مدرسة فى قصره
بطيبة لهذا الشأن) - مصر الفرعونية ص ٢٧٧ و ٢٨٣ ، ومصر القديمة ج ٤
ص ٣٩٧ و ٤٠٩ .

وتجلى وعى تحوتمس الحضارى فى أنه جعل إدارة البلاد المالية والقضائية
والدينية بعيدة عن رجال الجيش ، ليتفرغوا لبناء الإمبراطورية ، لا ليتحولوا إلى
زنابير همها أكل الرحيق ، وامتصاص قدرات البلاد الاقتصادية والإدارية
والسياسية ، ولا أقول الحجر على كافة الحريات ، كما هو حادث فى جميع
الدول النامية اليوم .

لو أننا تتبعنا الجذور الحضارية لمصر لتبين لنا أن ماتم تدوينه فى النقوش الجدارية أو الحجرية ، أو فى قراطيس البردى ، أو ماعبرت عنه هياكل المعابد والأهرامات والتماثيل والمسلات - لم يكن مجرد قَدَرٍ لَحَقَ بهذه البلاد ، بسبب من الموقع أو المناخ ، إنما كان ثمرة كفاح طويل مرير ، قد يكون الموقع والمناخ ساعدا على استثماره ، لكن مما لا شك فيه أن الذين أقاموا على أرض مصر - منذ ما قبل التاريخ المدون - كانوا على مستوى التحديات الطبيعية التى ابتلوا بها ، وإلا فعلام تتحدث هذه المخلفات التى بقيت منذ العصر الحجري ١٩

سكاكين ذات حدين ، كل منهما يماثل الآخر ، وأساور ، ورءوس سهام ، كلها من الحجر الصوان ، يشهد مورجان J. De morgan أنها (ليست نافعة فقط ، بل هى أعمال فنية عجيبة ، تفوق جميع ما خلق الإنسان فى عصر الحجر المصقول فى جميع البلاد الأخرى) .

ومن مخلفات المصريين فى هذا العصر عظام وجلود وألواح من العظام ، عليها رسوم مختلفة ، تبين - كما يقول مورجان - (أن المصرى - إذ ذاك - لم يكن يوجه همه إلى صيد الحيوانات ليأكل لحمها فقط ، بل كان يوجه همه فى صيدها إلى غرض آخر هو اقتناص ما يمكن استخدامه منها ، كالكلب والغزال والخروف والثور والحمار) .

ووجدت من هذه المخلفات حبوب من الشعير والذرة والقمح ، ووجدت أسلحة محارث مصنوعة من الحجر الصوان ، فدلّت هذه وتلك على أن المصرى - فى عصر الحجر المصقول - عرف الزراعة ، واستطاع أن يستخلص منها النباتات الصالحة لغذائه من النباتات الضارة - على هامش التاريخ المصري القديم ص ٢٨ .

وتكلم دريتون عن حضارة البدارى فقال : (. . . وكان النحاس فى ذلك الوقت قليلاً ، فكان استعماله مقتصرًا على الأدوات الصغيرة ، كالدبابيس التى تستخدم لتعليق الجلود ، أو كالأبر ، أو أسنان الخطاطيف ، أو المكاشط ، أو أزاميل النجارة ، وقد عرف المصريون - فى ذلك الوقت - أنه قابل للانشاء ، وأنه

قليل الصدا ، فكانوا يصنعون منه تلك الأدوات ، لكنهم كانوا يصنعونها منه وهو على حالته الطبيعية ، وبطريقة الطرق والصقل) .

وقال كل من موري ودافى : (تَقَوُّ سَكان وادى النيل تفوقا لم يكن فى استطاعة الأمم الأخرى أن تقاومه) - المصدر السابق ص ٣٢ / ٣٤ .

ويذكر المصريون فى سجلاتهم وأساطيرهم أن العلوم قد اخترعها من نحو ثمانية عشر ألف سنة قبل الميلاد (تحت) ، إله الحكمة المصرى ، فى خلال حكمه على ظهر الأرض ، والذي طال زمانه - فى تقديرهم - ثلاثة آلاف عام ، كما أنهم يذكرون أن أقدم الكتب فى كل علم من العلوم كانت بين عشرين ألف مجلد وضعها ذلك الإله العالم .

ويرى المؤرخ المصرى مانتون الذى عاش سنة ٣٠٠ ق.م أن (تحت) وضع ستة وثلاثين ألف كتاب .

وهذه العلوم (الإلهية) أعانت المصريين - فى عهد الأسرات الأولى - على صناعة البرونز بمزج النحاس بالقصدير ، وصنعوا منه بعدئذ أدوات وآلات تفيد فى الزراعة والصناعة ، ثم مخارط وأزاميل ومثاقيب أقسى أحجار الديوريت ، ومناشير تقطع ألواح الحجارة الضخمة لصنع التوابيت ، ونحت التماثيل .

يقول بسكل : (إذا فاضلنا بين قدرة المصريين الفنية وقدرتنا نحن الآن ، تبين لنا أننا كنا - قبل اختراع الآلة البخارية - لانكاد نفوقهم فى شيء) .

ولقد كان فن الهندسة عند المصريين القدماء أرقى من كل ما عرفه منه اليونان أو الرومان ، أو حتى ما عرفته أوروبا قبل الانقلاب الصناعى ، ولم يتفوق عليهم فيه إلا عصرنا الحاضر - أبو سمبل ص ٩٥ ، ١٠٢ .

* واستمر التقدم الصناعى الفنى ، حتى إذا وصلنا إلى عهد الملك أمنحوتب الثانى (٢٠٦١ - ٢٠٢٠ ق.م) نجد مثاله (إرتى سن) مرسومًا هو وزوجته وأولاده على إحدى اللوحات ، ويفتخر بأنه كان يعرف كيف يرسم حركات التقدم والتأخر ، وحركات رسم الرجل وجسد المرأة ، وكيفية رفع الذراع عند صيد فرس البحر ، وحركات الذى يجرى ، وذكر أن غيره لم ينجح فى عمله هذا غير ابنه الأكبر - مصر الفرعونية ص ١٨٩ .

وهذا الفخر من السيد (إرتى سن) ليس بشئ إذا وضع فى الاعتبار التقدم نائق الذى أحرزته مصر فى مجالات كثيرة من العلوم والفنون والآداب . . .
نقد ذكر عن الفنان المصرى فى عهد سنفرى - أى قبل السيد (إرتى سن) بستمائة ام - وصل إلى حد لم يستطع أحد أن يتفوق عليه فى العصور التالية ، إلا فى آلات قليلة - المصدر السابق ص ١٠٤ .

وهذا فنان آخر يقول : (بالإضافة إلى أنى فنان موهوب فى فنى ، فإننى على ر من العلم يفوق المستوى المألوف . . . إنى أعرف تماماً الأوضاع الدقيقة لتمثال رجل ووقفة المرأة ، وكيف يتهيأ الرجل ليطعن بالحرية ، إننى على علم بنظرة مين الخاطفة ، بالدهشة التى تعترى الشخص الذى يستيقظ من نومه ، وبحركة إاع رامي الرمح وهو يرفع ذراعه ، ومدى ميل جسم الإنسان وهو يجرى . . .
سرف سر تركيبات لاتقوى النيران على حرقها ، ولا تستطيع المياه إذابتها) -
لحياة اليومية فى عهد الرعامسة ص ٢١٥ .

ولقد عبرت اللغة المصرية القديمة عن إجادة الفنان : نحاتا أو رساما أو اشا ، فأسمته (سعنخ) أى المحيى ، الذى يجعل الشئ يحيا ، وترتب على هذا ، الفنان كان يرسم الحيوانات والحشرات الضارة غير كاملة ، حتى لاتدب فيها حياة ، فتلحق الأذى بالموتوفى - مصر القديمة ج ٣ ص ٣٢٥ .

* ولقد انعكس التطور الفنى على جميع مظاهر الحياة . . . فبعد الكشف عن ض الطريق الموصل بين المعبد الجنازى ومعبد الوادى للملك « وناس » - آخر لوك الأسرة الخامسة - ألقى ضوء على بعض الحقائق الجنازية والاجتماعية .

كان هذا الطريق مبنياً بالحجر الأبيض ، ومسقوفاً بقطع ضخمة من نفس حجر ، فيها منافذ لإضاءة الطريق . . . وهذا السقف مزين بالنجوم ، لتمثل فيه سماء ، أما جانب الطريق فقد نقشاً بمنظر غاية فى الإتقان ، بعضها جنازى ، البعض الآخر يمثل الحياة العامة ، وحياة البلاط ، فنجد مثلاً حاملى القربان -هبون نحو الهرم ، وآلهة مختلفين يباركون الملك ، ونجد مناظر تمثل الملك وهو قبل القربان ، وأخرى وهو يحارب الأعداء ، ونشاهد رجال البلاط آتين فى ضوع يقدمون آيات الولاء للملك ، بينما يصطف رجال الجيش أمامه ، كل

يحمل لَقَبه . . ونرى مناظر الزرع والحصاد ، ونباتات كل فصل ، وجَنَى الشَّهْد ، وتوالد الحيوان ، ونشاهد صيد حيوان الصحراء غزلانا وأسودا ، والنيل وأنواع السمك ، وطيور الحقل ، وبعض السفن المحملة بالأعمدة الجرانيتية ، وقطع الكرانيش التى كانت تستعمل فى تشييد المعبد الجنازى ، وقد وضعت على زحافات ، وربطت فى أسوان ، ثم وضعت فى السفن لتكون جاهزة لإقامتها فى أماكنها بمجرد وصولها ، وعثر على صور مراكب أعظم حجماً من السفن النيلية ، فيها آسيويون أسرى ، كما كشف منظر للسوق المصرى ، وتبادل السلع وصنع الذهب ووزنه .

وعثر على تمثال الملك «ببى الأول» - الأسرة السادسة - وهو آية فى دقة الصنع ، من النحاس ، يعد أعظم الكنوز التى عثر عليها علماء الآثار .

وقد شيد «أمنمحات الأول» - مؤسس الأسرة الثانية عشرة - قصراً ، وزينه بالذهب ، وحلى سقفه بأحجار اللازورد ، وكانت أبواب حجراته من النحاس ، ومصاريع الأبواب من البرونز .

وتفنن صانعو الحلى فى خدمة أميرات هذه الأسرة ، فجمعت حليهم بين الدقة المتناهية فى الصناعة والذوق الفنى الرفيع ، وتعد مخلفات هذه الأسرة من الحلى أبرز ما تحفل به المتاحف العالمية - مصر الفرعونية ص ٢٢٦ / ٢٢٧ .

ذكروا أن مجوهرات الملكة «خنمت» تتميز بدقة فنية ، تفيد أن الفنان المصرى فى الدولة الوسطى قد صعد فى مدارج الرقى والمدنية ، حتى وصل إلى ماوصل إليه رجل القرن العشرين من حيث الإنتاج الفنى الذى ينم عن حسن الذوق والمهارة .

ومجوهرات «سات حتحور» أخت سنوسرت الثالث التى وجدت فى مخبأ فى حجرة الدفن ، تعد كنزاً لا يضارعه فى دقة الصنع إلا ما وجد فى (اللاهون) - مجوهرات خنمت - وقد وجدت صدرية للأميرة مصنوعة من الذهب ، ومرصعة بشغل دقيق من حجر الكرنالين ، وعجينة مطلية بالأزرق الفاتح والقاتم . . وتصميم رسم هذه الصدرية يشبه تصميم صدرية «نمرت» زوجة والدها ، وقد وجد مع هذه الصدرية أساور وعقود ودلائل ومخالب

أسود ، وسلوك من الخرز المصنوع من الذهب والجمشت - مصر القديمة ج ٣ ص ٢٦٤ و ٢٩٥ .

* وفي عهد أمنمحات الثالث (١٨٤١ - ١٧٩٢ ق.م) بلغت محاكاة الطبيعة الصافية حدا لم يتسنّ بلوغها إلا في عهد أخناتون ، ولاريب في أن أحسن ماوصلت إليه يد المفتن في الأسرة الثامنة عشرة يعد سوقياً إذا ما قورن بما أخرجته يد مفتن الأسرة الثانية عشرة .

أما صور الملوك المنقوشة على الجدران وتمائيلهم المنحوتة في الأحجار الصلبة فإنه - رغم تصوير أجسامهم بهيئة رسمية ، وتمثيلها حسب قواعد مرعية ثابتة منذ عهد بناء الأهرام - يدل على قوة التمثيل بدرجة لم تضارع حتى في عهد الأسرة الرابعة ، ولا يمكن للمرء أن يناقش صدق تصوير هذه الوجوه بغيرها ، فالمثال الذى صور الملك متوحتب في الدير البحرى قد وضع المثل الأول ، ثم هذا حذوه أولئك المثالون الذين أبرزوا لنا وجوه سنوسرت الأول في قفط ، وسنوسرت الثالث فى سلسلة من تمايله التى وجدت فى الدير البحرى - مصر القديمة ج ٣ ص ٣٣٤ / ٣٣٥ .

وقد دلت الحفائر الحديثة على أن المهندس الفنان سنموت أزال بعض المباني الدينية التى كانت موجودة لإقامة معبد الدير البحرى لحتشبسوت ، وقد زين الطريق الذى يتبدئ من باب المعبد شرقا إلى مسافة ٥٠٠ متر ، حتى يصل إلى باب آخر وجدت آثاره - بتماثيل «بو الهول» فى صورة الملكة نفسها على كلا الجانبين ، وكان الرواق السفلى مزينا كذلك بمثل هذه التماثيل . . وقد عثر على تماثيل الملكة فى صورة «أوزير» ، واحد منها فى النهاية القصوى من الرواق السفلى ، وآخر فى الرواق العلوى ، وفى قاعة العمد وجدت عدة كوى فيها تماثيل للملكة فى صورة «أوزير» . . وكان الرواق العلوى مؤلفاً من صنف من تماثيل «أوزير» تمتد بطول المعبد ، ويمكن رؤيتها عند العبور إلى الشاطئ الشرقى من عند معبد الكرنك .

وكانت تماثيل «بو الهول» مصفوفة على جانبي الطريق ، كل منها رابض على قاعدته التى يبلغ ارتفاعها نحو ثلاثة أمتار ، وعرضها نحو متر ، مزينة بإطارات

صُورَ عليها أسرى يرسفون فى الأغلال ، فكانت هذه التماثيل تصور أمام الناظر موكبا مترامى الأطراف ، مؤلفا من تماثيل أسود ، نرى فيها قوة الفرعون تسيطر على مدن العالم المغلوبة على أمرها ، ولاشك فى أن هذه التماثيل - حينما كان يسطع عليها ضوء الشمس - تمثل صورة رائعة لما كان لمصر من قوة خارقة للعادة فى ذلك العهد ، ولكن لانكاد نتأملها حتى ندرك أن ذلك وهم كاذب ، فإن ذلك البطل الفاتح الذى صُور فى هيئة أسد ذى لحية هو فى الحقيقة امرأة قد جلست على العرش بمساعدة شردمة من رجال البلاط ، ومن المحتمل أنها لم تر جيشاً غازياً قط ، ومع ذلك نراها مرسومة وهى تطأ الأعداء بقدميها ، حتى أولئك الآشوريين الذين يسكنون بعيداً عن مصر ، ولم تكن للمصريين علاقة بعدُ بهم .

وقد عثر على بقايا أكثر من مائة وعشرين تمثالاً من هذه التماثيل التى تصور الملكة فى صورة «بو الهول» ، لكن واحداً منها لم يكن سليماً ، إذ أمر تحوتمس الثالث بتحطيمها جميعها - مصر القديمة ج ٤ ص ٣٢٣ / ٣٢٥ .

* وفى عهد تحوتمس الرابع (١٤١١ - ١٣٩٧ ق . م) أخذ الفن المصرى يتحرر كثيراً من قيوده القديمة ، ويتجه نحو أساليب واقعية تمثل الحياة كما هى ، وتظهر مافى الطبيعة من جمال ، فكانت أكثر زخارف القصور ، بل وأدوات الزينة والأثاث ، تميل إلى الاعتماد على رسم الزهور ومختلف النباتات والحيوانات والطيور والأسماك .

واستمر تطور الفن فى عهد أمنحوتب الثالث ، ونشأت فى أيامه المدرسة الفنية التى مهدت لظهور مدرسة تل العمارنة - مصر الفرعونية ص ٣٠٣ .

ويقع معبد أمنحوتب الثالث (البرنت) بعد بحيرة مورييس بقليل . . يقول هيرودوت : وهو يفوق الأهرام ، إذ يشتمل على اثنى عشر بهُواً ، كلها مسقوفة ، ولها بوابات تقابل الواحدة الأخرى تماماً ، ست منها تتجه شمالاً ، وست تتجه جنوباً ، ويحيط بالبناء كله جدار واحد ، ويوجد فى المبنى نوعان من الحجرات ، نصفها تحت الأرض ، والنصف الآخر على سطح الأرض ، والأخيرة مبنية فوق الأولى ، والعدد الكلى لهذه الحجرات ثلاثة آلاف وخمسمائة من كل من النوعين ، (ولقد مررت بنفسى فى الحجرات العلوية ، ورأيتها بعينى رأسى ،

وما أقوله عنها هو نتيجة ملاحظتى الشخصية ، أما الحجرات السفلية فإننى أتكلم عنها حسبما سمعت ، وذلك لأننى لم أفصح فى إغراء الحراس ، ليجعلونى أشاهدها ، لأنها تحتوى على ضريح الملك الذى بنى « اللبرنت » ، كما يقصون ، ويحتوى على أضرحه التماسيح المقدسة) .

(والأمر المدهش هو أن سقف كل من هذه المساكن يتألف من حجر واحد ، وأن الطرق المسقوفة فى كل امتداداتها كانت مسقوفة بهذه الكيفية ، أى بحجر واحد عظيم الحجم جدا ، دون أن يتخلل ذلك خشب أو أى مادة أخرى وكانت الجدران مبنية من أحجار لا يقل حجمها عن ذلك) .

(وتوجد قاعات ولائم قائمة فى قمة المصادر المنحدرة ، هذا إلى بوابات ينزل منها الإنسان بواسطة سلم يبلغ عدد درجاته تسعين درجة وعمد فى الداخل مصنوعة من الصخر البروفيرى ، وصور آلهة وتماثيل ملوك وصور وحوش قبيحة . . ولا نزاع فى أن سلسلة المباني هذه تعد أعظم بناء أقيم فى مصر ، بل فى كل عصور تاريخها) .

وقد بقى (اللبرنت) يستعمل بمثابة محجر ، حتى قضى على البقية الباقية فى بناء خط حديد الفيوم ، خلال القرن التاسع عشر - مصر القديمة ج ٣ ص ٣٣١ / ٣٢٨ .

وفى هذه الأسرة الثامنة عشرة شيد أعظم وزراء مصر (رخ مى رع) قبرا هو بمثابة سجل فى تاريخ الحياة الاجتماعية والسياسية والفنية والهندسية ، بل إنه يمثل تمثيلاً حياً مملكة بأسرها ، رسمت على جدران قاعات مزاره الفسيحة الأرجاء ، فنرى على أحدها الفرعون ينصب الوزير ، ويلقى عليه خطاباً رائعاً عن مهام وظيفته ، فى حفل عظيم رسمى ، ثم نشاهده فى قاعة العدل على كرسيه ، وحوله أعوانه وكتبته على استعداد لسماع شكاي القوم والفصل فيها ، وبعد ذلك نراه فى مشهد آخر يستقبل الوفود من كل مقاطعات مصر يعرضون عليه أحوال البلاد المختلفة ، وفى منظر آخر يشرف على مشروعات الفرعون العظيمة ، من بناء معابد ووضع تصميماتها ، وتهيئة كل ما تحتاج إليه ، حتى صناعة اللبنة كان يشرف عليها ويوجه العمال فى كيفية صنعها ، كما كان يسهر على مصلحة

العمال من نساء ورجال ، ويشرف على ممتلكات الإله آمون وعبيده فى معبد الكرنك وما يتبعه من المعامل والمصانع ، ولم يترك لنا (رخ مى رع) حرفة أو صناعة إلا مثلها أمامنا تمثيلاً صادقاً بكل آلاتها ومعداتنا . . وفى مشهد آخر نجده بين أفراد أسرته فى حفل دعا إليه الأهل والخلان ، ونراه داعياً كبار موظفيه ليستأنس برأيهم فى تصريف الأمور ، وفى كل ذلك نرى الأزياء الخلابه وأنواع الطعام الفاخرة ، هذا إلى مناظر دينية خاصة بإحياء تمثاله أو موميائه فى عالم الآخرة ، وترتيب الأوقاف الخاصة بطعامه الأبدى . . وبالإضافة إلى هذا ترجم لنفسه ، ليظهر للعالم ما كان عليه من أعباء جسام ، وما اتصف به من خلق كريم ومكانة فذه - مصر القديمة ج ٤ ص (ط) .

وفى زمن الأسرة التاسعة عشرة خلّف (أبى) نَحَات آمون مقبرة فى مكان الصدق ، فى منحدر التل الواقع بعد معبد دير المدينة . . وفى ردهة هذا القبر خصص مكان ليكون حديقة للمتوفى ، ينعم فيها بكل أشجارها وماء بركتها . . وكذلك يوجد فى جنوب المدخل منضدة للقربان ، ومصطبة مستطيلة الشكل ، والدخول إلى قاعة المقبرة عبر ممر مقبب فى وسط خارجة الباب ، أما المزار فمنخفض بعض الشيء عن الممر ، ويحتوى على حجرة كانت ملونة ، ومنها يصل الإنسان إلى الحجرات الأخرى .

وعلى الجدار الغربى للمدخل من الخلف نشاهد (أبى) وزوجه يتعبدان للآلهة ، وعلى الجانب الشمالى من المدخل إلى القاعة الداخلية مثل (أبى) رافعا إحدى يديه يتعبد ويصُبُّ بأخرى ماء الطهور على كومة من الحبوب البيضاء المغطاة بالأوراق ، وتحمل زوجه فى يدها رأساً مصنوعاً من البردى ملفوفاً عليه نبات ، ويحلى جيدها بالعقود . . وعلى الجانب المقابل من المدخل نرى (أبى) يحمل موقدا للآلهة ، وعليه حمام وخبز وشحم ، وأمامه طبق كدست عليه الأزهار والفاكهة ، وإلى جواره زوجه وابنته ، ويشغل الأقارب ثلاثة جدران من الأربعة الباقية . . والجدار الجنوبى تشغله صور وليمة بكل ماتحوى من زينة الرجال والنساء والطعام والشراب والزهور والعطور . . وعلى الجدار الشرقى يظهر (أبى) والوزير وعدد من الرجال يكرمهم الفرعون ، وقد أحضرت ثيران وأسماك وأوانى الطعام والشراب لإقامة وليمة . . وعلى الجزء الثانى من هذا

الجدار صورة موكب (أبى) بكل تفاصيله ، كما يتبين بيت مجهز بالخدم والحشم ، ولما كانت بركة المنزل قد ظهرت فى الرسم ، فإن البيت قد رُفِع فى الصورة بمستوى ارتفاع البركة نفسها ، وقد صور الفلاحون بصور طبيعية ذوى أجسام نحيلة وسيقان طويلة ، وكتل الشعر على رؤوسهم ، ولحاهم مهمة ، وهم يمارسون أعمال الفلاحة ، وبخاصة النضح بالشادوف ، وغسيل الملابس . . وحديقة المنزل غنية بالأشجار والأزهار والقوارب المقدسة . . والجدار الشرقى - الجهة الشمالية - يصور حصاد الكتان ، وزراعة القمح وحصاده ، وتذريته ، وتسويق المحصول ، وعملية الشحن والتفريغ فى القوارب ، ويصور الرعاة يطلقون ماشيتهم فى الأراضى بعد الحصاد تلتقط مابقى من السنابل . . وعلى الجدار الشمالى مناظر لصيد الأسماك والطيور ، ونشاهد كذلك مصنعاً للأثاث الجنازى ، كما نشاهد محرابين مزودين بكل الأثاث اللازم ، وصور العمال الذين يقومون بصنع هذا الأثاث ، كما نشاهد جهاز (أبى) الجنازى - مصر القديمة ج ٦ ص ٥٣٤ / ٥٤٩ .

ويعد قبر (نحوى محب) من أهم الوثائق التصويرية التى تتناول العادات والأخلاق والزى والدين ، فثمة فتيات رشيقات قائمات على الخدمة فى وليمة ، وقد صورن بملابس محبوكة تجسم تفاصيل الجسم ، وأخريات عاريات .

وصاحب هذا القبر كان يعمل كاتباً فى عهد أمنحتب الثانى ، ثم جاء موظف آخر اغتصب القبر ، وهو يحمل نفس الاسم ، وتبلغ المدة التى انقضت بين بداية إقامة القبر والانهاء من زخرفته حوالى مائتى سنة ، ومن ثم احتفظ بأحداث جسام خلال هذه المدة ، فشمل أحداث أختاتون ، بالإضافة إلى تقاليد الزمن الطويل بين أمنحتب الثانى ورمسيس الثانى ، ويتمثل اختلاف التقاليد فى الملابس وموائد القرابين والولائم والاحتفالات التى تتألف فيها المغنيات والراقصات ، ومواد الزينة ، وأوانى الطعام والشراب - مصر القديمة ج ٦ ص ٥٧١ .

* وبلغت العناية بالأدوات المنزلية حداً كبيراً ، فكانت الجرار والدلاء والأوانى الفخارية والكؤوس والأقداح والقصاع تصنع من أحجار المرمر والشست والحجر السماقى ، وكانت تزين أحياناً برسوم بشرية أو حيوانية أو نباتية .

وكان بمعبد آتوم فى مدينة أون ميزان من الذهب لا مثيل له ، منذ عهد الآلهة ، وكان يعلو الميزان نسناس من الذهب يرقب عملية الوزن .

ومن هبات رمسيس الثالث السخية للآلهة مصنوعات من الذهب والفضة والنحاس واللازورد والفيروز ، وكانت أبواب المحاريب بمعابد طيبة إماماً من الذهب أو من النحاس الذى له بريق الذهب ، وكانت التماثيل مكسوة بالذهب ، وكثير من أوانى المياه المقدسة وموائد القرابين كانت من الفضة .

ومما يثير الدهشة تلك الزلج الضخمة التى تستخدم قاعدة لقلعة سورية ، وقد رسمت عليها حاميتها ، أو صور عليها بناء تهاجمه فهود ، لتقتنص طائرا جميلا حطّ فوق سقفه .

وكانت الصناديق والمقاعد ذات المساند والمقاعد المنخفضة التى لا ظهر لها هى أهم أدوات الأثاث .

* أما فخامة الفن المصرى وعظمته فتتجلّى فى التماثيل التى تقف شامخة أمام المعابد ، وفى مداخلها ، وفى الساحات الكبيرة وكانت التماثيل الصغيرة تملأ البيوت والقبور . . وكان لبعض التماثيل قواعد مزخرفة الجوانب بأزهار اللوتس والبردى والأقحوان .

لكن روعة النحت الذى عبّر بالفن المصرى باحة الخلود تتمثل فى المسلات التى تدل على ما اتسم به المصريون من صفات استثنائية ، إذ انتزعوا من المحاجر أعمدة من الجرانيت ، يبلغ طول العمود أحيانا أكثر من ثلاثين مترا ، ونقلوها من أسوان إلى طيبة ، أو إلى غيرها من المدن الرئيسية ، وشكلوا كل عمود على هيئة مسئلة ، نقشوها بالكتابة الهيروغليفية الدقيقة ، ثم أقاموها على قاعدتها ، ولم يكن يستغرق عمل المسلة زمنا طويلا - الحياة اليومية فى عهد الرعامسة ص ٢٠١ و ١٨١ .

لكن هذه الفخامة يقابلها فن الرسوم الهزلية المعبر أدق تعبير عن مَرَح الطبيعة المصرية ، واستهانتها بفداحة الأحداث ، ولعل المثل الذى يقول (شر المصائب ما يضحك) انعكاس صادق للفطرة المصرية ، التى اتخذت من الكلمة والصورة الهازلة متنفساً يفتأ حدة الضغوط النفسية ، سخرية بالفراغة المستبدّين ، أو

بأشباه الفراعنة ، وترويضاً للنفس الأبية على المراوغة والمصابرة والتماس
الرجاء .

لقد استعمل المصري القديم الرسوم الهزلية وسيلة للنقد اللاذع ، والتهكم
المشين ، وأبرز للعالم أفكاره مصورة في هيئة حيوانات ذالة على مايرمى إليه . .
وقد تناول في ذلك موضوعات كثيرة تمثل الظلم والعدل على ألسنة الحيوانات ،
مما يعيد إلى الأذهان قصص كليلة ودمنة ، ولم يفلت من يد المفتن المصري أحد ،
حتى الفراعنة أنفسهم ، فقد أظهرهم في صوره الهزلية التي تدل على السخرية
والامتهان ، فقد أخذ المصورون يمثلون الحروب ومناظرها في عهد رمسيس
الثالث وغيره بصور حيوانات بدلاً من الرجال ، وقد يكون سبب ذلك - كما
يقول الأستاذ سليم حسن - مكل الناس من الحروب في تلك الأوقات . . وفي
متحف «تورين» صورة هزلية رائعة مثل فيها فرعون كل الفيران ممتطياً عربية
تقودها الكلاب السلوقية ، وهو يهاجم جيشاً من القطط ، على حين تدوس
جياده الأعداء تحت سناكبها ، وقد احتل هؤلاء الفيران المصرية حصناً سورياً
بمنتهى البسالة والإقدام .

وكان المثال القاص يجعل السبع أو الفأر أو ابن آوى ينطق بأحاسيس
إنسانية ، يستخلص منها عظات عالمية .

وقد صور المثال ابن آوى والقط فلاحين على ظهر كل منهما حقيبة ، وعلى
كتف كل منهما عصا ، ويمشيان خلف قطيع من الغزلان .

وفي مكان آخر نجد ثورا يجلب أمام سيده قطاً قد غشه ، وقد كان نصيبه أن
يوقع عليه العقاب - بسبب بلادته - لما ارتكب من تصرف مشين مع القط ، إذ
اتهمه زورا وبهتاناً .

وفي مكان ثالث نجد جوقة موسيقية تتكون من حمار وأسد وتمساح وقرد ،
وكل منها يضرب على آلة خاصة .

كما نشاهد سبعا وغزالا يلعبان الضامة معا ، أو قطّة أنيقة وضعت زهرة في
شعرها ، وقد حدث بينها وبين إوزة خلاف ، فتضاربا ، وقد تفهقرت القطعة -

خوفا على أنافتها - مصر القديمة ج ٧ ص ٥٨٨ / ٢٨٩ .

* وكان من أبرز سمات هذه الحضارة أن ظهرت معارض عامة ، تضم كافة منتجات الصناعة المصرية ، وقد عرضت فى هذه المعارض عقود للزينة ذات صفوف متفاوتة ، ومشابك على هيئة نباتات مزهرة ، هذا بالإضافة إلى المرايا والمظلات المصنوعة من ريش ذات الأيدى الأبنوسية المطعمة بالذهب ، وبعض أدوات أخرى ، مثل رءوس طيور ذات مناقير طويلة ورقاب أكثر طولاً .

أما صانعو الدروع والعربات فقد بعثوا إلى تلك المعارض بعربات مجهزة بكل أدواتها : أطقم الخيل ، والسرج والأقواس والحراب والسياط والسيوف والدروع ذات الزرد ، وأجربة السهام والأقواس ، وجعاب البُلط والخناجر والخوذات .

وما كانت هذه المعارض لتتم لولم تكن هناك روابط بين العمال والصناع ، أشبه بالنقابات اليوم ، وإلا ما كان يتحقق (نظام للعمل) يكفل حقوق العمال ، إذ كان العمل يجرى ثمانية أيام مع راحة أسبوعية فى اليومين التاسع والعاشر ، هذا بالإضافة إلى إجازات الأعياد الدينية للآلهة الكبرى ، وكان بعضها يستمر عدة أيام . . وإلا فما كان للعمال أن يجروا على الإضراب حين تتأخر حقوقهم .

حدث فى العام التاسع والعشرين من حكم رمسيس الثالث (حوالى سنة ١١٥٨ ق.م) أن المؤن لم تصل فى موعدها ، فقام الكاتب (أمون نخت) - فى اليوم الواحد والعشرين من الشهر الثانى - بإعلان العمال بأن (قد مضى من الشهر عشرون يوما ، ولم تصل مئوتتنا من الطعام بعد) ، ثم ذهب لهذا السبب إلى المعبد الجنائزى القريب للملك (حورمحب) ، وحصل على طعام من أجل الجماعة ، ومع ذلك استمر تأخير وصول المؤن ، مما أدى إلى قيام العمال بإضراب فى الشهر السادس ، ونظموا مظاهرات أمام المعابد الجنائزية لتحوتمس الثالث ، ورمسيس الثانى ، وربما سببى الأول أيضاً ، وسجلوا موقفهم فى هذه العبارة : (لقد جئنا إلى هنا يدفعنا الجوع والعطش ، ولم تعد لدينا ملابس ، ولا دهون ولا سمك ولا خضراوات ، لتبلغوا الفرعون مولانا الطيب ذلك ،

وأرسلوا للوزير المشرف علينا لأجل أن تصلنا المثلونة) - صناع الخلود ص ٤٨
ويقال إن العمال كانوا يسمون (خدام ساحة الحق) ، كما عرفوا بأنهم (رجال
الطائفة) ، مما يفيد لونا من التكوين النقابى ، ومما يفيد تقدير المجتمع واحترامه
للدور الذى ينهضون به .

هامش ..

يقول بريستيد (تاريخ مصر ص ٥١) : المصرى بطبيعته بطىء التأثير بمحاسن
الطبيعة ، على عكس اليونانى الذى أثرت فيه محاسن بلاده أعظم تأثير (١٩) .

ثم يقول ص ٩٠ : وبلغت الفنون الجميلة درجة قريبة من الطبيعة ، بعيدة
عن الأوهام ، لم تبلغها أية بلدة أخرى فى تلك العصور القديمة .

ويقول فى ص ٩١ : وقد بذل المثالون جهدهم فى جعل التماثيل مطابقة
للأصل ، فلونوها بالألوان الطبيعية ، وصنعوا الأعين من الحجر البلورى ،
فأصبحت ملامح الحياة البادية على تماثيل العهد (المنفى) لا مثيل لها فى تماثيل أى
جيل بعد ذلك .

ويقول صاحب (كنوز الفراعنة ص ١٨٨ / ١٩٠) الذى اعتمد فى كتابه على
ما جاء فى المتاحف العالمية من آثار فرعونية : بظهور فجر الدولة القديمة كانت
مصر قد وصلت بالفعل إلى مستوى ماضى متقدم ، لم يطرأ عليه تغير يذكر حتى
العصر الرومانى .

وقد استخدمت فى صناعة الأوانى كل أنواع الحجارة تقريبا ، مثل المرمر
والبازلت والبريشة والجرانيت والصخور الرخامية ، فى الفترة المبكرة من عصر
ما قبل الأسرات ، كما استخدمت الحجارة الجيرية الأكثر نعومة منها ، وفى أواخر
ذلك العصر بدأ استخدام الشست والسربنتين والأستيديت .

وأصبح للفنان السيطرة الكاملة على كل أنواع الحجارة الصلبة وتذليلها
وتشكيلها بسهولة ، كما لو كانت من الطين أو الصلصال .

وبالمتحف البريطانى نوع ممتاز من هذه النوعية الصلبة فى زهرية من البريشة
على هيئة يمامة جالسة ، طولها من منقارها إلى ذيلها تسعة عشر سنتيمترا ،

وجسم الزهرية مفرغ لتكوين فجوة تصلح لوضع الزهور ، والفجوة عبارة عن ثقب ضيق الحافة فوق ظهر الطائر ، قطر ٥ر٢سم ، وعلى جانبي الطائر في موضعي الجناحين أذنان بارزتان بمثابة مقبضين ، يمكن استخدامها لتعليق التمثال في الحبال ، ورأس التمثال وعنقه دقيقاً التشكيل ، وعيناه مطعمتان ومصنوعتان بطريقة الثقب بأسلوب رقيق ، ومازالت إحدى العينين تحمل التطعيم ذا اللون الأزرق .

ومنذ بداية الدولة الحديثة بدأ استخدام قوارير حجرية ضخمة مرتفعة الجوانب لقياس الزمن .

الحديث عن الإضراب وتسيير المظاهرات ، من أجل الحصول على الحقوق ،
يعنى أن ثمة معايير وضمائم كانت مدونة ، أو كانت مقررّة ، وأن الشعب كان
يمارس إجراءات (قانونية) للحصول على ما له من حقوق .

ولأهمية القانون فى حياة المصريين (تخيّلوا) أن المعبودة (ماعت) هى إلهة
العدل والحق ، لذا وضعوا على تاجها ريشة نعامة ، وكانت تدل عندهم على
العدل ، وكانوا يقولون إن (تحت) نزل إلى الأرض ، ووضع لسكان وادى النيل
القواعد الأساسية للقوانين المدنية والجناية ، ومن ثم كان رب القوانين ، ورب
كل المعارف ، أول مشرع مصرى ينسج على منواله ، و (زعموا) أنه ترك كتباً فى
التشريع وفى نظم القضاء .

ولقد كانت القوانين المصرية - فى دورها الأول - ذات صبغة دينية ، غايتها
الإنصاف والعدل ، مشربة بمكارم الأخلاق ، ثم تشبعت بمسحة مدنية بعدما
ضعف نفوذ الكهنة .

ويقال إن ظهور التشريع فى مصر يرجع إلى القرن الخمسين قبل الميلاد ،
ففى هذا القرن تعلم المصريون الكتابة ، وبها تم جمع القوانين - بإرشاد من
(نحوت) سنة ٢٤١ ق. م ، ومالبت الزمان أن عبث بهذه القوانين .

ذكر الأستاذ سليم حسن أن القانون فى مصر كان مدوناً فى كتب ، وهذه
الكتب أودعت المحكمة العليا ، وبخاصة فى قاعة (حور) العظيمة ، وكانت قاعة
(حور) هى الإدارة المكلفة بتسجيل قوانين الدولة والمحافظة عليها ، ومن ثم كانت
تابعة للمحكمة العليا - مصر القديمة ج ٢ ص ٥٢ .

وقد اشتهرت (قوانين حور محب) - هذا الرجل المحنك الذى كان
(الرئيس الأعلى لمجلس الحكام ، والمنصب من الفرعون - أخناتون وتوت عنخ
آمون - رئيساً للقطرين ، والقائد الأعلى لكل جيوش الملك ، ومدير بيت
فرعون) - بأنها قوانين شاملة ، تحدد علاقة الفرد بالسلطة الحاكمة . . ولأن أفراد
الشعب كثيراً ما كانوا يتعرضون لحيف الموظفين الذين قوى نفوذهم بضعف كل

من أخناتون وتوت عنخ آمون - جعل حور محب لكل موظف يخرج عن حدود سلطته عقوبة تناسب جرمه .

وضع قانوناً صارماً يتمثل في جلد المجرم مائة جلدة ، وجرحه خمسة جروح دامية ، وسنّ قوانين للضرب على أيدي المختلسين والمرتشين . . وكان (حور محب) يقوم برحلات تفتيشية ليراقب تنفيذ الأحكام . . لم يكن سبيله إرهاب المجرمين فحسب ، بل كان يكافئ الشرفاء ، واختار طائفة من أمثال القوم للمناصب الخطيرة ، وزودهم بتوجيهاته ، وحذرهم من مخالفته .

وأسس مجالس قضائية تفصل في الخصومات ، وشدد على الالتزام بنصوص القانون - مصر القديمة ج ٥ ص ٥٩٠ . ولما تبوأ الملك بوخوريس عرش مصر (٧١٨ / ٧١٢ ق.م) أعطى للقضاء صبغة مدنية ، غير أن استيلاء الأثيوبيين على مصر ، وانتفاءهم لآمون ، أعاد للقضاء صبغته الدينية .

وفي عهد أمازيس (أحمس الثاني) - ٥٧٠ - ٥٢٦ ق.م - قضى على سلطة آمون وأعاد للقضاء صبغته المدنية .

* كان القضاة من الكهنة المتخرجين في مدارس التشريع في معابد منفيس وطيبة وأون (عين شمس) ، وكانت المحكمة الكبرى بمدينة طيبة تؤلف من ثلاثين قاضياً يختارون من كبار الكهنة المتفوقين في المسائل القانونية ، بنسبة عشرة عن كل مدينة من تلك المدن الثلاث ، وأعطيت الرئاسة لأكبرهم سناً .

وكان على معبد المدينة الذى ينتخب منه الرئيس أن يرسل إلى المحكمة قاضياً آخر ، حتى يصير عدد القضاة ثلاثين غير الرئيس .

وكان رئيس المحكمة العليا - إذا جلس للحكم - يضع فى عنقه سلسلة ذهبية ، معلقاً بطرفها حجر كريم على شكل تمثال (معات) ، وكان يوجه هذا التمثال إلى الأعضاء عندما يدلى كل برأيه ، فإذا تم ذلك نطق الرئيس بالحكم ، وكانت توضع على منصة القضاء - أثناء انعقاد الجلسات - ثمانية مجلدات تحوى كل القوانين المصرية .

وقد كثرت أنواع المحاكم عندهم بحسب اختصاصها ، فوجدت المحاكم

الأسرية التى لاتتناول إلا المسائل التى يستطيع رئيس الأسرة الفصل فيها وعلاج آثارها . . كما وجدت المحاكم المدنية ذات الدرجات الثلاث : جزئية بالمدن والقرى ، وابتدائية بعواصم الأقاليم ، واستئنافية بعاصمة الدولة . . كذلك وجدت المحاكم العسكرية ، والقضاء الإدارى الذى يتناول المنازعات بين دافعى الضرائب والجباة ، كذلك وجد القضاء الجنائى بنوعيه : العادى الذى يفصل فى قضايا الأفراد ، والآخر الذى يفصل فى الجرائم التى تمس نظام الحكم ، وكانت تتولاه محكمة خاصة ، يدخل فى تشكيلها ممثلون للجيش .

وكان القضاء الجنائى العادى على درجتين : محكمة المدينة أو الإقليم ، وتستأنف أحكامها أمام الملك ، أو مجلس خاص يعينه الملك ، ومحكمة دينية لتحرير العبيد الذين وقع عليهم ظلم فادح استدعى اللجوء إلى المعبد .

* ويذكر الأستاذ سليم حسن أن (حور محب) اعتنى بتنظيم (المجالس القضائية) ، لكنه لم يكن أول من اهتم بهذا الجانب ، ففي عهد الأسرة الخامسة حدث إصلاح كبير فى نظام العدالة ، إذ ظهرت محكمة تسمى (محكمة الستة) ، وهى المحكمة العليا فى البلاد . . كانت تحت سلطة الوزير مباشرة ، وكان له وحده الحق فى زيارتها ، وكانت تعقد جلسات مختلفة تحت رئاسة قضاة كبار يمثلون الوزير ، وكان يحيط برؤساء الجلسات مستشارون ، منهم من يلقب (رئيس الأسرار للتحقيق الخفى) ، وهم مكلفون خاصة بالتحقيق فى القضايا ، ومنهم من يلقب (رئيس أسرار الأحكام) ، وينحصر عملهم فى تحضير الأحكام التى ينطق بها الرئيس .

وكانت الإدارة القضائية تتألف من عدد كبير من الموظفين ، منهم رئيس كتبة الإدارة القضائية ، وكبار الكتاب ، وكان موظفون مكلفون بتسليم الشكاوى ، يسمون (المشرفين على العرائض) ، كانوا تحت إدارة (رئيس الكتاب المشرف على العرائض) .

وكان فى مقر الإدارة الرئيسية بكل مقاطعة جهاز إدارة على رأسه رجل ذو شأن من رجال القانون ، هذا بالإضافة إلى (محكمة السراة) التى تختص بمحاكمة الكهنة وكبار رجال الحكم . .

وتفيد الألقاب التى يحملها موظفو (محكمة الستة العليا) و (محكمة السراة) أن الإجراء واحد فى التقاضى ، وإن كان موظفو (محكمة الستة العليا) أعظم شأنًا ، وقد حددت النقوش اختصاصاتهم بكل وضوح .

كان الطلب يقدم أمام محكمة الستة العليا بصفته وثيقة مكتوبة بين يدى المشرف على الشكاوى ، أو فى قلم كتاب المحكمة ، ويؤجل أمر التحقيق إلى مستشار محقق ، يأخذ فى فحص القضايا ، ثم يحيلها إلى إحدى جلسات المحكمة ، ثم يسمع الرئيس القضية يساعده مستشاروه فى الجلسة ، وعندما يكون الموضوع دقيقا يوكل التحقيق إلى رؤساء المجلس مباشرة ، وينطق الرئيس بالحكم باسم الملك .

أما أمام (محكمة السراة) فالمدعى يرفع دعواه بتقديم عريضة مكتوبة ، يشرح فيها طلبه الذى كان يتخذ أساسا للمرافعة ، وكانت المحكمة تحكم بمقتضى (مستندات) ، لا بمجرد (المرافعة) ، حتى لا يكون للبلاغة تأثير على القاضى ، فإذا كان الموضوع خاصاً بحقوق عقارية ، فإن العقود الأصلية تكون مدار الحكم ، وكان هناك سجلات لقيد التصرفات العقارية .

يقول الوزير بتاح حنب : (إذا كنت أنت الذى يتسلم الشكوى ، فكن هادئا عندما تسمع كلام المدعى ، ولا تعامله بالقسوة ، دعه يتكلم حتى يفرغ قلبه ، وحتى يمكنه أن يقول لماذا حضر . . إن المدعى يحبّ الذى يسمع ظلامته ، حتى ينتهى من سرد السبب الذى من أجله حضر ، إن المجلس الباش يسر القلب) .

وعلى هذا يجب أن يتحلى القاضى بكثير من الفضائل حتى يستحق المكانة التى يحتلها - مصر القديمة ج ٢ ص ٥٨ / ٥٩ .

* ذكر أن بورخيس أخذ عن الكلدانيين مبدأ التعاقد بالكتابة ، ونظام الفوائد التجارية ، وحرّم الربح المركب ، وحرّم إكراه المدين جثمانيا ، وأبطل استرقاق المدين عند عدم الوفاء ، وجعل التنفيذ مقصوراً على أموال المدين لا على شخصه .

وقد اعترف بورخيس بالملكية العقارية للأفراد ، بعد أن كان لهم فقط حق

الاستغلال ، وبذلك أباح التصرف فى الأراضى بعقود عرفية ، وأصبحت الأراضى ضامنة لتعهدات الأشخاص عند عدم وفاء الدين .

أما الإيجار فقد رتب بورخيس على عقده أن تصبح جميع أموال المستأجر مرهونة رهنًا عاما لوفاء الأجر المتفق عليه .

أما بالنسبة للأحوال الشخصية فكان ينص فى عقد الزواج على العلاقة المالية بين الزوجين ، بفصل مال الزوجة عن مال الزوج ، أو أن يكون للزوجة حق التصرف فى مالها دون إذن زوجها ، أو أن يخصص قدر من مال الزوجة لمساعدة الزوج على نفقة الأسرة ، أو أن يكون الزوجان شريكين فى بعض المال أو فى كله . . . وسمح القانون للزوجة أن تشترط فى عقد الزواج أن يدفع لها الزوج مبلغًا معينًا عند الطلاق ، وأعطى لها حق الرهن العام على جميع أموال الزوج ضمانًا لما يكون لها من حقوق دون حاجة إلى النص عليه فى عقد الزواج .

وألغى بورخيس الزواج الدينى الذى كان يتم على يد الكاهن ، وأصبح الزواج مدنيًا ، واكتفى فيه بالرضا ، كباقي العقود .

وكان للذكر مثل حظ الأنثى فى الميراث ، وكان لا يجوز الزواج بأكثر من واحدة .

وجاء أماريس ففقدت الزوجة مركزها الممتاز ، وأصبحت هى ومالها ملكا لزوجها ، أخذًا بالشريعة اليهودية .

* وقد صيغت القوانين الجنائية فى مواد كفلت استتباب الأمن ، وقطع دابر البطالة ، ومنع الغش والتدليس ، إلى غير ذلك ، فكان الضرب على أيدي المفسدين ومعاقبة المجرمين عقابًا زاجرًا .

كانوا يحكمون بالإعدام شنقًا أو بقطع الرأس على كل من يحلف يمينا كاذبة أمام المحاكم ، وعلى كل من يقتل نفسًا بغير حق ، مع سبق الإصرار ، سواء أكان المجرم عليه حرام عبدا ، وعلى كل من رأى إنسانا يشرف على الهلاك ، وكان بمقدوره أن ينجيه ولم يفعل ، وعلى كل من قدر على تخليص المقتول بدون حق من القاتل ولم يخلصه ، وعلى كل من ثبت أنه يعيش بطريق غير شرعى .

وكان يحكم بالتعذيب ثم بالحرق حيا على كل من قتل أحد والديه عمداً ،
فتقطع أصابعه أولاً ثم يحرق . وكان الحكم لا ينفذ على الحبلى حتى تضع
حملها ، لأن (العقاب مقصور على المجرم لا يتعداه) .

وكانوا يسيحون إقامة الحدود على الأموات ، كما تقام على الأحياء .
ويحكمون بالجلد على من سبّ غيره أو وشى به .

وكان جزاء الآباء والأمهات الذين يقتلون أولادهم - ذكوراً أو إناثاً - معانقة
الجثة والبقاء بجانبها ثلاثة أيام بلياليها ، تحت رقابة الحراس .
وحكموا بسلّ لسان من يهدى عدواً إلى أسرار وطنه .

وكانوا يقطعون يد من يطفف فى الكيل والميزان ، أو يزيّف النقود ، أو يقلد
خاتم أحد ، أو يزور فى العقود العرفية ، أو الأوراق الرسمية .
وكان يشهر بكل ولد لم يقم بالإففاق على أبويه العاجزين عن الكسب ،
وليس للولد على والديه مثل ذلك .

ويشهر بكل جندى قر يوم الزحف ، وبكل من لم ينفذ أوامر رؤسائه .

وكانت عقوبة كل من به عاهة تمنعه من إنقاذ شخص قتله الآخرون ، ولم
يلغ السلطة عن الجريمة ومرتكيها - منع الطعام عنه ثلاثة أيام وجلده ، وكذلك
كل من كُلف بالإرشاد عن المجرمين وتسليمهم للمحكمة ، ولم يفعل .
ومن ادعى بالباطل على غيره ينفذ فيه الحكم الذى يستحقه المتهم لو صحت
الجريمة .

ومن حلف من المتهمين أو الشهود بالإله أو بالملك زورا يجدع أنفه وتصلم
أذناه ، وينفى من البلاد .

وكان الطبيب إذا اخترع نوعاً من الدواء يرفع اختراعه إلى هيئة مختصة للنظر
فيه ، ثم يطلب إلى الطبيب أن يعالج مريضه بهذا الدواء الذى اخترعه ، فإذا
شفى المريض منح الطبيب مكافأة مادية وأخرى معنوية ، بتدوين اسمه واسم
دوائه فى الدواوين الرسمية والكتب العلمية المقررة ، وإذا مات المريض بسبب
هذا الدواء حكم على الطبيب بالإعدام .

يلاحظ على بعض هذه الأحكام مُماثلتها لما جاء فى قانون حمورابى .

* وقد حفظت السجلات صوراً من التقاضى ، نذكر منها أنه - فى العام الثالث من حكم رمسيس الخامس ، حوالى سنة ١١٤٦ ق.م - قدمت السيدة (نونخت) إقرارا يتعلق بالتصرف فى ممتلكاتها فى المستقبل ، وذلك أمام محكمة تكونت من رئيس العمال (نحم موت) ، ورئيس العمال (أنحر خاو) ، وكاتب المقبرة (آمن نخت) ، والكاتب (حرشير) ، والرسام (أمنحوتب) ، والعامل (تلمونت) ، والعامل (تو) ، والرسام (بتاورت) ، والعامل (أوسرحات) ، والعامل (نب نفر) ، والعامل (آمون با حابى) ، وموظف المقاطعة (آمن نخت) ، وموظف المقاطعة (رع مس) ، والعامل (نب نفر) ابن (حومس) .

تشكيل المحكمة هنا أقرب إلى مايسمى فى أمريكا (هيئة المحلفين) ، وهو بهذا التعدد والتفرع إنما أريد به تحرى الحق والحقيقة ، فالسيدة هذه كانت قد أعدت قسمة ممتلكاتها ، حسبما تراءى لها ، ثم قام زوجها وأولادها بالقسم على احترام رغبتها ، وتم تسجيل الإجراءات بعناية ودقة على البردى ، حتى لا يكون هناك خلاف فى المستقبل .

وثمة محاكمة مشهورة وقعت فى العام السادس من حكم سيتى الثانى - حوالى سنة ١١٩٧ ق.م - حينما وقف العامل (نب نفر) ابن العامل (ناخى) أمام المحكمة ، مُتَّهماً السيدة (حوريه) بسرقة أداة ثمينة كان قد دفنها فى منزله .

استجوبت المحكمة السيدة (حوريه) : أسرقت أداة (نب نفر) ؟ حق أم بهتان؟ فأجابت (حوريه) : كلا ، لم أسرقها ، ثم سألتها المحكمة : أتقسمين قسماً مقدساً بالإله عن هذه الأداة : أنا لم أسرقها ؟ فأدت السيدة القسم المطلوب .

ولم تكتف المحكمة بهذا الإجراء ، فأرسلت عاملاً لتفتيش بيتها ، حيث عثر على الأداة المسروقة وعلى أدوات طقسية أخرى سرقت من المعبد المحلى .

وكان أن حكم على السيدة (حوريه) بالإعدام ، بسبب السرقة ، وبسبب اليمين الكاذبة والتجديف على الإله .

ولم يقف الأمر عند محاكمة أبناء الشعب ، فقد ذكرت السجلات أن زوجة (ياتوو) - لم أستطع التحقق من هذا الاسم - الخائنة حاولت قتل زوجها عدة مرات ، قبل أن يجلس على عرش مصر ، فلما تولى المملكة لم يشأ أن يقتلها ، دون تبرير هذا القتل بحكم المحكمة ، ولم يكن شئ أسهل عليه من أن ينتقم بالقتل من زوجة أئمة ، لكنه أعلنها بالحضور أمام محكمة تألفت من كبار القضاة في الدولة ، ووقف جلالته خصما نزيها لهذه الخائنة ، وتلا مذكرة الاتهام على مسامع القضاة ، ثم ترك لهم الكلمة ، فطلبوا إليها أن تدافع عن نفسها ، لكنها حثت رأسها معترفة بذنبها ، فأصدر القضاة حكما بأعدامها .

* هذا مجرد خيط من أشعة تسلفت إلى غرفة مظلمة ، أو مغلقة ، يكشف عن عظمة هذه الحضارة وإن لم يعرف بحجمها ، وذلك لأسباب كثيرة سبقت الإشارة إليها .

قال ديودور الصقلي : إن هناك خمسة ملوك مصريين سنوا قوانين لبلادهم قبل الحكم الفارسي ، وجاء في أخبار الدولة الوسطى أن أحد رجالها النبلاء قال إنه سن القانون .

وذكر بريستيد في (تاريخ مصر ص ١٩٨ / ٢٠٠) أنه بلغ من علو منزلة القانون ونزاهته أن افتخر الملوك بأنهم رجال القانون ، وكان يشترط في الحكام أن يكونوا متضلعين في القانون .

وكان المجرمون يحتجزون في سجون خاصة ، ماداموا رهن التحقيق ، فإذا صدر الحكم عليهم أرسلوا إلى سجون أخرى ينفذ فيها العقاب .

وأضاف كتشن (رئيس الثاني ص ١٨٤) صورة من القسم الذي يؤديه الشاهد أمام المحكمة : (البقاء لآمون ، والبقاء للأمير ، أقسم أن أقول الحق ، ولا أكذب ، وإذا ثبت أنني كذبت فلتبتروا أنفي وأذني ، ولترسلوني منفيًا إلى النوبة) .

ذكرنا عن انتشار الديانة المصرية فيما وقع فى دائرة الاتصال الجغرافى والسياسى ، والديانة عنصر حضارى هام تتبعه عناصر أخرى ، كلما قوى الاتصال .

وكان اليونانيون فى عهد هوميير ، وعهد بندار ، وعهد أفلاطون ، على أوثق اتصال بمصر ، وقد أقام أفلاطون فى مصر زمنا واتصل بمدارسها وكهنتها .

ونشأ عن هذا الاتصال نقل كثير من المعارف الفنية والصناعية وهندسة البناء . . يقول ديودور الصقلى : (يؤكد الكهنة المصريون - استناداً إلى كتبهم المقدسة - أنهم شاهدوا فى بلادهم أورثى - أشهر موسيقى يونانى - وموزى الشاعر الموسيقى ، وميلامپوس الطبيب والساحر ، وديدال مهندس البناء ، ثم الشاعر هوميير ، وليكورج مشرع القوانين الإسبارطى ، وصولون الأثينى واضع القوانين ، وأفلاطون الفيلسوف . . ويذكر الكهنة المصريون أيضاً فيثاغورس الفيلسوف الرياضى ، ابن جزيرة ساموس ، وإيدوكس الفلكى الرياضى ، وديمو - قريطس الفيلسوف ، ابن مدينة أبدير ، وإينوبيد العالم ، ابن جزيرة صاقز) . . ويقول ديودور : (إن إيروكس تلقى العلم على يد شونوفيس المفيسى ، وإن صولون تلقاه على يد سونشيس فى سايس - صالحجر - وإن فيثاغورس اتصل بإنوفيس فى هليوبوليس ، وكان فيثاغورس خاصة عظيم الإعجاب بالأساتذة المصريين الذين كانوا هم أيضاً معجبين به ، فحاول أن يقلد طريقهم فى كتاباتهم الرمزية السرية ، فأحاط نظرياته بالألغاز .

وفى الواقع إنه لا يوجد أى فارق بين النصوص الهيروغليفية المصرية والكثير من التعاليم الفيثاغورية) - على هامش تاريخ مصر القديمة ص ٧١ .

ولقد انتشرت فى أكثر الآداب الأوربية قصة سانتى وولده فى نزولهما إلى دار الحساب ، فهى إلى جوار أثرها فى أوديسة هوميير ، أثرت فى قصتى هوارس وفرجيل الرومانيين ، وفى رسالة الغفران لأبى العلاء ، وفى قصة تليماك الفرنسية .

والتاريخ الصادق يحدثنا أن المصريين وصلوا إلى اليونان زمن الأسرة الثامنة عشرة ، قبل نشوء المدينة اليونانية بنحو ألف سنة . . واتصل اليونانيون بعد ذلك بمصر ، وكانت لهم منطقة خاصة بهم فى شمالى الدلتا ، عامرة بالمدن . . وكان الجيش المصرى فى زمن بساماتيك الأول ، وإبريس ، وأمازيس ، وبساماتيك الثالث - مؤلفا من فرق مصرية وفرق من المرتزقة اليونان وغيرهم ، وكان ثمة قواد يونانيون .

يقول هيرودوت : (كان أمازيس يحب اليونانيين ، فأعطى بعضهم مدينة نوكراتيس ، ليقيموا فيها . . أما الذين كانوا يقصدون التجارة فقد أعطاهم أماكن يُنشئون فيها مذابح ومعابد لآلهتهم . . وقد سمح أمازيس لهم بتأليف شرطة يونانية كانت تراقب أسواق التجارة ، وتقضى بين التجار . . وكانت نوكراتيس الميناء الوحيد المفتوح للتجارة البحرية ، ولم يكن فى مصر ميناء آخر له هذه الميزة).

وكان أن أخذت المصائب تهب على مصر من طريق اليونانيين ، إذ كان (فانيس) ، قائد الجيش المصرى فى عهد بساماتيك الثالث ، ولما علم أن جيش قمبيز قادم لغزو مصر قرأ إليه ، وقابله فى سوريا ، وشجعه على غزو مصر ، ودله على الطريق فى سيناء ، واستأجر له رؤساء البدو يمدونه بالماء والجمال .

* وفى عهد دولة البطالمة أخرجت مدرسة الإسكندرية علماء يونانيين كثيرين ، كانوا على إحاطة بجميع العلوم والفنون والآداب المصرية ، ومع هذا ضنوا على مصر بذكر شئ من هذه المعارف المصرية فى كتبهم ، إن علماء الإسكندرية هؤلاء نشروا عشرات الكتب فى العالم المتحضر إذ ذاك ، وقد بقيت إلى اليوم ، وكلها خالية من الإشارة إلى العلوم والآداب المصرية التى كان لها فضل تنشئتهم ونبوغهم .

وكان من نتيجة هذا الصمت أنه لما دمرت الغزوات والحرائق الكتب المصرية ، وضاعت اللغة بانقراض عارفيها ، أسدل حجاب كثيف على كل ما يسمى علما مصرياً ، ولولا تلك الآثار المادية الضخمة كالأهرام والمعابد والمسلات وقبور الملوك ، ومانقش على جدران هذه الآثار ، ومادون وأخفى عن لصوص الآثار

فى الأقبية العميقة - لما فطن أحد إلى الدور العظيم الذى نهضت به الحضارة المصرية .

ومنذ مايزيد على مائتى سنة عرف أن التصوير اليونانى والنقش اليونانى والأعمدة اليونانية ، هى اقتباس من التصوير المصرى والنقش المصرى والأعمدة المصرية ، مع قدر من التنوع . . وعرف أن كثيراً من المصنوعات اليونانية هى بعينها المصنوعات المصرية ، لم يدخل عليها إلا تهذيب قضى به اختلاف البيئة ، واختلاف الزمن .

وعرف أن التصوير والنقش والأعمدة والمصنوعات فى مصر وفى اليونان كانت فى متناول كل من يريد أن يدرسها وأن يوازن بينها ، أما العلوم والآداب والديانات المصرية فكانت إلى زمن قريب مجهولة ، ولهذا كانت موازنتها بمثيلاتها اليونانية مستحيلة ، ولا يزال أكثرها مجهولاً إلى اليوم ، لأن ما يعرف لايزيد على جوانب من الديانات يشوبها كثير من الغموض ، ثم طرف صغير من الآداب يمثل فى بضع قصص وأناشيد وأشعار ، أما العلوم ، وبخاصة العلوم الفلسفية ، فلم يعرف بعد شئ منها - على هامش تاريخ مصر القديمة ص ٧٢ .

الفنون والآداب

- ١ -

لاشك في أن الفنون والآداب عصب الحضارة ، ولولا طول الحديث عن هذا النشاط العام ، لكان حسبنا أن نشير إليها خلال التناول الحضارى .

وفى بداية الحديث عن هذا النشاط نعرض لدعوى أن المصريين من أصل عربى ، بحجة أن عرب الجزيرة لم يكفوا عن الخروج منها والتدفق على مصر ، أو التسلل إليها ، طوال التاريخ المكتوب وقبلة ، ومن المتفق عليه بعامة أن مالم يسجله التاريخ أكثر مما سجل من موجات سامية نزحت إلى مصر .

والدليل على هذا أن الأستاذ محمد عزة دروزه أثبت اشتراك أكثر من عشرة آلاف كلمة بين المصرية القديمة والعربية ، حتى ليعتبرها بعض الفيلولوجيين لغة انتقالية بين الحامية والسامية - شخصية مصر ص ٩٢٢ / ٢٣٠ .

ويضيف الأستاذ زكى سوس مترجم (آلهة مصر) لفرانسوا دوماس : (فى عام ١٩٥١م أقيمت حديثاً على «جمعية الآثار المصرية» ، عابجت فيه موضوع علاقة اللغة المصرية القديمة باللغة العربية ، بالمقاييس التى وضعها علماء اللغات ، للموازنة بين لغة وأخرى ، وقد نشرت مقدمته صحيفة الأهرام فى ٢٦ / ٧ / ١٩٥٤ ، وقد جاء فيه : و «المستقبل كفىل بأن يظهر لنا أن أساس مفردات اللغة المصرية القديمة سام محض ، وعلى وجه التخصيص عربى محض» - آلهة مصر ص ١٢٩ .

وأورد المترجم ألفاظاً مصرية مضاهية لألفاظ عربية ، ورأى قرباً بين أسماء

الأصنام وأسماء الآلهة المصرية . ونسى الباحث أن اللغة صوتيات ، ومصر والعرب على خط أفقى واحد ، كما أن اختلاط مصر بشمالى الجزيرة العربية ، عن طريق التجارة والحروب والهجرات ، وبجنوبى الجزيرة العربية عن طريق التجارة - ساعد على تبادل كثير من الألفاظ ، وإذا كان قد تم تبادل الآلهة بين مصر والشام وجزر البحر المتوسط ، فهل نستبعد تبادل الألفاظ ؟ ثم إن اللغة الأمهرية تعد جذراً سامياً ، والأحباش أكثر بعداً عن العرب من مصر ، فكيف نفى أن تكون المصرية القديم ذات علاقات وأواصر عربية ، مع الاحتفاظ بأصالة مصريتها ، وبأصالة حاميتها ؟

يقول الأستاذ سليم حسن : (اللغة المصرية كانت منتشرة لدى جيران مصر انتشاراً يساير كثرة وقلة ماكان من صلات بين مصر وجاراتها . . جاء فى «تعاليم أنى» أن اللغة المصرية كانت منتشرة فى كل البلاد الأجنبية) - الأدب المصرى القديم ج ١ ص ١١١ .

ويقرر أنه (كان هناك ميل شديد إلى قبول كثير من الكلمات والتعابير الكنعانية فى اللغة المصرية القديمة ، وبخاصة عند أفراد الطبقة المثقفة الذين يريدون إظهار ثقافتهم العالية ، وإطلاعهم الواسع ، بحشر تلك الألفاظ فى كتابتهم) - مصر القديمة ج ٥ ص ٢١٥ .

وإذا كان الغازى لا يتحرك بجيوشه فقط ، بل بكل قدراته المادية والمعنوية ، وإذا كان المغزو يقوم بدور المتلقى ، حتى وإن كره الغزاة وأصر على مجاهدتهم ، فإن مصر الغازية حملت معها لغتها وثقافتها وفكرها الدينى ، ومصر المغزاة من الهكسوس والأحباش والنوبيين والفرس واليونان والرومان استبقت من هذه الشعوب قدراً من لغاتها وعاداتها وفنونها ومعارفها ، ومع هذا ظلت محتفظة بأصالتها وقدرتها الإبداعية المتميزة - وهذا شأنها اليوم مع الغزو التركى والفرنسى والإنجليزى .

ومهما يكن من شئ فإن الآداب التى خلفها سكان مصر آداب مصرية كتبت بحروف أو صور مصرية هيروغليفية أو هيراظيقية أو ديموطيقية ، وليست عربية أو حبشية أو فارسية أو يونانية أو رومانية .

إن علوم المقارنة بين الآداب والأديان أثبتت تأثير مصر فى آداب وأديان غيرها من الدول المجاورة ، وإن تأثير غيرها فيها لا يكاد يذكر ، بسبب سبقها الحضارى فى مجالات وإبداعات كثيرة .

وحسب مصر أنها أول من كتب فى الطب والعلوم الإنسانية بوجه عام .

لقد وجدت ثلاث نسخ من كتاب (التعاليم التى تجعل الفرد أربيا ، وتعلم الجاهل علم كل كائن ، وكل ماصنعه «بتاح» ، وماسجله «تحت» ، والسماء ونجومها ، والأرض وما عليها ، وماتخرجه الجبال ، وما تجود به البحار ، وماله علاقة بكل الأشياء التى تضيئها الشمس ، وكل ما ينمو على الأرض) لمؤلفه «أمنموبى» ابن «أمنموبى» ، وفيه عدد كل ما يأكله الإنسان أو يشربه ، ويدخل فى ذلك ثمانية وأربعون نوعاً من اللحم المطبوخ ، وأربعة وعشرون نوعاً من الشراب ، وثلاثة وثلاثون نوعاً من اللحم النيئ .

هذا التأليف الموسوعى يعد أبلغ مظهر للحضارة المصرية الأصيلة ، وما أظن العرب فى تاريخهم الطويل - عدنانين وقحطانيين - قبل النهضة الإسلامية ، كانوا يعرفون من هذه الأطعمة والأشربة ، حتى بعد أن مات أمنموبى بثلاثة آلاف عام !!

يقول بريستيد (تاريخ مصر ص ٣٧) : (استدل من الأبحاث التى عملت لكشف طريقة التوقيت المصرية أن دماء المصريين استعملوا الكتابة منذ نحو خمسة آلاف سنة ، وأن كتاب الأسرة الخامسة الذين أتوا بعد ذلك بألف سنة دونوا طائفة كبيرة من أسماء ملوك الوجه البحرى وبعض ملوك الوجه القبلى ، من الذين يرجع تاريخهم إلى ما قبل حكم الأسر ، كما نسخوا عدة نصوص دينية من «كتاب الموتى» يرجح أنها نقلت سابقا عدة مرات ، ولا يخفى أن الخط الهيروغليفى الذى استعمل فى الوجه البحرى لإجراءات الحكومة والملك والخزانة لم يخترع فجأة وقت اعتلاء الملك «ميناء» العرش المصرى ، بل كان مستعملاً قبل ذلك بمدة طويلة ، ولا يخفى أن الخط الهيراطيقى كان مستعملاً فى مبدأ الأسرة الأولى ، وهو اختزال للخط الهيروغليفى ، فلا بد أن يكون هذا الأخير مستعملاً قبل حكم الأسر بزمان طويل) .

العناية بالكتابة بالخط الرسمي (المقدس) - الهيروغليفي - وبالخط الميسر الذي استدعت الحاجة إليه كثرة المدونات - الهيراطيقي - منذ خمسة آلاف عام ، مما يقطع بأن اللغة المدونة منذ هذا التاريخ البعيد يستحيل أن تكون لغة قوم لم يعرفوا الكتابة قبل الميلاد ، وقد حاصر التاريخ دولهم القديمة : عادا و ثمود وأصحاب الرّسّ وأصحاب الأيكة وقوم تبع بين كشبان الرمال (الأحقاف) ، وبين الصخور الصّم في شمالي الجزيرة ، بحيث كانت اتصالاتهم خارج حدودهم تكاد تأخذ شكلاً فردياً ، فيما عدا ما هو من النزوح نحو الشرق ، أو الجولان في داخل الجزيرة ، وبخاصة بعد انهيار سد مأرب بعد الميلاد (١) .

(١) في أكثر من ثمانمائة صفحة كتب الدكتور علي فهمي خشيم عن (آلهة مصر العربية) ، مؤكدا أصالة العربية المصرية ، أو المصرية العربية ، لا الفرعونية ، متخذاً منهج الدراسة اللغوية ، وهو منهج يقيم على أساسه صاحب كتاب (أثينا السوداء) صرحا من عدة مجلدات ليبين أثر الحضارة المصرية في الإمبراطورية اليونانية وأثر الحضارة (العبرية) في كل من الحضارتين المصرية واليونانية (١١)

- ٢ -

كان الشعر فى مقدمة الوسائل الفنية للتعبير عن الوجدان المصرى ، وقد أعان على التفوق فى ميدانه تلك اللغة والكتابة (التصويرية) التى تميزت بها مصر ، وأن الشعر نشأ فى حضن الديانة المصرية ، أو زودته المعابد الطاقة الروحية ، مضفرة بالموسيقى التى جادت وتألفت فى أروقة الكهنة ، وبآلاتهم ، وبفنونهم السحرية وتعاويذهم . يقول إرمان : (لم يكن «آمون» إله «طيبة» فى الأصل إلا صورة أخرى من الإله «مين» الذى كان فى بلدة «قفط» التى لاتبعد عن «طيبة» كثيراً ، وهو كغيره من الآلهة قد يؤحد مع إله الشمس ، لذلك أصبح يدعى «آمون رع» ، وفى خلال الأسرة الثامنة عشرة - حينما أصبحت مدينته عاصمة الملك - كان احترامه عظيماً ، وأصبح أعظم الآلهة شأنًا . وإن «آمون رع» فى الحقيقة ليس إلا إله الشمس القديم «رع حوراختى» و «آتوم» و «خبرو» ، فكان مثله يسبح على الأقيانوس السماوى ، وكل ماكان يملكه «رع» من محاريب وسفن وأسماء وتيجان أصبحت ملكاً له ، وقد خلق مثله «رع» آلهة وأناسى) - الأدب المصرى القديم ج ٢ ص ٩٨ .

من هنا جاءت الأنشودة المسماة (آمون رع) أو (مين - آمون) التى تقول :

(رب الصدق ، ووالد الآلهة ، الذى خلق الإنسان ، وسوى الحيوان .

رب كل الكائنات ، الذى خلق شجرة الفاكهة ، والذى من عينه خرجت الأعشاب التى تزود الماشية .

وهو الصورة الجميلة التى سواها «بتاح» - إله الحرف - والشاب الجميل المحبوب الذى تثنى عليه الآلهة .

وهو الذى خلق من «هم أسفل ومن هم أعلى» الرجال والنجوم .

وهو الذى يضىء الأرضين ، وهو الذى يخترق لقبه الزرقاء فى سلام ، ملك الوجه القبلى والبحرى ، «رع» المنتصر .

رئيس رؤساء الأرضين ، عظيم القوة ، الرئيس الذى يبعث على الاحترام ، والرئيس الذى برأ الأرض قاطبة . الذى يحسب الخطط أكثر من أى إله آخر ،

ومن يبتهج الآلهة بجماله ، وهو الذى يقدم له الشئاء فى «البيت العظيم» ،
والذى ظهر فى «بيت النار» - أو التقديس .

ومن يحب الآلهة شذاه حينما يأتى من بلاد «بنت» ، الأمير العظيم الشذى ،
حينما ينزل من بلاد «مانو» ، الحسن الوجه ، حينما يأتى من أرض الإله - بلاد
بنت .

ومن يسجد عند قدميه الآلهة حينما يعرفون أن جلالته هو سيدهم ، وهو
رب الخوف ، العظيم الإرادة ، القوى الطلعة ، النضر القرايين ، وخالق الطعام
عندما تهلل له الناس) .

وفى المقطوعة الثالثة من هذه الأنشودة :

(إنك أنت الواحد الأحد ، الذى خلق كل الكائنات ، وإنك الواحد الأحد
الذى صنع كل مايوجد ، الناس خلقوا - خرجوا - من عينه ، ومن فمه أتت
الآلهة إلى الوجود .

بارئ الكلاً للماشية ، وشجر الفاكهة للإنسان ، خالق مايعيش عليه السمك
فى النهر ، والطيور فى القبة الزرقاء ، مانح النفس من فى البيضة ، ومغذى ابن
الدودة .

صانع مايحيا به النمل والذباب أيضا ، صانع ماتحتاج إليه الفئران فى
أحجارها . ومغذى الطيور على كل شجرة ، الحمد لك يا صانع كل هذا ،
الواحد الأحد فحسب ، والممتاز بالأيدى العديدة ، الذى يقضى الليل ساهرا
باحثا عن أحسن الأشياء لماشيته ، حينما يكون كل الناس نياما .

يا آمون الذى يسكن فى جميع الأشياء ، يا آتوم ، يا حوراختى .

يا والد آباء كل الآلهة ، يامن رفعت السماء ، وبسطت الأرض ، وصنعت
كل كائن) .

والمقطوعة الرابعة تصفه بأنه (المتعددة أسماؤه التى لايعرف لها عدد) .

ويلاحظ على هذه الأنشودة بمقاطعها الأربعة - الأدب المصرى القديم جـ ٢

ص ٩٨ / ١٠٤ - أنها تعطى صورة كاملة عن (الله الواحد الأحد) ، وأن ماعداه من (الآلهة) مجرد أسماء (لا يعرف لها عدد) ، أو (مجرد صفات لجلالته) ، ولا تكاد تختلف معانى الأنشودة عن معانى الأناشيد الموجهة لأوزير ، أو التى أنشدها أختاتون لإلهه (الواحد الأحد) ، مما يفيد أن الوجدانية أصل العقيدة المصرية ، وما هو خارج هذه (الوجدانية) ليس إلا من سوء فهم النص ، أو من التعبيرات المجازية التى حفلت بها اللغة والكتابة المصرية . . هذا إلى ما يخالف الفكر الإنسانى من أوشاب الحياة اليومية ، والاضطرابات النفسية والخيالية التى تُلِس الخرافة ثوب الحقيقة .

ولعل أنشودة (النيل) تبين الفرق بين (الإله) الحقيقى ، والإله المجازى ، فالنيل (ينبع من الأرض . . نداه هو الذى ينزل من السماء - البخار الذى يتحول مطراً - عطرَ الرائحة ، مهدى للشر ، خالق الكلا للماشية ، مُقدم الذبائح لكل إله) - المصدر السابق ص ١٠٤ - وصف لهبات النيل وأثره فى نفوس المصريين .

أما أنشودة (إلى الشمس الغاربة) فليست إلا ابتهاجاً وصلاة للإله (الواحد الأحد) ممثلاً فى (الشمس) ، هذا الكائن الذى يسع الأفق كله ، ومادامت الشمس رمزاً له ، أو اسماً من أسمائه ، فإن التعبير الأدبى يسمح بذكر خصائص هذا الرمز ، وإن خالف طبيعة المرموز له :

(الصلاة «لرع حوراختى» ، حين يغيب فى أفق السماء .

الثناء لك يا «رع» ، حينما تغرب ، يا «آتوم» ، ويا «حوراختى» ، أيها الإله المقدس الذى جاء إلى الوجود بنفسه ، الإله الأزلى الذى وجد فى البدء .

الابتهاج لك يارب الآلهة ، الذى رفع السماء لتكون ممراً لعينيه ، والذى سوى الأرض على قدر امتداد شعاعاته ، حتى يرى كل إنسان الآخر .

أنت جميل يا «رع» كل يوم ، وأملك «نوت» تضمك إليها) - المصدر نفسه ص ١٠٨ .

وما أجمل هذه الصلاة التى تعبر عن صدق العقيدة ، والاطمئنان الكامل إلى عفو السماء ، وسعة رحمة الله : (أقول / لو كان الخادم ميالاً للخطيئة / فالسيد

ميال للعفو / وسيد طيبة / لا يمر يوم على غضبه / ينتهى غضبه فى لحظة /
ولا يبقى منه شئ / والرجوع عن الخطيئة يتحول إلى سلام / أى آمون / أعطنى
قلبك / قَرّب منى أذنك / افتح عينك / نَجِّنى كل يوم / وزد طول حياتى) -
الجزيرة المسحورة ص ٩٢ / ٩٤ .

* ولم ينحصر وجدان الشاعر فى الأناشيد الدينية ، فقد كان أمامه متسع
لحب الحياة ، أو للتمتع بالساعة التى قدرت له ، وليكون خيائياً أبيقورياً :

(لتبتهج ، ولتنس قلبك أن الإنسان يجد يوماً) ، إن المقابر كلها تتهدم ،
حتى مقابر الحكماء الأقدمين ، (قد غدت كأنها لم تكن ، لا أحد يأتى من هناك
فيحدثنا كيف حالهم ، وماذا يعوزهم ، ليطمئن قلوبنا ، حتى نغدو نحن كذلك
إلى حيث ذهبوا) ، لهذا ، فلتنعم بالحياة حتى يأتى يوم النديب ، ولكن (ذا
القلب الساكن لا يسمع صياحهم ، ولا ينجى النواح أحداً من العالم السفلى ، ما
من أحد يستطيع أخذ متاعه معه ، وما من أحد يعود بعد أن مضى) - ديانة مصر
القديمة ص ٢٧٠ .

وأغنية (الضارب على العود) - وإن أخذت طابعا مأساويا - لاتخرج عن
شجن هذا الأبيقورى :

(الآلهة الغابرون - الملوك السابقون - راقدون فى أهرامهم ، وكذلك
الأشراف والمعظمون قد دفنوا فى أهرامهم^(١)) / والذين بنوا بيوتا قد أصبحت
مساكنهم كأن لم تكن ، فماذا جرى لهم ؟ / لقد سمعت أحاديث «أمحوتب» ،
و «حردادف» اللذين يتحدث بكلماتهما فى كل مكان ، فأين مساكنهم الآن ؟ /
جدرانهم دمرت ، ومساكنهم لا وجود لها ، كأن لم تكن قط / ولم يأت أحد من
هناك ليحدثنا عن حالهم ، ويخبرنا عما يحتاجون إليه / لتطمئن قلوبنا قبل أن
نذهب نحن كذلك إلى المكان الذى ذهبوا إليه) .

(فليفرح قلبك كى ينسى يوم تقام لك الشعائر الجنازية / أطع قلبك مادمت
حيّاً / ضع العطر على رأسك ، والبس فاخر الكتان ، وتزين بالنفائس الحقيقية

(١) هذا التعبير قد يكون مجازاً عن المغالة فى تشييد القبور .

التي للإله / زد في سعادتك أكثر فأكثر ، ولاتدع قلبك يحزن / اتبع هواك وتمتع ، وافعل ماشئت على الأرض / لاتعارض قلبك حتى يحين يوم النحيب ، فلا يخلص البكاء إنسانا من العالم السفلي) - الأدب المصرى القديم ج ٢ ص ٢٢٩ .

(سمعت هذه الأناشيد المكتوبة في قبور من مضى / ومايقولون في تعظيم الحياة فوق الأرض / مقللين من شأن العالم الآخر / لماذا يفعلون هذا ضد أرض الخلود العادلة الطيبة / حيث لاخوف ، وحيث لايستحب الخصام ، ولا يتحصن الإنسان ضد زميله ، في هذه الأرض التي لاعدوبها / هنا يرتاح أبناؤنا ، منذ أول الزمن ، وكل من سيولد لملايين وملايين / سيأتى إليها الكل ، فليس هناك من سَيَتَّخِلف في أرض مصر / وليس هناك من لا يقترب منها / وطول العمر على الأرض حلم / يقال لمن جاء للغرب : أهلاً ، سلمت وعوفيت) - الجزيرة المسحورة ص ٧٧ .

ومادام الحديث يتسع حتى للشك في المصير الأخير ، وهذا الشك يجرئ على الاستمتاع بالحياة ، فإن مشاركة المرأة الرجل في هذا الاستمتاع يحقق أقصى ماتشرب إليه العواطف ، ويعطف الجوانح ، ويروى الظمأ المقدس بالنبيد المقدس .

* وحظ الأدب المصرى القديم من فن الغزل كبير ، بسبب من الطبيعة الإنسانية ، وبسبب من المكانة التي حظيت بها المرأة في هذا المجتمع الحضارى المتقدم .

تقول الحبيبة ، وهى ترتقى سلم البوح الشفيف ، متوشحة برموز وردية بيضاء :

(يحلولى أن أذهب إلى الحديقة ، لأستحم أمام عينيك / وأتركك تملأ ناظريك بجمالى / فى ثوبى الكتانى الأبيض وقد ابتل / أنزل إلى الماء معك / وأطفوا ثانية لك / وعلى يدى سمكة حمراء جميلة / أحملها لك / تعال ، انظر إلى) - الجزيرة المسحورة ص ٢٤ / ٢٦ .

ومن مجموعة منف الأولى المكتوبة على بردية هيراطيقية ، من عصر الأسرة التاسعة عشرة (حوالي ١٣٠٠ ق.م) وهى محفوظة بالمتحف البريطانى بلندن ، وتعرف باسم بردية هاريس الذى اشتراها من مصر - تقول الحبيبة أيضاً فى عتاب رقيق يفيض جاذبية ووجدا ، كأنها كاتبة (نشيد الإنشاد) :

(ياأجمل كل الناس / كم أود أن أشاركك بيتك ، زوجة لك / كى تضع على ذراعى ذراعك / ولكنك أدت عني حبك / أقول لقلبي بداخلي : غاب عني حبيبي هذه الليلة / وأصبحت كَمَن فى القبر / ألت أنت الصحة والحياة ؟ / ألا تأتى إلى ومعك الفرع ؟ / ألا تهملك صحة قلبي ؟) - المصدر السابق ص ٢٧ / ٣٣ .

ومن مجموعة منف الثانية المكتوبة على نفس بردية هاريس ، تقول الحبيبة ، مستخدمة أسلوب (نشيد الإنشاد) كذلك ، لكننا هذه المرة مع زوجة عاشقة تفيض صباية :

(أنا حبيبتك الأولى / حديقتك / زرعت فيها الزهور والنباتات الجميلة ذات العبير / يصفو جدولها الذى حفرت يداك / حين تهب ريح الشمال المنعشة / فهو المكان الجميل الذى أنتزه فيه . وعلى يدى يدك / وجسدى مستريح / وقلبي متش / عندما نسير معا / عذب أن أصغى لصوتك / وأنا أحيأ لأنى أسمع) .

(عندما أراك / كل نظرة أطيب لى من أى طعام ، أو شراب) .

(وعندما تعود منتشياً . وتنام على سريرك / أمسح قدميك / فالصحة والحياة عندما ترجع) - المصدر نفسه ص ٤٠ .

ومن مجموعة منف الثالثة ، من نفس البردية ، نجد صوت الحبيب يتحدث بجسارة امرئ القيس ، ورهبانية ابن ذريح ، وأناقة ابن أبى ربيعة ، من وراء ألفى عام تقريبا :

(حبيبتى حديقة ، تمتلئ ببراعم اللوتس / وصدرها يموج بفاكهة الحب / وجبينها شرك منصوب للطير / وأنا إوزة برية ، يجتذبيها الطعم) .

(سأرقد فى دارى مريضاً ، دون أن يلم بى داء / سيدخل جيرانى لرؤيتى /

وستأتى معهم حبيبتى / هى خير من كل الأطباء / لأنها تعرف دائى) .

(فى قصر حبيبتى مدخل فى وسط الدار / بابه مفتوح / ستخرج حبيبتى غضبى / آه لوجعلونى حارس بابها / حتى تؤنبنى / وأسمع صوتها ، وهى غاضبة منى / وأنا كطفل خائف منها) - المصدر السابق نفسه ص ٤٥ .

وفى مجموعة أو سترাকা القاهرة ، يقول الحبيب متخذاً من حبه تعويذة تحميه كافة الشرور :

(هناك ، على الشاطئ الآخر / حب حبيبتى / وبينى وبينها الماء / وتمسح على رمال الشاطئ يكمن ، ولكننى إلى الماء أنزل / عليه أسير / وقلبى فوق الماء جرى / وإذا بالماء أرض لقدمى / فحبها يقوينى / هو تعويذة سحر لى / فى الماء) .

(وعندما أضمها / وتفتح لى ذراعيها / كأنى فى «بُنت» / محاطا بالعطور) .

(وعندما أقبلها ، وتنفرج شفاتها / أنتشى بلا شراب) - المصدر نفسه ص ٤٧ .

ومن مجموعة «طيبة» ، على بردية هيراطيقية ، اشتراها من الأقصر (تشستر بيتى) ، وسميت باسمه ، وتمتاز هذه المجموعة بأنها كتاب كامل تام الحفظ ، تنقسم ثلاثة أقسام ، كل قسم عدة مقطوعات . . تقول إحداها ، وكأنها تتحدث على لسان خاطبة أو نخّاس أو رسام :

(فريدة حبيبتى فى حسنها / مامثلها أحد / أجمل من كل النساء هى / مشرقة / انظر اليها كالنجمة الإلهية / فى مطلع العام السعيد / ساطعة باهرة وضاءة البشرة / جميلة العينين حين تنظر / عذبة الشفتين حين تتحدث / كلمة زائدة لاتقولها / طويلة العنق ، جميلة الثدي ، شعرها لازورد أصيل / ذراعها يفوق الذهب / أصابعها أزهار اللوتس / مشدودة الخصر عند انسياب الرّدف / تزيد ساقاها من جمالها / تخطو على الأرض فى نبيل / أسرت قلبى بعناقها / وأدارت رقاب كل العشاق / مشدوهين بجمالها) - المصدر نفسه ص ٤٩ .

وهذه مقطوعة تمثل حوارا نفسيا ، يكشف عن مجموعة انفعالات من الرغبة والرغبة ، والشوق والكبرياء :

(حالا يشرد قلبي / حين أفكر فى حبي لك / لا يريدنى أن أعيش كغيرى / فهو ينفر فى مكانه / ويأبى حتى أن أتناول ردائي / أو أمسك مروحتى / لا يرضى أن أكحل عيني / أو أدهن بالطيب جسدى) .

(«لاتقفى هكذا ، ادخلى » ، هكذا يقول لى كلما أفكر فيه / آه ياقلبي / لاتضايقنى / لماذا هذا الجنون ؟ / استرح . ابرد ، حتى يأتى لك حبيبك / آه يايعينى / هذا حال الكثيرين / لاتجعل الناس إذن يقولون : / «أضاعها الحب» / تجلد ، حين تذكره ، ياقلبي / ولاتحفل) - المصدر نفسه ص ٥٤ .

أما هذه المقطوعة فصلاة ابتهاال للإلهة (حتحور) ، حتى تكون واسطة خير بينه وبين الجميلة التى هجرته خمسة أيام : (أعبد ربة الذهب ، وأعظم جلالتها / وأكبر سيده السماء / وأمجد الإلهة «حتحور» / وأمدح السيدة الإلهية / تضرعت لها ، فأجابت طلبى / وأمرت لى بسيدتى / وجاءتنى طواعية لتلقانى / ما أعظم ماحدث لى / أنا سعيد ، أنا فرح . أنا عظيم / منذ أن قالوا لى : ها هى / انظر . . جاءت / يسجد لها العاشقون ، من فرط حبهم لها / هأنأ أرفع صلاتى لإلهتى / لتبهنى حبيبتى / ثلاثة أيام مرت ، حتى أمس ، وأنا فى تضرعاتى ، لاسم إلهتى / هجرتنى من خمسة أيام) - المصدر نفسه ص ٥٧ .

* كانت للملوك منزلة كبيرة تصل إلى حد القيام بدور الآلهة ، أو أنهم خلفاء الله ، أو ظل الله فى الأرض ، وقد عبروا عن هذا المعنى - ولعله تعبیر يتسم بميسم السخرية الفكهة المعروفة عن المصريين - بأن «رع» تخلى عن حكم العالم ، لما رأى من الغدر وعدم الوفاء ، وصعد إلى السماء ، وترك الدنيا للملوك ، وكان كل ملك يسمى (ابن الشمس) ، وعلى هذا صار الفرعون يعد نفسه من سلالة الآلهة ، وليس من طينة البشر . . ومن هنا كانت المبالغة فى مدح الملوك .

جاء فى وصف رمسيس الثانى ، وكان تياها ، حريصا على مزيد من الأمجاد ، ولو كانت أمجاد غيره ، (من ملحمة قادش) : (جميل الطلعة ،

مثل الإله «آتوم» ، يعم السرور الناس عند مشاهدة بهائه ، عظيم الانتصارات على كل البلاد الأجنبية ، ولا يمكن أسره في الحرب ، إنه جدار قوى لجنوده ودرعهم في يوم الواقعة ، ولا مثيل له في الرماية ، وقوته تفوق مئات الألوف مجتمعين ، وهو الزاحف قُدا ، متوغلا في المعمة ، لُبُّه مفعم بالشجاعة ، قوى القلب حين منازل القرن ، كالنار عندما تلتهم ، ثابت القلب كالثور المتأهب لساحة القتال ، لا يجهله أحد في كل الأرض قاطبة . . كالأسد الضارى في وادى غزلان ، يغزو مظفرا ، ويعود مبتهجا أمام الناس ، من غير مفاخرة ، متفوق في تدابير . . وقد وصل سالما إلى بيت رمسيس - بررعسيس - العظيم الانتصارات ، ومكث في قصره ، ممتلئا حياة مثل «رع» على عرشه ، وقد رحب الآلهة بحضرته قائلين له مرحبا ، يا ابننا المحبوب ، «رعسيس - محبوب - آمون» ، وقد منحوه آلاف آلاف الأعياد والخلود على عرش والده «آتوم» ، وكل البلاد والأراضى الأجنبية أصبحت تحت قدميه) - الأدب المصرى القديم ج ١ ص ٢٠٦ .

ومن قصيدة عن انتصار (مرنبتاح) تفيد أنه ليس فرعون (الخروج) :

(ولم يعد يرفع واحد من بين قبائل البدو رأسه / و «التحنو» قد خرجت / وبلاد «خانى» أصبحت مسالمة / و «كنعان» أسرت مع كل خبيث / وأزيلت عسقلان / و «جيزر» قبض عليها / و «بنو ام» أصبحت لاشئ / و «إسرائيل» خربت ، وليس بها بذر / و «خارو» - فلسطين - أصبحت أرملة لمصر / وكل الأراضى قد وجدت السلم) .

وفى عهد بيبى الأول (٢٤٠٢ - ٢٣٧٧ ق.م) - من الأسرة السادسة - ظهر رجل من قعر المجتمع ، ليتسنى أعلى المناصب ، وحين أراد الملك أن يوقع العقوبة (على الآسيويين والساكنين على الرمال) تولى (ونى) أمر القيادة ، ولما تم النصر صار هذا الرجل (المتعدد المواهب) شاعرا يقول :

عاد هذا الجيش فى سلام / بعد أن خرب أرض ساكنى الرمال .

عاد هذا الجيش فى سلام / بعد أن اجتاحت أرض ساكنى الرمال .

عاد هذا الجيش فى سلام / بعد أن دمر محلاتها المسورة .
عاد هذا الجيش فى سلام / بعد أن قطعَ تينَها وكرومها .
عاد هذا الجيش فى سلام / بعد أن أشعل النار فى كل بيوتهم الفاخرة .
عاد هذا الجيش فى سلام / بعد أن ذبح عشرات الآلاف من رجال
جيوشهم .
عاد هذا الجيش فى سلام / بعد أن حمل معه جيوشا كثيرة العدد أسرى) .
مثل هذا التكرار الذى كان يحدث على لسان الكورس فى بعض المسرحيات
اليونانية ، والذى طالعنا به الأسلوب القرأنى على غير سابقة فى اللغة العربية ،
والذى حدث فى بعض الموشحات الأندلسية - زعم بعض شعراء الزَّهْو - فى
أواخر القرن العشرين - أنهم مخترعوه وأصحاب بجدته !!

- ٣ -

وحظى فن النصائح والتعليمات بمكانة بارزة فى ميدان التعبير عن التجارب والخبرات التى تمتع بها رائدو الحضارة المصرية القديمة .

ومن أبرز هذه النصائح والآداب الخلقية مانسب إلى الوزير الحكيم (بتاح حتب) ، وزير الملك (إسيسى) - حوالى ٢٦٧٠ ق.م - ومربيه ، وقد أُملى تعاليمه فى شيخوخته ، وذلك لإعداد ابنه ليتولى بعده وظيفته فى البلاط ، وقد جاء فيها :

(إن المستمع إلى النصيحة الطيبة هو المرء الذى يحبه الإله ، أما الذى لا يصغى فهو الذى يبغضه الإله ، والقلب هو الذى يجعل صاحبه مصغيًا أو غير مُصنغ ، وحظ الإنسان الحسن هو قلبه) .

يلاحظ أن المصرى القديم يشير دائماً إلى أن (القلب) هو موطن الفطنة والإدراك ، كما أنه موطن الانفعالات والعواطف النبيلة ، (إن قلب الإنسان هو إلهه ، وقد كان قلبى مرتاحاً لأعمالى) ، وهو ما ألح القرآن الكريم على إبرازه ، ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ - ولهذا ﴿ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ - مادامت ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ - وهذا ما لا يريد أن يعترف به العلم الذى يركز على أن خلايا المخ هى مركز الحواس والمعارف ، لأن الحواس هى منافذ المعرفة ، ولأن العلم لا يقول دائماً الكلمة الأخيرة ، فلعل جديداً يكشف عن حقيقة ما أشار إليه القرآن الكريم - حقيقة لا مجازاً - وتحدث عنه المصرى القديم حقيقة لا مجازاً .

وجاء فى تعاليم بتاح حتب : (إذا كنت تبحث عن أخلاق من تريد مصاحبته فلا تسألنه عن شئ ، ولكن اقترب منه ، وتعامل معه على انفراد ، وامتنحن قلبه بالمحادثة ، فإذا أفشى شيئاً قد رآه ، أو أتى أمراً يجعلك تخجل له ، فعندئذ احذر حتى من أن تجاوبه) . . لعل هذا يذكرك بقول عمر ابن الخطاب عن حدود معرفة المرء غيره .

(إن الرجل الحكيم تنعم روحه باستمرار بقاء فضله على الأرض ، والرجل

العامل يعرف بعمله ، فقلبه ميزان لسانه ، وشفته تصيبان القول عندما يتكلم ، وعينه تبصران عندما ينظر ، وأذناه تسمعان ما يفيد ابنه الذى يقيم العدل ، ويبرأ من الكذب) .

هذه الفقرة مزيج من قول الرسول الكريم محمد (ينقطع عمل ابن آدم إلا من ثلاث) ، ومن المفهوم الحقيقى لتواصل الأجيال .

ونجد لهذا الحكيم الخبير من (آداب المائدة فى حضرة الرئيس) ما يتفق مع أحدث الآداب الاجتماعية حتى اليوم : (إذا اتفق أنك كنت من الجالسين على مائدة أكبر منك «مقاما» ، فخذ ما يقدم لك ، حينما يوضع أمامك ، ولا تنظرن إلا إلى ما وضع أمامك ، ولا تصوبن لحظات كثيرة إليه ، لأن ذلك مما تشمئز منه النفس ، وانظر بمحيالك إلى أسفل إلى أن يحييك ، وتكلم فقط بعد أن يرحب بك ، واضحك حينما يضحك ، فإن ذلك سيكون سارا لقلبه ، وما تفعله يكون مقبولا ، لأن الإنسان لا يعلم ما فى القلب) .

(إذا كان رئيسك - فيما مضى - من أصل وضيع ، فعليك أن تتجاهل وضاعته السابقة واحترمه حسبما وصل إليه ، لأن الثمرة لا تأتى عفوا ، ولا تعيدن قط كلمات حمقاء خرجت من غيرك فى ساعة غَضَب ، التزم الصمت ، فإن هذا أحسن من أزهار «تفتت» ، وتكلم فقط إذا كنت تعلم بأنك ستحل العضلات ، وإن الذى يتكلم فى المحفل كمفتن فى الكلام ، وصناعة الكلام أصعب من أى صناعة أخرى) :

وقد أدرك هذا الحكيم أن (بيت الزوجية) هو الميزان الحضارى الجدير بالاهتمام ، وهو مقياس السعادة ، دنيا وأخرى ، لهذا أوصى :

(إذا كنت رجلاً ناجحاً فأسس لنفسك بيتاً ، واتخذ لنفسك زوجة تكون سيدة قلبك) .

(أشبع جوفها ، واستر ظهرها) .

(إن علاج أعضائها هو الدهان) .

(اجعل قلبها فرحاً مادمت حياً ، فهى حقل مثمر لسيدها) .

(إذا أردت أن تحافظ على الصداقة فى بيت تدخله ، سيدا كنت أم خادماً أم صاحباً ، فاحذر القرب من النساء ، فإن المكان الذى يكنّ فيه ليس بالحسن ، ومن الحكمة إذن ألا تحشر نفسك معهن ، ومن أجل ذلك يذهب ألف رجل إلى الهلاك ، بسبب متعة قصيرة تضيع كالحلم ، ولايجنى الإنسان من معرفتهن غير الموت) .

(وعندما يفتن الإنسان بأعضائهن البراقة - أعضاء من الزجاج - فإنها تصير بعد ذلك من حجر «هرست» - تافها مثل الحلم - والموت يأتى فى النهاية) - الأدب المصرى القديم ج ١ ص ١٩١ / ١٩٣ .

يلاحظ أن كل وصايا وتعاليم (بتاح حنب) - مع قدم زمانها - لا تكاد تختلف فى شئ عن الآداب الإنسانية التى تتردد فى الديانات السماوية والفلسفات الإنسانية ، ولعل من أجل هذا شكّا عالم فى عهد سنوسرت الثانى (٢١٥٠ ق.م) - أى بعد خمسة قرون تقريباً من كتابة هذه التعاليم - من أن كل ما يمكن أن يقال قد قيل من عهد بعيد ، ومن أن الأديب لم يبق له مايقوله إلا التكرار . ثم قال فى أسى وحسرة : (ألا ليتنى أجِد ألفاظاً لم يعرفها الناس ، وعبارات وأقوالاً بلغة جديدة لم ينقض عهدا ، وليس فيما تلوكة الألسن أقوال لم تصبح تافهة مُملّة معادة ، ولم يقلها أبائنا من قبل) .

* وما جاء فى وصية الملك أختوى أو (خيتى الثالث) - حوالى ٢١١٦ ق.م - من الأسرة العاشرة لابنه الملك (مريكارع) الذى عاش فى مصر عصر الثورة الاجتماعية التى قلبت نظام البلاد ، والوصية مدونة على بردية (متحف ليننجراد) ، تحمل بين سطورها أدلة قاطعة على أنها كتبت فى العصر الذى تنسب إليه .

(حاذر من أن تعاقب الناس دون خطأ جنوه ، لا تقتل ، فإن ذلك لن يجديك شيئاً ، ولكن عاقب بالضرب والاعتقال ، فتصلح الأمور فى البلاد ، اللهم إلا الثائر عليك الذى تثبت من أمره) .

يقول الدكتور أحمد فخري : ولأول مرة فى تاريخ مصر تقرأ فى تلك النصائح عن وجود محكمة بعد الموت ، يقف أمامها الإنسان صاغراً ، لا ينفعه

أمام قضائته إلا العمل الصالح ، (فإن أعماله توضع مكدسة إلى جواره) .

ويشير أختوى إلى الشباب ، فينصح ابنه بالعبادة بهم ، وتقريبهم منه ، وأن يمنحهم الحقول ، ويكافئهم بإعطائهم بعض الماشية ، ويحذره بشدة من أن يميز ابن شخص غنى على ابن شخص فقير ، ويجب أن يكون التقدير حسب الكفاءة الشخصية :

(أغل من شأن الجيل الجديد ليحبك أهل الحاضرة . . . إن مدينتك مفعمة بالشباب المدرب الذين هم فى سن العشرين ، ضاعف الأجيال الجديدة من أتباعك ، على أن يكونوا مزودين بالأموال ، وعلى ألا ترفع من شأن ابن العظيم على ابن الوضع ، بل اتخذ لنفسك الرجل بحسب كفاءته ، ومع ذلك فإنه ليس من الفطنة أن تهمل الأسر الشريفة العريقة) .

(إن الرجل الغنى فى بيته لا يتحيز - فى حكمه - لأنه صاحب عقار ، وليس محتاجا ، ولكن الرجل الفقير - فى وظيفته - لا يتكلم حسب العدالة - ماعت - لأن الرجل الذى يقول : «ليت لى» ، لن يكون محايداً ، بل ينحاز إلى الشخص الذى يحمل فى يده رشوة) - الأدب المصرى القديم ج ١ ص ٢٠٢ .

ألا تدلنا هذه الفقرة على أننا نعيش اليوم فى مجتمع تحكمه الأمية السياسية والإدارية التى حولت (جَنَّةَ اللَّهِ فى أرضه) إلى التَّصَحُّر والبطالة والقروض المشبوهة والخبراء الجواسيس ؟!

ويقول أختوى لابنه : (إن الجرانيت يمكن الحصول عليه دون عائق) ، ويحذره من الاعتداء على آثار الآخرين ، فإنه يجب عليه الحصول على ما يلزمه من أحجار من محاجر طرة لبناء قبره ، وألا يأخذ أحجاراً مما تخرب من قبور الناس - مصر الفرعونية ص ١٧٢ / ١٩٤ .

كذلك الشأن بالنسبة للثروات ، يمكن لذوى النفوذ وأبناء ذوى النفوذ ألا يتاجروا فى قوت الشعب باسم القروض ، واستيراد الأطعمة الفاسدة ، وبيع الوطن لغير أهله ، فى مقابل العملات التى تخزن فى الأرقام السرية ليوم آت لا ريب فيه ، وعليهم أن يعملوا لاستخراج الذهب من (أرض الذهب) ، وإنهم لموسرون بيسار الآخرين .

(إن فضيلة الرجل المستقيم أحب - عند الله - من ثور - يقدم قربانا - من الرجل الظالم) .

* وعن تعاليم أئمة الأول (١٩٩١م - ١٩٦٢ ق.م) يقول الأستاذ جاردنر : (إنه من المحتمل - عندما أشرك أئمة ابنه سنوسرت في حكم البلاد - أن فاه أمام رجال بلاطه بنصائح غالية ، تحمل في طياتها مالا قاه من المصاعب والمصائب ، ومقام من عظيم الأعمال ، وما جعله يشرك ابنه معه في حكم البلاد ، ولا يبعد أن رجال الحاشية الذين أعجبوا بهذه النصائح وتلك الحكم الثمينة التمسوا من الملك أن يدونها ، فكلف بدوره كاتباً ملكياً بذلك) .

ويقول الأستاذ سليم حسن : (يمكن القول إن هذه الوثيقة مقال سياسى ، فى صورة قطعة أدبية ، صيغت دعاية لتعضيد حزب سنوسرت الأول الذى كان يواجه موقفاً حرجاً بعد موت والده ، وسنوسرت يقا تل الأعداء على الحدود الغربية . . قد تكون كتبت بإيعاز من سنوسرت ، أو بوازع من الكاتب نفسه) .

(وفى هذه التعاليم يظهر المتوفى بسلطانه العظيم يعضد سنوسرت ، يخاطبه من قبره ، وقد كان من الأمور الطبيعية فى التفكير المصرى أن يأتى الوالد - من عالم الأموات - لمساعدة ابنه على الأرض ، وذلك لأن موتى المصريين كانوا دائماً حاضرين) :

(أنت بامن ظهرت إلها - أصبحت ملكاً - أصغ لما سألقيه عليك ، حتى تصير ملكاً على البلاد ، وحاكماً على شواطئ النهر) .

(خذ الحذر من مرءوسيك ، لأن الناس يصغون لمن يرهبهم ، ولا تقتربن منهم على انفراد ، ولا تثقن بأخ ، ولا تعرفن لنفسك صديقاً ، ولا تصطفين لنفسك خلاناً ، لأن ذلك لا فائدة منه) .

(وعندما تكون نائماً كن الحارس لشخصك حرصاً على قلبك ، لأن الرجل لاصديق له فى يوم الشدة ، فإنى قد أعطيت الفقير ، وعلمت اليتيم ، وجعلت من لا ثروة له مثل صاحب الثراء ، وقد كان أكل خبزى هو الذى جئت الجنود ضدى ، والرجل الذى مددت له يد المساعدة هو الذى أحدث لى بها المتاعب ،

والذين يرتدون فاخر كتانى عاملونى كالذين فى حاجة إليه ، والناس الذين يتضمنون بعطورى قد لوثوا أنفسهم وهم يستعملونه بخيانتى) - الأدب المصرى القديم ج ١ ص ٢٠٩ / ٢١٣ .

* وكان أعظم كشف جاوز حد المألوف - كما يقول بريستيد - هو أننا عرفنا أن حكمة أمنموبى التى حفظت لنا فى ورقة مصرية بالمتحف البريطانى قد ترجمت إلى العبرية فى الأزمان الغابرة ، وأنه بذىوعها فى فلسطين صارت مصدراً استقى منه جزء بأكمله من كتاب الأمثال فى التوراة - فجر الضمير ص ١٢ .

ويقول الأستاذ سليم حسن : اختلف علماء الآثار فى تحديد تاريخ هذه الوثيقة ، غير أن رأى الأخير يجعل عصرها ينحصر ما بين الأسرة الحادية والعشرين والثانية والعشرين ، وهذا هو رأى كل من الأستاذ إرمان والأستاذ لنجا .

وقد لفت ما وجد متشابها فى كتاب «أمنموبى» وفى كتاب «سفر الأمثال» علماء الألمان من المشتغلين بدرس كتاب العهد القديم ، وخلق لهم موضوعاً جديداً ، وهو البحث عن الصلة بين الآداب العبرية ومدنيتها ومصر القديمة .

وأول من بحث فى هذا «أدولف إرمان» ، و«زيت» ، و«هيوبرت جريم» ، وقد ألقى كل منهم بعض الضوء على علاقة الكتابين بعضهما ببعض ، لكن البحث المستفيض فى هذا الموضوع يرجع الفضل فيه إلى «هوجو جروسمان» .

وقد أورد الأستاذ سليم حسن فى الصفحات (٢٨٥ / ٢٩٣) من كتاب (الأدب المصرى القديم ج ١) مقارنة بين النصوص العبرية والأمموية .

ويقول الأستاذ بريستيد : هى فى نظمها ووضعها أكثر ترتيباً من أى وثيقة أخرى من نوعها ، فقد قسمت بنظام إلى ثلاثين فصلاً ، كل فصل خاص بموضوع معين ، وتبدو مقسمة إلى مقطوعات ، كل منها مشتمل على أربعة أسطر أو ستة أو ثمانية ، كما يوجد بعض مقطوعاتها مؤلفاً من سطرين فقط ، ويلاحظ أنه لم يبدل فى تأليف تلك الحكم أى جهد لتنسيق فصولها أو ترتيبها منطقياً .

ويقول الأستاذ «لنج» أو «لنجا» من جامعة كوبنهاجن : (إن آراء أمنموبى الدينية أعمق كثيراً من سابقتها ، كما أنها تنفذ إلى الأعماق بدرجة عظيمة تفوق فيها آراء أسلافه من الحكماء ، إذ كانت التقوى فى نظر أصحاب الحكمة الآخرين تعد فضيلة ، وأن فكرة الموت والخلود الأبدى قوة دافعة للمرء على السلوك الفاضل ، وأن الله وحده هو الذى يعطى الغنى والحظ ، فى حين أن الشعور بالإدانة لله وحده هو فى نظر أمنموبى العامل الفاصل فى كل تصرفاته عن الحياة وسلوكه فيها) .

ومما يزيد من أهمية تلك النصائح ووصولها إلى هذه القمة من تقدير الضمير والإحساس برقابة الله ، أنها دونت فى القرن العاشر قبل الميلاد ، من قبل أن تكتب التوراة ، وقد ترجمت هذه الحكم إلى العبرية ، وإن قسما هاما منها قد وجد سبيله إلى كتاب العهد القديم - فجر الضمير ص ٣٤٦ / ٣٤٧ .

ومن هذه الحكم :

(إن الرجل الأحق الذى يخدم فى المعبد ، مثله كمثل شجرة نامية فى الغابة ، فى لحظة يفقد أعصابه ، ويكون مصيره إلى مرفأ الأخشاب ، وينقل بعيداً عن مكانه ، والنار مثواه . . أما الرجل الحازم حقاً ، الذى يضع نفسه جانباً ، فمثله كمثل شجرة باسقة فى الحديقة ، يفلح وتتضاعف ثمرته ، ويثمر فى حضرة سيده ، فظله وارف ، وثمرته أكلها حلو ، ويجد فى الحديقة مصيره) .

(لاتدعن قلبك يجرى وراء الثروة ، ولا تجهدن نفسك فى طلب المزيد ، عندما تكون قد حصلت على حاجتك ، وإذا جاءتك الثروة عن طريق السرقة ، فإنها لاتتمكث عندك زمن الليل ، فحينما ينبلج الصباح لاتكون فى بيتك ، لأنها تكون قد صنعت لنفسها أجنحة مثل الإوز ، وصعدت إلى السماء) .

(اعبد «أتوم» ، إله الشمس ، عندما تشرق ، وقل : امنحنى سلامة وصحة ، وسيمنحك ما تحتاجه مدى الحياة ، وتأمّن من الخوف) .

(لاتنم الليل وأنت خائف من الغد ، لأننا لاندري عندما ينبثق الفجر ماذا يكون عليه الحال فى الغد ، فالإنسان لايعلم ماسيكون عليه الغد ، الله فى

كماله ، والإنسان فى عجزه ، على حين أن أعمال الله مختلفة الاتجاه) .

(لا تقولن لست أحمل خطيئة ، ولا تجهدن نفسك فى إثارة النزاع ، أما الخطيئة فأمرها عند الله ، وهو الذى يختتمها بإصبعه ، وليس فى يد الله إنسان كامل ، ولا يقف العجز حائلاً أمامه ، فإذا أجهد الإنسان نفسه ليصل إلى الكمال ، فإنه فى لحظة يهدمه) .

(كن رزيناً فى عقلك ، وثبت قلبك ، ولا تجعلن من لسانك سكناً ، فإن كان لسان الإنسان كسكان السفينة ، فإن رب الجميع هو ربّانها) - فجر الضمير ص ٣٥١ / ٣٥٤ .

(لا تغمس قلمك - فى المحبرة - حتى تؤذى شخصاً آخر ، ولا تغش فى المقاييس والأوزان ، ولا ترتش ، اقض بعدل ، لا تظلم الضعيف لصالح الغنى ، ولا تطرد من كان ملبسه غير مناسب) .

(لا تغش فى جباية الضرائب ، ولا تكن قاسياً إذا ما اكتشفت مبلغاً كبيراً متأخراً على القائمة عند أحد الفقراء ، قسمه إلى ثلاثة أجزاء ، واحذف جزءين ، ولا تبق إلا جزءاً واحداً) .

(إن جميع ماتفعله فى غير عدالة لن يجلب لك بركة ، إذ إن مكياً واحداً يعطيه الإله خير من خمسة آلاف تكتسبها بغير حق) .

(عليك أن تنحنى أمام الرئيس السريع الغضب ، حتى ولو أهانك ، فإنه سيصلح الأمر فى اليوم التالى) .

(لا تهزأ بالأعمى ، ولا تسخر من القمى ، لا تسبب ضرراً المقعد ، ولا تزدر رجلاً فى يد الإله) - ديانة مصر القديمة ص ١٨٣ / ١٨٤ .

ومع هذا يقولون إن ديانة مصر القديمة لم تنطو على كتاب مقدس ، مع علمهم بالظروف الصعبة التى أحاطت بالتراث المصرى ، ومع علمهم بأن ثمة كتباً مقدسة لم تبق منها باقية ، ومع علمهم بأنه ما من كتاب مقدس (محفوظ) كما نزل من السماء سوى (القرآن الكريم) ، وأن (العهد القديم) صناعة يهودية ، وأن (العهد الجديد) لم ينقل عن السيد المسيح إلا سطوراً .

ثم إن كل مدونة مصرية باقية أصابها النهب ، وصارت فى ذمة المتاحف الأوربية والأمريكية . . ولو أنى حرصت على الإشارة إلى مصير كل مدونة عرضت لها « لوجب الإشارة إلى أن مدونة (شجار بين إنسان سئم الحياة وبين روحه) التى تقارن بسفر أيوب ، محفوظة فى متحف برلين ، و (شكوى خع خبر رع سنب) محفوظة فى المتحف البريطانى ، و (نبوءة نفرروهو) موجودة بمتحف لىنجراد . . وهكذا ، وهكذا !!

أشهر مسرحية ملحمية وأقدمها فى التاريخ الإنسانى هى قصة (المخاضة بين «حور» و «ست») ، وهى من مقتنيات المتحف البريطانى ، وهى تتحدث عن اغتيال (ست) لأخيه (أوزير) ، وتمزيق أعضائه فى أنحاء الدلتا ، حتى لايسهل العثور عليه ، لكن الأخت (إيزيس) ، جعلت همها البحث عن (أوزير) ، وإعادته إلى الحياة ، وبعد أن عاد (أوزير) تنازل عن حكم مصر ، وهبط يحكم فى العالم السفلى ، واشتد النزاع بين (حور) و (ست) لورثة العرش ، فتخاصما إلى محكمة الآلهة التى كان يرأسها (رع) ، ومع أن الحق كان فى جانب (حور) فإن (رع) كان يناصر (ست) لقوته وجبروته ، لكن كلا من أوزير وإيزيس ساندوا (حور) ، فاضطر (رع) ومجلس الآلهة إلى التراجع ، وحصل (حور) على حقه الشرعى فى حكم مصر .

يقول الأستاذ سليم حسن : إن (رع) يمثل شخصية الفرعون ، وآلهة التاسوع يمثلون مجلس بلاطه ، ومظاهرة (رع / ست) على حور صاحب الحق الموروث تعنى رغبة فرعون فى تنصيب أحد عظماء قومه فى وظيفة حاكم ، متخطيا بذلك قانون الوراثة الذى تسير عليه ، وهذا لم يحدث إلا مرة واحدة فى تاريخ مصر ، وذلك فى العهد الذى تلا سقوط الدولة القديمة ، فإن أمراء الإقطاع قد ازداد نفوذهم ، وصارت المقاطعات التى يحكمونها كأنها ضياع لهم ، يستغلونها فى حياتهم ، ويورثونها أبناءهم . . ولما جاء ملوك الأسرة الثانية عشرة ، ووجدوا أن قوة الأمراء تجاوزت حدودها ، اضطروا إلى التسليم بالأمر الواقع ، وبذلك اعترفوا بقانون الوراثة فى المقاطعات ، لكنهم أخذوا يعملون على هدم هذا النظام شيئاً فشيئاً ، بتنصيب حكام موالين لهم على تلك المقاطعات ، والقضاء على الأسر الوراثية ، كلما أمكن ذلك .

وقد أراد أحد الفراعنة - جرياً على تلك السياسة التى استنوها - أن ينصب حاكماً يثق به على إحدى المقاطعات ، بدلاً من آخر يستحقها بالوراثة ، فقام العراك بين الاثنين . . من هنا وقف (رع) يعاضد (ست) فى الخصام الذى جرى بينه وبين أخيه على وظيفة الملك التى آلت إلى (حور) بطريق الوراثة . .

فالقصة إذن تشرح فى طياتها موقفاً سياسياً تاريخياً يدور حول ماكان يلاقه الملك فى ذلك الوقت من صعوبات - الأدب المصرى القديم ج ١ ص ١٤٧ .

ولعله من الجرأة الفنية أن تعالج القضايا السياسية ، أو الإنسانية ، على مستوى الآلهة ، لكن مما يهين لهذه الجرأة أن الآلهة لم يكونوا إلا رموزاً أو (أسماء) لصفات (الإله الواحد الأحد) ، ومعروف أن الرمز لعب دوراً كبيراً فى حياة القوم الثقافية ، مما يفيد سعة آفاقهم . . وقد تجلّى هذا التناول الرمزي فى الكتابة التصويرية وفى الأعمال الفنية ، وبخاصة رسوم الآلهة ، وكذلك فى بناء الهرم الذى اتخذ من أقدس شكل يرمز به إلى الشمس ، ترسل أشعتها ، وفى العبارة كذلك ، فما أعجب أن تجد فى (متون الأهرام) ، أن الحساء (طهى للملك من عظام الآلهة) !! الأدب المصرى القديم ج ٢ ص ١٨ / ٢٠ و ص ٣٧ / ٥٤ .

* وإذا كانت قصة («حور» و «ست») لم تصل قديماً إلى خشبة المسرح ، فإنها مالبت أن صيغت فى شكل درامى . أما (دراما التتويج) فتتناول تتويج الملك (سنوسرت الأول) بعد موت والده (أمنمحات الأول) .

وقد وضع الأستاذ (زيتة) فى درس هاتين الدرامتين مؤلفاً خاصاً سماه (التون التمثيلية) .

وتقع (دراما التتويج) فى (سته وأربعين منظراً ، ومن يطلع على المتن الأصلي ير أن كل منظر من مناظره قد يدخل فى تمثيله أشخاص كالكهنة والموظفين وأقارب الملك ، وحيوانات كالثيران والماعز ، وكذلك يدخل فى تمثيله أشياء جامدة كالأعمدة المقدسة والأشجار والنباتات والخبز والحلى . . إلخ) - الأدب المصرى القديم ج ٢ ص ٢٤ .

وأما (الدراما المنفية) التى وجدت على حجر أسود محفوظ بالمتحف البريطانى ، استعمله القرويون المصريون قاعدة لطاحون تطحن غلالهم - فقد كانت أسبق عمل درامى ، إذ ظهرت حوالى سنة ٣٤٠٠ ق.م ، أى من عهد الأسرة الأولى ، أسرة مينا ، على حين ظهرت دراما (انتصار حور على أعدائه) فى الأسرة الثالثة ، و (دراما التتويج) فى أوائل الدولة الوسطى ، حوالى سنة

٢٠٠٠ ق. م . . هذا على حين ظهرت أول دراما يونانية لإسكلس سنة ٤٩٩ ق. م ، مع التحفظ على مفهوم (الأولية) .

و (مسرحية منف) تشبه كل الشبه القصص المقدسة التي مثلت في المسرحيات المسيحية الرمزية في القرون الوسطى ، تبرز هذه المسرحية لنا إله الطبيعة القديم ، إله الشمس (رع) ، قاضياً يحكم في شئون البشر ، فهو يحكم عالماً يرى من واجبه توجيه حياة البشر فيه ، طبقاً لقواعد تفصل بين الحق والباطل .

ويمكن تلخيص هذه المسرحية في أنها محاولة لتفسير أصل جميع الأشياء ، ويدخل في ذلك نظام العالم الخلقى ، وأن هذا الأصل يرجع إلى (بتاح) إله (منف) ، أما كل العوامل الأخرى التي ساعدت على خلق العالم ، أو المخلوقات التي كان لها نصيب في ذلك ، فلم تكن إلا مجرد صور أو مظاهر لبتاح ، إله منف المحلي ، المسيطر على أصحاب الحرف والصناعات ، ومن ثم يعد إله كل الحرف .

وتقول المسرحية : (حدث أن القلب واللسان تغلبا على كل عضو في الجسم ، وعلمنا الإنسان أن «بتاح» كان في كل صدر ، على هيئة القلب ، وعلى هيئة اللسان في كل فم ، سواء في ذلك جميع الآلهة ، وجميع الناس ، وجميع الماشية وجميع الزواحف ، وسائر الأحياء ، وفي الوقت نفسه يفكر فيما يشاء ، ويأمر بكل ما يريد) .

(وبذلك يسير كل عمل ، وكل حرفة ، فنشاط الذراعين ، وسير الساقين ، وحركة كل عضو ، تكون حسب هذا الأمر الذي يديره القلب ، والذي يخرج من اللسان ، وهو الذي يجعل لكل شيء قيمة) .

(وحدث أن قيل عن «بتاح» أنه خلق «آتوم» ، وأوجد الآلهة ، وهو «تاتن» - اسم بتاح القديم - مصور الآلهة ، ومنه خرج كل شيء ، سواء أكان طعاماً أم غذاء ، أم مثونة للآلهة ، أم أي طيب في الوجود) .

(وهو الذي صور الآلهة ، وأقام المدن ، وأسس المقاطعات ، وأقام الآلهة في أماكنهم المقدسة ، وثبت دخلهم المقدس ، وأعد محاربيهم ، ونحت تماثيل

لأجسامهم ، كما تحب قلوبهم ، وبذلك حلّت الآلهة فى أجسامها المصنوعة من كل نوع من الخشب ، ومن كل صنف من المعادن ، ومن كل نوع من الطين ، ومن كل ما ينمو عليه - أى على «بتاح» بصفته الأرض - من الأشياء التى صنعت منها هذه التماثيل) - فجر الضمير ص ٥٢ / ٥٤ .

- ٥ -

هذه مجرد نماذج لفن تفردت به مصر القديمة ، شأنها فى كثير من الفنون والوسائل الحضارية الأخرى ، مع ضرورة ألا ننسى ضياع أكثر النصوص للأسباب الكثيرة التى تكررت الإشارة إليها .

لكن ثمة فنا أوسع مجالاً من المسرحية ، وأبعد تأثيراً فى الفن اليونانى ، هو (القصة) بأفاقها المتنوعة .

فهذه قصة (الملاح الغريق) - مقتنى متحف ليننجراد - يرجع زمن كتابتها إلى الأسرة الثامنة عشرة (١٥٥٠ / ١٣٠٧ ق.م) وتذكر أن الفرعون أرسل أحد أمراء «ألفنتين» إلى الصومال ، أرض الآلهة ، ليحضر بعض النفائس ، لكنه فشل فى مهمته ، وأحزنه الأمر حزناً شديداً ، فأراد تابعه الأمين أن يخفف عنه ، فروى له (أنه كان مسافراً على ظهر سفينة إلى بعض الأصقاع الغنية بمعادنها ، ليؤدى رسالة ملكية ، وحدث أن ثارت عاصفة هوجاء حطمت السفينة ، فغرق ركابها ، ولم ينج سواه ، حيث حمله الموج إلى جزيرة ، ولما أفاق من غشيته رأى أمامه ثعباناً هائلاً ، فكاد يطير قلبه شعاعاً ، لكن هذا الثعبان الهائل أحسن استقباله ، وأخذ يسرى عنه ، ثم ذكر له أن سفينة مصرية ستمر بهذه الجزيرة ، وتحمله إلى مصر سالماً) ، وما كاد يحين موعد عودته حتى زوده الثعبان بكثير من النفائس - الأدب المصرى القديم ج١ ص ٥٨ .

وهذه القصة دخلت فى متن قصة عوليس فى الأوديسه ، كما دخلت فى قصة السندباد البحرى فى (ألف ليلة وليلة) ، ويمكن أن تكون أساساً لقصة (الجساسة والمسيخ الدجال) فى التراث العربى . . وقد تبين عالم المصنولوجيا الروسى جوليتشيف أن أحداث القصة موجودة فى الأوديسه ، لابعناها فحسب ، بل بسياقها ، وبكل ما فيها من الأوصاف ، وبالكثير مما فيها من التعبيرات . . ولم يكد جوليتشيف يقف على هذه الحقيقة حتى أذاعها فى رسالة ذكر فيها نصوص ورقة البردى إلى جانب النصوص المماثلة من الأوديسه ، فوصلت هذه الرسالة إلى (مورى) فى باريس ، فدرس ملف البردى الذى ترجمه جوليتشيف ، وأيد ما أثبتته جوليتشيف وزاد عليه .

يقول مورى : (من كل هذه الموازنات التى أبرزها جوليتشيف بدقة تامة ، يتضح لى ، كما اتضح له ، أن هناك فى الواقع أكثر من مشابهة عرضية بين القصة المصرية وقصة عوليس عند الفياسين ، وليس ذلك مقتصرًا على الجزئيات التى يمكن أن توجد على انفراد فى كل قصة يدور الكلام فيها على سائح ينجو من الغرق ، بل المجموع يدل أيضا على أن الفكرة فى القصتين واحدة) .

وهذه القصة التى ترجمها جوليتشيف هى واحدة من عشرات من أوراق البردى التى بقيت بعد خمسة آلاف سنة تقلبت على مصر ، فأمكن أن تنجو من التدمير ، فكيف لو أن المكتبات التى ثبت أن مصر كانت تعمربها من الأسرة السادسة - أى من خمسة آلاف سنة - بقيت ، ولم تعد عليها عوادى البلى والنهب والحريق - على هامش تاريخ مصر القديم ص ٨٠ .

ونجد هومير قد استعان فى الأوديسه بما جاء فى قصة (ساتنى وولده) المصرية ، ذلك أن عوليس ينزل إلى الجحيم ، ويقول : (رأيت مينوس جالسا والصولجان المذهب فى يده ، وهو يقضى بين الأموات ، وهؤلاء مجتمعون حوله يعرضون قضاياهم عليه ، جالسين أو واقفين فى دور الهاديس - دار الأموات أو دار الجحيم - ذات الأبواب الواسعة) .

ويلاحظ أن عوليس ينزل إلى الجحيم فى قصة هومير ، وساتنى وولده ينزلان إلى الجحيم فى القصة المصرية . . وأن الأموات يعرضون قضاياهم على مينوس فى جحيم هومير ، والأموات يناديهم المنادون لعرض قضاياهم على أوزير فى القصة المصرية . . وأن الأموات واقفون أو جالسون فى دور الهاديس ذات الأبواب الواسعة ، والأموات واقفون أو جالسون فى سبع قاعات فى القصة المصرية .

ولاتكاد تختلف جحيم هومير عن الجحيم المصرية إلا فى أن الأموات فى جحيم هومير يعرضون قضاياهم على مينوس بأنفسهم ، وبدون نظام ، بينما الجحيم المصرية فيها منادون ينادون القضايا واحدة بعد أخرى ، هذا إلى أن فى الجحيم المصرية ميزانًا يصدر الحكم ، تبعًا لنتيجته ، وليس فى جحيم هومير غير مينوس يقضى بإرادته .

هذا من ناحية الشكل ، أما من ناحية الموضوع فإن التقاضى عند هومير
كالمنازعات التى تكون بين الأحياء ، وليست حساباً يؤديه الأموات عن أعمالهم
فى الحياة ، وبهذا تفقد جحيم هومير كل القيمة التهذيبية التى للجحيم المصرية -
على هامش التاريخ المصرى القديم ص ٦٣ .

وثمة قصص أخرى ، لعل أشهرها وأكثرها انتشاراً قصة (شكاوى الفلاح
الفصيح) التى وقعت حوادثها فى عهد الملك (نب كا ورع) الذى حكم البلاد فى
نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد ، أى تعد أقدم من قصة (الملاح الغريق) ،
وكذلك قصة سنوحى أو (سنوهيت) التى جرت أحداثها أوائل الأسرة الثانية
عشرة ، حوالى سنة ٢٠٠٠ ق.م ، فضلاً عن قصة الراعى ، وقصة هلاك
الإنسانية ، وقصة الملك خوفو والسحرة ، وقصة الأخوين ، وقصة الأمير
المسحور ، وغيرها من القصص التى عنى بنشرها الأستاذ سليم حسن فى كتابه
(الأدب المصرى القديم) ج١ ص ٤٠ / ١٨٠ .

- ٦ -

من أهم المعالم الحضارية (البريد) ، فى داخل الدولة وخارجها ، وهو يقوم بدور خطير فى نقل الأخبار ، وتدعيم العلاقات بين الأفراد وبين الدول ، وقد يقوم بدور المخابرات العسكرية والأمنية المحلية .

وقد وجدت رسائل تحمل عناوين ، مما يفيد قيام شخص بتوزيعها ، (ولو كان الأمر مقصوراً على حمل رسالة واحدة لما احتاج إلى كتابة عنوان ، إذ كان فى قدرة حاملها أن يحفظه) .

(وأول وثيقة عرفنا منها لفظ «ساعى بريد» رسمى ، يرجع تاريخها إلى الأسرة السادسة ، وكان ذلك فى رسالة شكوى ، جاءت فيها لفظة «ساعى بريد» مرتين) .

(أما فى الدولة الحديثة فنعرف أن حامل البريد الرسمى كان يسمى «حامل الرسالة الرسمية» ، وجاء فى ورقة «آبوت» أن رجال الشرطة كانوا يكلفون توزيع وثائق رسمية ، وكان من الجائز أن يحمل حامل البريد الرسمى رسائل شخصية ، إذا اتفق أنه ذاهب إلى مكان المكتوب إليه) .

(ولدينا وثيقة يفهم منها أن البريد كان يحمل إلى البلاد الأجنبية بوساطة الجياد التى كان لها محاط خاصة لتغييرها فى الطريق) - الأدب المصرى القديم ج ١ ص ٣٥١ / ٣٥٢ .

ومن الرسائل الشخصية :

كتب (بيبس) إلى أستاذه (أمنموبى) يصف مدينة (بر رعمسيس) :

(لقد وصلت إلى مدينة «بيت رعمسيس» ، محبوب آمون ، ووجدتها غاية فى الازدهار ، وهى عرش جميل منقطع النظير ، وهى على طراز «طيبة» ، وإن «رع» هو الذى أسسها بنفسه ، فهى المقام الذى تلذ فيه الحياة) .

(حقلها مملوء بكل ما طاب ، ولديها مؤن وذخيرة كل يوم ، بركها تزخر بالسمك ، وبحيرات بالطيور ، حقولها يانعة بالبقل ، وشواطئها محملة بالبلح ، ومخازنها مفعمة بالشعير والقمح ، وهى تناطح السماء فى ارتفاعها ، وفيها

الثوم والكراث للطعام ، وخس الجنية ، وفيها الرمان والتفاح والزيتون والتين من البساتين ، وخمر « كنكمة » اللذيذة التى تفوق الشهد حلاوة ، وفيها سمك «وز» الأحمر من قناة . . . وسمك «تب» من بحيرة «نهر» .

ومن رسالة حاكم إلى تابع ، وهى تكشف عن مدى الثراء والوفرة التى كانت تنعم بها مصر :

(وبعد ، فعندما يصل إليك خطابى ، يجب عليك أن تدفع الضريبة ، مع كل مايتعلق بها من ماشية ، ومن عجول وثيران ذات قرون قصيرة ، ومن غزلان وتياتل وأوعال ونعام ، وإن قوارب حملها وسفن نقلها مستعدة فى الحال ، وبحارته وملاحوها مجهزون للسفر ، وتدفع ماعليك من ذهب كثير ، قد صيغ أطباقا ، وذهب صاف بالمكيال ، وتبر حسن من الصحراء موضوع فى حقيبة من الكتان الأحمر ، وكذلك تدفع ماعليك من العاج والأبنوس وريش النعام وثمر النبق . . إلخ) .

ومن تلميذ إلى معلمه :

١- (لقد ربيتنى صغيرا ، حينما كنت معك ، وقد ضربت ظهري ، ولذلك دخل تعليمك إلى أذنى ، وإنى كالجواد الشارد ، فلاياتى النوم نهارا إلى قلبى ، ولا يأخذنى ليلا ، لأننى أريد أن أكون مفيدا لسيدى كالحادم النافع لصاحبه) .

٢- (ليت آمون يمنحك السرور فى قلبك ، وليته يهبك عمرا طويلا حسنا ، حتى تعيش عيشة سعيدة ، وحتى تبلغ العلا ، وتكون شفقتك فى صحة ، وأعضاؤك نامية ، وعينك تبصر على بعد) - الأدب المصرى القديم ج ١ ص ٣٨٤ / ٣٩٠ .

* مع أن الرسائل السابقة لا تكاد تختلف فى أسلوبها ومعانيها عن رسائل اليوم ، فإن رسائل (حقانخت) إلى ابنه الأكبر تنطق (بلازمات) الرسائل (الأسرية) اليوم ، وبخاصة رسائل العمال والمجندين :

١- (وبلغه تحياتى ألف مرة ، اعتن به ، وأرسله إلى مباشرة ، بعد أن تنتهى من زرع الأرض) .

٢- (سلم لى على أمى « إيبى » ألف مرة ، ومليون مرة ، وسلم على «حتيت»
وجميع العائلة ، وسلم لى على «نفرت» ، أما عن موضوع إيذاء محظيتى ،
فإنى أحذرك ، إنك لست شريكاً لى ، وخير لك أن تسكت) .

٣- (انظر ، إنها محظيتى ، ومن المعلوم جيداً أنه يجب إحسان معاملة محظية
الإنسان . . . كيف يمكننى أن أعيش معكم فى مكان واحد ، إذا كنتم
لا تحترمون محظية لأجل خاطرى (١٩) - مصر الفرعونية ص ٢٠٦ .

* فى سنة ١٨٧٧م كان جماعة من أهل قرية الحاج قنديل يحفرون فى تل
العمارنة ، أو قرية بنى عامر ، ليجثوا عن طوب وحجارة لمساكنهم ، وكان أهل
هذه القرية وأهل القرى المجاورة لها قد ألفوا من أزمنة بعيدة أن يلتمسوا فى هذا
المكان ما يريدونه من سجاد لحقولهم ، وأدوات لمبانيهم . . وتناول أحدهم قالباً
ونظفه من التراب المتراكم عليه ، وفوجئ بأن النقوش تغطى جوانبه ، وتتنظمها
صفوف لا عوج فيها ولا انقطاع ، فعرض الأمر على زملائه ، فنظفوا هم أيضاً
قوالب أخرى ، فإذا النقوش لا تختلف ، وظهر إلى جانب ذلك أن من الطوب
ما هو أسود ، ومنه ما هو أصفر ، ومنه ما هو أحمر ، فلم يبق لديهم شك أنهم
عثروا على لُقىة أثرية ، فعادوا يحفرون بحذر واحتياط ، فوجدوا حفرتين
عميقتين صُفَّتَ فيهما قوالب من ذلك الطوب الملون المنقوش .

ولم تمض أيام حتى انتقلت هذه القوالب إلى أيدي تجار الآثار فى إخميم
والأقصر والقاهرة .

ولقد قيل إن عدد القوالب يبلغ بضعة ألوف ، ولكن تبين أن عددها الصحيح
ستمائة ، تلف منها فى أيدي العلماء نصفها .

وعرف أن هذه القوالب تحوى رسائل سياسية بين فراعنة مصر من جانب ،
وملوك بابل وآسيا الصغرى وحكام سوريا من جانب آخر ، ووضح فى الوقت
نفسه أن هذه الرسائل أقدم مكاتبات سياسية يعرفها العالم ، وأن فيها من البيانات
ما يكشف عن العلاقات التى كانت بين مصر وجيرانها ، فى عهد الأسرة الثامنة
عشرة ، أى فى حدود ألف وخمسمائة سنة قبل الميلاد .

كانت فى «طيبة» دار تحتفظ بالمراسلات الخارجية ، فَبُنِيَتْ فى «أخيتاتون» دار لهذا الغرض ، ملحقة بقصر الملك ، ونقلت إليها المراسلات التى كانت محفوظة فى طيبة .

وتبين أنه كان لهذه الدار موظفون يتولون إدارتها ، وتنظيم الرسائل فيها ، بحيث يسهل الرجوع إلى ما يريدون الرجوع إليه فيها ، وكان من هؤلاء الموظفين مترجمون يعرفون اللغة العربية وخطها المسماري ، ومترجمون آخرون يعرفون لغات أخرى .

ولما ترجم علماء اللغة البابلية القديمة جميع الرسائل التى احتواها طوب تل العمارنة تبين فى الحال أنها رسائل متتابعة ، كانت منظمة فى مستودعها ، على أساس هذا التتابع ، منها ٦ رسائل من ملك بابل ، و ٩ من ملك الأزيا - شمالى سوريا - و ٤ رسائل من ملك «ميتانى» - شمالى الأزيا ، ويقع فيها لواء الإسكندرونه الآن - و ٤٦ رسالة من حاكم سوري يسمى (ريب أدى) ، ونحو ١٠٠ رسالة من حاكم مدينة أورشليم ، يسمى (أرادهيبا) ، وحاكم لمدينة فى سوريا يسمى (أزيرو) ، ومن غيرهم من الحكام فى سوريا وفلسطين .

وهذه الرسائل كلها موجهة إلى كل من أمينوفيس الثالث ، وأمينوفيس الرابع .

ويقدر العلماء المدة التى كتبت فيها هذه الرسائل بخمس عشرة سنة أو عشرين .

ومن هذا يتبين أن ملوك بابل وملوك آسيا الصغرى وحكام سوريا وفلسطين كانوا فى ذلك الوقت يكاتبون فراعنة مصر بالخط المسمارى البابلى ، لا بالخط المصرى ، وأنهم كانوا جميعا يستخدمون فى كتابتهم قوالب الطوب لا الورق الذى كان المصريون يكتبون عليه .

ومعروف أن مملكة بابل كانت قد غزت سوريا ، قبل أن تغزوها مصر بأجيال ، ولهذا انتشرت فيها العادات البابلية ، واللغة البابلية ، والخط البابلى ، فلما غزاها المصريون - بعد طرد الهكسوس - اكتفوا بأن تخضع لهم ، وتؤدى

الجزية ، ولم يحاولوا أن يفرضوا عليها لغتهم ، ولا عاداتهم ، ولا تقاليدهم ، ولا ملابسهم ، بل تركوا لأهلها وللممالك المجاورة لهم أن يأخذوا من حضارتهم ما يريدون ، ويتركوا ما يريدون .

وهذه سمة من السمات المصرية التي تتصف بالسماحة واللين .

يقول حول بابه : كان العرف جاريا (أن للمنتصر أن يذبح الأسرى ، وينهب الأموال ، بل كان له أن يتصرف فى أرواح وأموال البلاد المغزوة ، ولم يخرج على هذا العرف إلا المصريون ، لأنهم امتازوا وحدهم بمعاملة الأسرى وأهالى المدن المغزوة معاملة فيها كثير من الرأفة والرفق) .

ويقول بابه : (لم يعرف عن المصريين أنهم استخدموا التعذيب أو التفنن فى القسوة فى معاملة المغلوبين فى الحروب ، كما كانت تفعل الشعوب الآسيوية ، فليس فى تاريخهم شئ عن الأسرى الذين يُغرزون غرزا فى الخوازيق وهم أحياء ، ولا عن سمل عيونهم ، ولا عن كسر أنوفهم ، ولا عن صلم آذانهم ، ولا عن قطع شفاههم وألسنتهم وأرجلهم وأيديهم ، كلا ، ولا عن قتل النساء والأطفال أو حرقهم ، ولا عن سلخ جلود الملوك والرؤساء وهم أحياء ، ولا عن صلبهم ، ولا عن ربطهم وهم أحياء بين ألواح من الخشب ثم شقهم بالمنشار) .

* وقد وجدت على أحد القوالب عبارة (مكان المحفوظات من القصر الملكى) .

كما وجدت فى إحدى الرسائل كلمة يطلب كاتبها من فرعون مصر أن يرجع إلى الرسائل المحفوظة فى مكاتبه ، مما يفيد أن المستودع كان داراً للمحفوظات ووزارة الخارجية .

كما عثر (بترى) على بعض القوالب مكتوب عليها (معجم وضع لتعليم من يريد تعلم اللغة البابلية والخط المسمارى من المصريين) ، أو لعله مرجع الموظفين المصريين فى وزارة الخارجية ، وقد وجد على هامش أحد قوالب المعجم عبارة (بأمر ملك مصر) .

وقوالب هذا المعجم ينقسم سطحها إلى ثلاث خانات عمودية متساوية :

الأولى فيها الكلمة المصرية ، والثانية فيها الكلمة باللغة البابلية ، والثالثة فيها نطق الكلمة فى اللغة البابلية مكتوباً باللغة المصرية .

وقد وجد كتاب طويل كتبه أمينوفيس باللغة البابلية والخط المسمارى على قوالب من الطوب يرّد به على كتاب جاءه من ملك بابل .

ومن هذه المكاتبات كتاب من ملك الأزيا يقول :

(إلى ملك مصر ، وأخى ، أقول : أنا ملك الأزيا ، أخوك ، صحتى جيدة ، وإنى أبعث بأفضل تحياتى إليك ، وإلى أقاربك ، وإلى خادمايك ، وإلى أبنائك ، وإلى زوجاتك ، وأبعث أيضاً بتهانى لك على عرباتك العديدة ، وخيولك ، كما أبعث بتمنياتى لبلادك مصر) .

لا أدرى كيف أخطأ هذا الملك فقدم الأقارب والخادومات على الأبناء والزوجات ، إلا أن يكون هذا من خطأ الترجمة .

وكتب (بورنار بورياش) ملك كاردويناش (بابل) إلى ملك مصر . . بعد الديباجة :

(لقد انحرفت صحتى منذ اليوم الذى جاء فيه رسول أخى ، ولم يشجعنى أخى فى طول المدة التى بقيت فيها صحتى منحرفة ، ولهذا استأت من أخى وقلت : ألم يسمع أخى أننى مريض ؟ لماذا لم يبعث لى رسولا ، ولم يظهر اهتماما بى ؟) .

(وقد أجاب رسول أخى على ذلك بقوله : إن مصر ليست قريبة ، لكى يسمع أخوك بمرضك ، ويرسل إليك رسولا يستعلم أخبارك) .

(وفى الواقع أننى استفهمت بعد ذلك من رسولى ، فقال لى : «إنها رحلة طويلة جداً» ، فمنذ سمعت ذلك لم يبق فى نفسى استياء من أخى) .

كيف غاب عن ملك له صلات بمصر ، ورسل يذهبون ويعودون ، لا يعرف أين تقع مصر من بلاده ؟ وهل كان الملك يكتب رسائله بيده ، ومن وحى اللحظة ، دون مراجعة مستشاريه ؟

ومن رسالة هذا الملك إلى أمينوفيس الرابع ملك مصر :

(حينما كان والدى «كوريجالزو» حيا أرسل إليه ملك كنعان رسولا قال له : «هيا فلندخل مدينة كارميشات ، ولنحارب فرعون معا ، فبعث إليه أبى يقول : «لاتفكر فى الاتفاق معى ، فإن كنت تريد معاداة ملك مصر ، فابحث لك عن حليف غيرى أنا فإنى لأأسير فى هذا ، ولا أدمر بلاد ملك مصر ، لأنه حليفى» ، وهكذا رفض والدى أن يصغى إلى ملك كنعان ، حبّا فيك .

والآن ، فإن ملك آشور تابع لى ، ولست فى حاجة لأن أقول : لماذا هو يطلب صداقتك ؟ فإن كنت تحببى فلا تعقد معه معاهدة ، واطرده بعيداً جداً) .

وكتب أحد ملوك بابل إلى أمينوفيس الثالث :

(حينما طلبت يد ابنتك أرسلت لى تقول : «لم يحدث قط أن أعطيت بنت ملك مصر إلى أجنبى» ، فلما بلغتنى هذه الكلمات أرسلت إليك أقول : «إذا أنت بعثت بها إلى وأنت آسف ، فخير عندي ألا تبعث بها» ، إنك لاتنظر إلى بين العطف الأخوى ، وأنت تعلم مع ذلك أنك حينما كاشفتنى برغبتك فى أن تعقد بينى وبينك رباط زواج ، أجبتك إلى ما تريد ، وأظهرت فى ذلك كل الطيبة التى يكتنها أخ لأخيه ، والآن ، وقد كاشفتك برغبتى فى رباط زواج بينى وبينك ، لماذا تأبى بنتك على ؟ لماذا ترفض أن تعطيتها لى ؟ لو أنى كنت قد رفضت إجابتك إلى رغبتك ، لكان الرفض من جانبك الآن مفهوما ، ولكن بناتى كن رهن أمرك ، وأنا لم أرفض لك طلباً) .

وكتب حاكم صيدا :

(أخبر مولاي الملك أن عبدته التى جعلها وديعة فى يدي ، وهى مدينة صيدا ، هادئة ، وحينما وصل إلى الأمر الذى أرسله مولاي الملك ، امتلأ قلبى فرحاً ، وقد رفعت رأسى ، وفاض النور على وجهى وعينى ، حينما قدم أمر مولاي الملك .

إن خادمك يبعث إليك مائة ثور ، ويبعث أيضاً رقيقات ، وهذا إخبارك بذلك ، للملك مولاي ، وشمس السماء) .

النوبة كنز الآثار الضائع

- ١ -

بقيت النوبة آلاف السنين من أهم مناطق القارة الأفريقية .
حدودها ليست محددة على خريطة ، فتاريخها سجل حافل بتحركات
الجيوش .

لم يحدث أن استقلت بشئونها ، مع أن سكانها لهم جنسية مميزة ، فهم
يرتبطون ارتباطاً وثيقاً عن طريق الدم والأسلوب الواحد في الحياة ، بالرغم من
كونهم معبراً بين الشمال والجنوب ، لكنه معبر ضيق لا يتسع لإقامة العابرين .

إنه وطن مقسم بين الشمال والجنوب بفاصل حجري يعترض مجرى النيل ،
ويبدو أن هذا الفاصل ارتبط بعدم قدرة الشمال على مديديه إلى أبعد من هذا ،
ومن ثم صارت النوبة السفلى ، بين الشلال وأدندان جزءاً من مصر ، وصارت
النوبة العليا ، بين أدندان ودنقلة ، جزءاً من السودان .

وقد سميت النوبة بهذا الاسم ، لأن كلمة (نوب) في المصرية القديمة تعنى
الذهب ، وكانت هذه البلاد موطن استخراجها .

يقول وولتر إمري : من النادر أن يتزوج النوبى غير نوبية ، مع أن الرجل كثير
الترحال ، والمرأة لاتكاد تغادر قريتها ، إذ يقيم فى أرض النوبة كبار السن
والسيدات والأطفال ، يعتنون باستثمار الأراضى الزراعية المحدودة ، على حين
يشتغل سكان وادى حلفا وعنينة وغيرها من المدن والموانئ بالتجارة والملاحة
والصيد ، ومن هنا كان الرجال أكثر استقراراً .

والمنازل النوبية شيّدت من الطين ، جدرانها بيضاء ، وأسقفها على هيئة
قباب ، وأبوابها مزخرفة ، ولها طراز معمارى يفوق فى روعته ما نجده فى القرية
المصرية - مصر وبلاد النوبة ص ٩ / ١٥ .

- ٢ -

قبل أن يغزو جنس الأسرات مصر (٣٤٠٠ ق. م تقريباً) كانت النوبة قليلة السكان ، ولم يظهر الاتصال بشمال وادى النيل إلا عن طريق بعض الجبانات الموجودة جنوبى الشلال ، ثم نجد ازدياداً فى عدد السكان ، ودخول حضارة جديدة فى النوبة ، بسبب تسرب عدد كبير من سكان ما قبل الأسرات ، منسحجين تحت ضغط الأسرات نتيجة غزو المتقدمين من الفراعنة المصريين ، أو تحرك عدد كبير من شمال السودان إلى هذه المنطقة .

لكن الإخضاع الحقيقى للنوبة كان عندما بعث سنفرو ، آخر ملوك الأسرة الثالثة ، جيشاً فى حملة كلّفت البلاد سبعة آلاف أسير ، ومائتى ألف رأس من البقر .

وقد أظهرت الاكتشافات الحديثة فى (بوهن) وجود مستعمرة مصرية كبيرة ، ظلت أكثر من مائتين وخمسين سنة ، أثناء حكم الأسرتين الرابعة والخامسة ، بلا انقطاع .

وقد عثر على كمية كبيرة من الأوانى الفخارية المصرية الصنع تؤكد أن (بوهن) كانت مركزاً تجارياً هاماً .

وفى عهد الأسرة الرابعة (٢٦٨٠ - ٢٥٦٥^(١) ق. م) اكتشف عمال المناجم المصريون مواطن الديوريت الخفيف الجميل الذى استعمل لتمثيل ملوك الدولة القديمة والوسطى ، فى منطقة تبعد ٨٠ كم غربى (توشكا) .

وكان للمصريين طوال عصر (مرن رع) نشاط واسع فى النوبة ، تحت إشراف موظفين بارعين ، هما (أونى) و (حارخوف) ، وكان (أونى) نبيلاً عظيماً ، له خبرة بالشئون النوبية ، تحت حكم (يبى) الأول ، الملك الذى سبق (مرن رع) ، عندما بعث فى مهمة ، ليجمع الجند لجيوش الفرعون الذين قاموا بحروبه ، ضد قبائل الصحراء الشرقية .

أما النبيل (حارخوف) فيمكن اعتباره أول رحالة مسجل فى التاريخ ، وقد

(١) الأرقام فى (تاريخ مصر) لبريستد مختلفة .

بعثه (مرن رع) على رأس حملة لفتح طرق المواصلات ، مع (أيام) جنوبى الجندل الثانى ، أو فى الجنوب عند دارفور ، ، وقد استغرقت الحملة سبعة أشهر ، متخذة طريق (أليفنتين) ، أو الطريق الصحراوى الموازى للنهر ، ولايزال حتى اليوم طريقاً لقوافل الجمال المتجهة من السودان إلى أسواق مصر .

وبعد استراحة دامت بضع سنين ، قام (حارخوف) برحلة أخرى فى مجاهل الجنوب ، وسلك مايسمى اليوم (درب الأربعين) فى الصحراء الغربية ، وقد علم (حارخوف) أن رئيس قبيلة (أيام) مرّ قبله فى طريقه لحرب (التمحو) - السكان الليبيين فى الواحة الخارجة - فلاحق به (حارخوف) ، وسعى فى الصلح بينهما .

وبعد استيلاء (سنوسرت) على الجندل الثانى ، أقام سلسلة من الحصون ، كانت أعظم الموانع الحربية التى صنعتها أيد بشرية من قبل .

ومنذ أواخر الأسرة الثانية عشرة ، كان تسرب القبائل السامية الآتية من فلسطين يقلق المصريين ، ومع ضعف الحكم المركزى فى الأسرة الثالثة عشرة اتخذ هذا التسرب شكل الغزو ، وقد عرف قواد هذه القبائل عند المصريين بـ (حكاخسوت) أى (حكام البلاد الأجنبية) ، التى اشتقت منها كلمة (هكسوس) ، وقد امتد نفوذ الهكسوس شيئاً فشيئاً حتى (قوص) .

يقول (جوزيفوس) عن رواية (مانيتون) المؤرخ المصرى :

(لا أعرف لماذا ابتلانا الله بعاصفة من عنده ، إذ دخل علينا من الشرق - على حين غرة - غزاة من أصل غير معروف ، واثقين من الانتصار على بلادنا ، فاستولوا بالقوة عليها ، دون أن يوجهوا ضربة واحدة ، وبعد انتصارهم على حكام البلاد أحرقوا مدننا من غير رحمة ، وسوّوا معابد آلهتنا بالأرض ، وعاملوا أهلها بعداء صارم ، فقتلوا وأسروا وسبوا النساء والأطفال ، وأخيراً وضعوا أحدهم على العرش آنذاك فى منف ، وكانوا يجبون مصر العليا ومصر السفلى ، تاركين دائماً قوات عسكرية فى أكثر الأماكن ملائمة) .

وقد أقيم حلف بين ملوك الهكسوس ورؤساء قبائل كوش ، واضعين أمراء

طيبة وأتباعهم بين نارين ، فاضطروهم إلى أن يظلوا في حالة دفاع عدة سنين ، حتى جاءت الأسرة السابعة عشرة (١٦٠٠ - ١٥٧٠ ق.م) ، فأخذت الروح المصرية تقوى بالتدريج ، وقامت حروب التحرير تحت حكم (كامس) أحد ملوك هذه الأسرة .

واعتلى (أحمس الأول) ، مؤسس الأسرة الثامنة عشرة ، العرش سنة ١٥٧٠ ق.م ، وأمضى الجزء الأكبر من حكمه في حروب لطردهم الهكسوس من مصر ، حتى وصلوا إلى الجنوب الغربي من فلسطين ، وفي العام الثاني والعشرين من حكمه أعاد غزو النوبة ، بعد أن أصبح متمرساً ، صاحب سجل طويل من الأعمال المجيدة - مصر وبلاد النوبة ص ١٧٤ / ١٧٩ .

- ٣ -

وخلال ألفى عام أو أكثر كان الوجود المصرى فى النوبة يرسى قواعده ، عن طريق الأبنية والحصون والمعابد والجبانات ، ويبدو أن طبيعة النوبة - تربة ومناخاً - كانت تشجع على مزيد من مزارع الآثار ، حتى تكاد تتفوق على مصر كلها ، إذا استثنينا معابد الأقصر وأهرامات الجيزة .

ولعل معبد (بوسمبل) يعطى صورة لاهتمام المصريين بالتاريخ ، نقوشاً وتمائيل وأبنية شامخة منحوتة فى بطون حجرية شديدة الصلابة .

إنه أكبر معبد منحوت فى الصخر ، فى العالم ، يعد آية فى العمارة القديمة ، فقد نحت فى قطعة صخرية على الضفة الغربية للنيل ، فى موضع غاية فى الجمال ، فى مواجهة (فارك) ، القرية التى تقع على الضفة الشرقية ، فى منطقة واسعة من الأراضى الزراعية .

وواجهته الكبرى تعد مظهر قوة وعظمة مصر القديمة .

وأصل فكرة تشييد معبد فى (بوسمبل) - كما يقول وولتر امرى - كانت لسيى الأول ، وقد نُحت جزء كبير من الداخل قبل أن يعتلى رمسيس العرش ، سنة ١٣٠١ ق.م ، وعندما تكفل به رمسيس كان العمل متقدماً ، وجرت العادة فى العمائر المنحوتة فى الصخر تنتهى من الواجهة قبل أن ينحت الداخل ، وعلى ذلك يحتمل أن تكون التماثيل الضخمة الأربعة التى هى أهم ميزة فى البناء كانت لسلف رمسيس .

وحسب نص مدون أن أسرى الحرب قاموا ببناء المعبد ، وأنهوا عملهم قبل سنة ١٢٥٩ ق.م . . لكن هذا القول يعنى أن الأسرى كانوا من الخبراء والفنيين ، مما قد يضيف على شعب آخر القدرة على منافسة مصر فى هذا المجال ، والتاريخ خلا من الإشارة إلى هذا (الشعب) ، وربما كان المقصود بالاستفادة من الأسرى فى الأعمال غير الفنية ، كنقل الأتربة والحفر ، ذلك لأن مصر قد اهتمت بتكوين (كوادر) فنية لهذه الأعمال من قبل بناء الأهرامات ، وكان ثمة مدينة للعمال ، وإدارة لتأهليهم ، من قبل أن يولد رمسيس بأكثر من ألف عام .

وقد كرس المعبد لعبادة (رع حور ماخيس) ، قبل معابد عديدة في النوبة ، وهذا الإله قد اندمج مع الشمس ، ويصور عادة على هيئة بشرية ورأس صقر مرتديا قرص الشمس .

وكانت الشمس تدخل قدس الأقداس ، فتضيء الداخل في أوقات معينة من السنة في الفجر .

والتماثيل الأربعة الضخمة التي نُحتت في صخر التل للملك في واجهة المعبد هي أهم الملامح ، وهذه التماثيل الجالسة ، اثنان على كل جانب للمدخل ، على ارتفاع أكثر من ٦٥ قدما ، وتمثل الملك (رمسيس) ^(١) مرتدياً التاج المزدوج لمصر ، وعلى جانبي كل تمثال وبين الأرجل نجد تماثيل للملكة نفرتارى وبعض الأطفال الملوك ، ومع أنهم مثلوا بحجم كبير فإن شكلهم يبدو صغيراً بالنسبة للتماثيل الضخمة .

وفوق المدخل نجد تمثالا للإله (رع حورماخيس) ، له رأس الصقر ، الذي خصص له المعبد .

ويوصل المدخل إلى بهو كبير ، به صفان من أربعة أعمدة تتكىء عليها تماثيل ضخمة للملك ، واقفاً مرتدياً التاج المزدوج ، وحاملاً العصا والمذبة ، وقد كسيت الأعمدة وجدران البهو الذي يصل ارتفاعه إلى ٣٠ قدما ، بمناظر ونصوص دينية وأعمال الملك الحربية في نضاله ضد الحيثيين في سوريا والكوشيين في السودان ، أما السقف فمزين بمناظر تقليدية ، وهي الخرطوش والعقاب ذو الجناحين المبسوطين .

ونجد في الجدارين الشمالي والغربي مداخل تؤدي إلى مجموعة من الحجرات ، كانت تستعمل غالبا كمخازن للكهنة ، لأن مناظر الجدران كلها دينية .

(١) المضى في الحديث عن كون التماثيل لرمسيس وزوجه وولده يخالف القول بأن المعبد انتهى العمل في واجهته قبل رمسيس ، إلا إذا كانت الوجوه لاتمثل أشخاصاً بأعيانهم ، لكن هل اتفق لسيتي الأول مثل نفرتارى وأولاد رمسيس؟

أما الباب الأوسط فى الجدار الغربى فيوصل إلى بهو صغير ، يحمل سقفه أربعة أعمدة مربعة ، والمناظر كلها فى هذا البهو ذات طابع دينى ، ونصل بعد ذلك إلى غرفة صغيرة توصل إلى قدس الأقداس الذى يحوى ثلاثة أبواب فى الجدار الغربى ، اثنان على جانبى الجدار توصلان إلى حجرات غير منقوشة ، وأما الثالث الذى يستند إلى محور المعبد المستقيم فيوصل إلى قدس الأقداس ، وفى الجدار الغربى لقدس الأقداس نجد أربعة تماثيل جالسة ، نحتت فى الصخر ، وهى تماثيل معبودات المعبد : بتاح ، وأمون ، ورمسيس نفسه ، وورع حورماخيس ، وفى وسط الحجرة نجد أمامهم مائدة قرابين غير منقوشة ، وكانت الضحايا والقرابين تقدم عليها عندما كان نور الشمس المشرقة يدخل فى الفجر ، ولقد هشم المسيحيون - غالبا - وجوه تماثيل الآلهة الأربعة - مصر وبلاد النوبة ص ٢٠٤ / ٢٠٨ .

وعلى مسافة قريبة ، شمالى المعبد الكبير ، نحت رمسيس معبدا صخريا صغيرا الملكته نفرتارى^(١) ، خصصته لعبادة الإلهة (حتحور) ، ومع أن عظمة المعبد الكبير قد حجبت هذا المعبد ، فإنه يجب وصف مبنى الملكة ، كأحد الأعمال ذات الجمال الرائع فى ذلك العصر ، وكل عصر .

ويبدو أن النحت والمناظر فى المعبدین ، من عمل فنان واحد^(٢) .

ولقد شيد رمسيس الثانى معابد مهمة أخرى فى بيت الوالى ، وجرف حسين ، والسبوع ، والدر ، وكلها نحتت جزئيا فى الصخر - المصدر السابق ص ٢٠٨ / ٢٠٩ .

لقد أسرف رمسيس فى البناء والنحت إسرافا كان من نتائجه أن نصف مابقى إلى اليوم من عمائر الفراعنة يُعزى إلى أيام حكمه . . فهو الذى أتم بناء البهو الرئيسى فى الكرنك ، وهو الذى أضاف أبنية جديدة إلى معبد الأقصر . . وهو الذى شاد ضريحه المعروف بالرمسيوم فى غرب النهر عند الأقصر ، كما أنه

(١) إذا كانت صورة نفرتارى فى هذا المعبد هى صورتها فى معبد (بو سمبل) فقد بطل القول بأن رمسيس أتم عمل سبتي .

(٢) وهذا القول يناقض أسبقية سبتي ، ويناقض القول بالاستعانة بالأسرى إلا فى الأعمال الثانوية .

هو الذى نشر تماثيله المختلفة الأحجام والمواد فى طول البلاد وعرضها .
روى أن علماء نابليون وقفوا مدهوشين أمام ضخامة حجم تمثال رمسيس
عند الشاطئ الغربى من الأقصر ، فقاموا كل جارية فيه ، وقدروا طول أذنه
بنصف قدم ، وعرض قدمه بخمسة أقدام ، وقدروا وزنه بألف طن .
وحين رآه جوته قال : (هذا هو الرجل) - أبو سمبل ص ١٠٩ / ١١١ .

- ٤ -

ومع الاحتياط الشديد فى بناء المعابد والمقابر ، وتأمين سلامتها ، واتخاذ كافة الوسائل لحمايتها - فإن أيدى اللصوص كانت قريبة من نفائسها ، منذ الانتهاء من العمل فيها .

إن أولئك الذين عملوا فى هذه المعابد والمقابر كانوا الأعلام بأسرارها وبمداخلها ، وكما يقول المثل اليوم (حاميه حراميه) ، وكما هو حادث اليوم أن الذين يسرقون (المخازن) هم حراسها ، الذين لا يلبثون أن يشعلوا النار فيها لتضييع معالم جرائمهم . . لهذا نجد سرقة الآثار ، منذ كانت هذه الآثار ، وما دخلت أقبية التضييل فى بناء المقابر ، وما كانت المصاطب الحجرية ، وما كان البعد بالآثار فى بلاد النوبة أو فى الصحراء - إلا اعترافا بخطر هؤلاء اللصوص .

ومنذ عهد الدولة القديمة ، كان من عادة المصريين أن ينحتوا أو ينقشوا فى أمكنة مختارة ، وبحروف كبيرة الحجم ، إنذارات تخطر من يسى التصرف فى المعبد ، كأن يتلف أو يسرق التماثيل أو الرسوم أو النصوص المكتوبة ، أو أى شئ من الأثاث الجنائزى - بأن عمله السيئ لن يظل دون عقاب :

(كل من قام بأى عمل ضد ما هو موجود بهذا المكان ، فليهاجمه التمساح فى الماء ، والثعبان فى الأرض ، ولن تعمل له أبداً احتفالات جنارية ، والإله هو الذى سيتولى إدانته) .

وكان ثمة قسم يؤدى فى المعابد والمقابر ، كذلك الذى أقسمه (باو متاويت) :
(بحياة آمون ، وحياة الفرعون ، إذا ثبت أننى تعاونت مع أى من اللصوص تجدد أنفى ، وتصلم أذنائى ، وأوضع على الخازوق) - الموتى وعالمهم ص ١٠٨ .

ويذكر أن (نى عنخ بيبى) ، من رجال (بيبى الأول) ، رأى الوزير (نى كا وو حور) يغتصب مقبرة الوزير (أخت حتب) ، ويمحو اسمه ، ويضع مكانه اسم المغتصب - فكتب على مقبرته مهردا :

(أما من جهة أى فرد يريد أن يلحق أذى بهذا القبر الذى فى المقبرة ، وهو

الذى تابوته مركّب فيه الأب فوق أمه - أى الغطاء فوق التابوت - فإنى سأتقاضى معه فى المجلس المبجل الفاخر للإله العظيم رب الغرب ، وسأقبض على رقبتة كما يقبض الإنسان على عصفور ، وسيسرى خوفى فيه أمام كل من على الأرض ، وكل الأحياء سيرتعدون من الأرواح الممتازة ، وإنى روح ممتازة ، ليس السحر أمامها بالشئ المستعصى ، أما كونى حاذقا فإنى مرتّل حاذق ، ورجل عالم بأمور السحر) - مصر القديمة ج ١ ص ٣٧٥ / ٣٧٦ .

* وأهم شخصية فى تحقيقات سرقة المقابر كانت شخصية كبير كهنة آمون (أمنحوتب) الذى كان له النفوذ الأكبر فى طيبة .

وكان أمنحوتب هذا يجمع إلى عمله كبير الكهان فى جميع المعابد المصرية أعمالاً أخرى هامة ، مثل إشرافه على خزانة فرعون ، ووظيفة حامل أختام الملك ، وحصل لنفسه من رمسيس التاسع على حق جباية أموال آمون وضرائبه ، بواسطة كتبة المعابد ، وليس عن طريق موظفى الدولة ، وكانت هذه الإيرادات تدخل رأساً إلى خزانة المعابد .

وكانت خيرات مناجم الذهب التى (كانت ملكاً لآمون) تأتى إلى معابده ، وكان كبار كهنته يحسنون اختيار الحكام ، ويمدونهم بكل مايكفل لهم السلطة فى أقاليمهم .

ومنذ تعيين (حريحور) كبيراً للكهنة جمع إلى سلطته مديراً للخزانة ، وقائداً للجيش ، جميع عناصر القوة فى البلاد ، وكان يضع اسمه إلى جوار اسم مولاه .

وكانت سيطرة الكهنة على خيرات البلاد من أهم العوامل على بعث أطماع الآخرين ، وبخاصة القرييين منهم ، فى الحصول على ماتصل إليه أيديهم .

ولهذا اشترك فى السرقة بناء يدعى (أمن بانو فر) ، وكان من أتباع الكاهن الكبير أمنحوتب ، مع سبعة عمال آخرين يعملون فى البناء والتجارة ، وانضم إليهم زارع ونوتى يعبر بهم النهر ذهاباً وإياباً ، دون أن يلفت الأنظار .

كان اللصوص يتكفون فى بادئ الأمر من عمال المحاجر والبنائين ،

وسرعان ما انضم إليهم صغار الموظفين المكلفين بخدمة المعابد ، وعمال الجبانة ، وبعض رجال الدين .

وثمة عصابة من رجال الدين والكهنة وبعض الكتبة كانت تقوم بالسطو على بيت الذهب الخاص بالملك (أوزير مارع ستب إن رع) .

وفى أواخر عهد الرعامسة شنت حروب دينية ، بين أنصار «آمون» وأنصار «ست» ، تبعها نهب المقابر الكبرى - الحياة اليومية فى عهد الرعامسة ص ٣٥٤ / ٣٥٧ .

* واستمرت السرقات باستمرار نهب الثروات ، ودخل المفاكرون الأوربيون طرفا فى تسويق المسروقات ، حتى إذا وصلنا إلى العقدىن الثانى والثالث من القرن التاسع عشر دخلت الحكومات والمؤسسات الكبرى طرفا فى عملية (النهب) ، حتى حصل المتحف البريطانى ومتاحف باريس وتورين وفلورنسا وبولونيا وليدن على مجاميع ضخمة من الآثار المصرية ، واشترك قناصل فرنسا وانجلترا والسويد فى الإشراف على حفائر لتوسيع عملية النهب .

وتشكلت مجموعات بحث ودراسة للآثار المصرية فى أوروبا ، بالتنسيق مع مجموعات تعمل داخل مصر . . وفى غياب وعى الحكومة المصرية بما يجرى فى مناطق الآثار ، عوملت مناطق البحث والتنقيب معاملة ملكيات الباحثين ، ينفقون فى سخاء ، ويتنافسون فى دهاء ، وينقلون عبر النيل والمتوسط آثارا ضخمة .

نقلت (المسلات) إلى عواصم المدن الأوربية وأمريكا بطريقة مثيرة ، تدمغ الحكام المصريين قبل المغامرين الأوربيين ، وحسبك أن فى روما وحدها تسع مسلات ، ارتفاع كل منها يزيد على ٢٩ قدما .

ونقلت مبانى مقابر كاملة إلى لندن ، وباريس ، وبرلين ، وبروكسل وغيرها ، كان بعضها يباع بعشرة جنيهات مصرية ، وتحتوى على روائع الفن المصرى - مصر القديمة ج ١ ص ٣٤٥ .

وفى النصف الثانى من القرن العشرين أهذى (الثوار بنو الثوار) معابد كاملة إلى بعض رؤساء الحكومات الأجنبية !!

* وعقب انتصار القوات البريطانية التركية المشتركة على الجيش الفرنسى فى مصر ، صادر المنتصرون القطع الأثرية التى جمعها العلماء الفرنسيون ، وأرسلت إلى لندن ، ومنها حجر رشيد المشهور ، وتزين هذه القطع أروقة المتحف البريطانى .

وحدث أن زاد الاهتمام الأوروبى بالآثار المصرية ، وصار لها سوق رائجة ، فأخذ القنصل الفرنسى بمصر دور فيتى (١٧٧٦ - ١٨٥٢) - وهو إيطالى المولد - فى الحفر سنة ١٨١١ فى منطقة الأقصر ، لتكوين مجموعة أثرية ، يقوم بعرضها على المتاحف الأوروبية ، ويحقق ثروة طائلة .

وقد بلغ من نفوذه لدى محمد على أن الحكومة الفرنسية أعادته إلى وظيفته سنة ١٨٢١ ، بعد أن فصلته سنة ١٨١٤ لكونه من أنصار نابليون ، وبالرغم من فصله بقى فى مصر يواصل البحث عن الآثار ، مستخدما وكلاء يتشممون مصادر الحصول عليها ، ومسارب تهريبها وبيعها .

وفى سنة ١٨١٥ زار الأقصر كل من سفن ليدمان (١٧٨٤ - ١٨٤٥) - وهو سويدي ملحق بسفارة بلاده فى إسطنبول - وأوتو فريدرش فون ريشتر (١٧٩٢ - ١٨١٦) - وهو نبيل من البلطيق كان يقوم بوظيفة السكرتير لليدمان - وكانا فى طريقهما إلى النوبة ، وقد عمل الرجلان على تكوين مجموعات من الآثار .

وفى سنة ١٨١٥ مرّ بالأقصر أيضا الرحالة البريطانى وليام بانكس (١٧٨٧ - ١٨٥٥) ، كما زارها سنة ١٨١٨ ، وحصل على مجموعة من لوحات دير المدينة .

وفى ربيع ١٨١٥ تم تعيين هنرى صولت (١٧٨٠ - ١٨٢٧) قنصلا لبريطانيا فى مصر ، ووصل فى مارس ١٨١٦ ، وقد كتب إلى راعيه جورج أنسليه يقول : (اتخذت كل وسيلة ممكنة لجمع الآثار ، ويسعدنى القول بأننى قد أصبت لنجاحا عظيما ، حتى إننى سوف أرسل لك فى الربيع شحنة من هذه الأشياء التى أعتقد أنك لم تر لها مثيلا من قبل) .

وحين عودة إيرل بلمور الثانى (١٧٤٤ - ١٨٤١) إلى الأقصر ، فى يناير ١٨١٨ - من رحلته إلى النوبة هو وأسرتة - عرضت عليه مجموعة من الآثار

اشتملت على أحجار غطتها رسوم الآلهة والقرايين والكهنة والحروف الهيروغليفية ، وتم جمع عدد كبير من لوحات دير المدينة كان العمال الملكيون قد قاموا بصنعها لاستخدامهم الخاص .

وقد التقى بلمور ورفاقه أثناء إقامتهم بالأقصر بالرحالة الفرنسي فردريك كليو (١٧٨٧ - ١٨٦٩) ، وكان يقوم بإدارة حفائره الخاصة ، بالرغم من أنه كانت تعوزه الدقة فيما يتعلق بالمواقع .

أما القنصل السويدي في مصر جيوفاني أنستاسي (١٧٨٠ - ١٨٥٧) فقد جمع مجموعة هائلة بمعاونة إيطالي يدعى بتشني كان ينقب في منطقة طيبة .

أما جان فرانسوا شامبليون (١٧٩٠ - ١٨٣٢) الذي كشف غموض الهيروغليفية ، فقد قام بزيارة مصر في عامي (١٨٢٨ - ١٨٢٩) ونسخ بنفسه عددا من مقابر دير المدينة ، واشترك مع روساليني في تسجيلات هامة للنصوص وعمارة الأبنية .

وكان المهندس الفرنسي هربرت قد زار النوبة سنة ١٨١٩ ، ووضع رسوما أفقية لعدد من المعابد استعملها شامبليون في تصحيح تفاصيل الصور التي وردت في كتاب الحملة الفرنسية (وصف مصر) .

ثم قام كارل لبسيوس - بين سنتي ١٨٤٢ / ١٨٤٥ - بقيادة البعثة البروسية في مصر والنوبة ، وبمساعدة مجموعة مؤهلة من ناقلتي النقوش ، جمع مادة كبيرة ، نشرها سنة ١٨٥٩ في الأجزاء الاثني عشر من كتابه (الآثار) الذي لا يزال إلى يومنا هذا من أهم المراجع في مكتبة الآثار المصرية . . وقد خصص جزءا كبيرا من هذا العمل الضخم لمعالم النوبة .

وقد وجد لبسيوس الوقت لدراسة اللهجات النوبية ، ونشر نتائج أبحاثه سنة ١٨٨٠ .

وقد أقام جون جاردنر ويلكنش (١٧٩٧ - ١٨٧٥) في مصر اثني عشر عاما لتسجيل الآثار ، وكذلك فعل روبرت هاي (١٧٩٩ - ١٨٦٣) ، مع فريق من الفنانين والرسامين .

وفى سنة ١٨٣١ أرسلت الحكومة الفرنسية بعثة بحرية إلى مصر ، لكى تنقل مسلة من الأقصر ، كان محمد على باشا أهداها إلى فرنسا ، وأثناء انتظار البعثة فيضان النيل حتى يتسنى نقل المسلة ، قرر بحارتها استكشاف المنطقة بحثا عن الآثار ، وفى فبراير ١٨٣٢ تمكنوا من رفع تابوت ضخمة من حجر الشست ، من حفرة عميقة ، وقد نقلت المسلة والتابوت إلى باريس ، حيث أقيمت المسلة فى ميدان الكونكورد ، بينما بيع التابوت لدوق هاملتون الذى كان فى زيارة لباريس ، وبعد وفاته حنط جثمانه ، ودفن فى هذا التابوت .

وفى سنة ١٨٦٩ زار مصر أمير ويلز الذى صار الملك إدوارد السابع ، وبصحبه زوجته وحاشيته . . كانوا فى رحلة إلى الشرق الأوسط ، وامتدت إلى الشلال الثانى ، وحين عاد الأمير إلى إنجلترا كان فى معيته عشرون تابوتا ، قام بتوزيعها على مختلف الأصدقاء والمتاحف فى أرجاء البلاد .

وفى سنة ١٨٥٨ تم إنشاء مصلحة الآثار المصرية تحت قيادة أوجست مارييت (١٨٢١ - ١٨٨١) من أجل حماية الآثار ، وقد قام بحفائر على نمط كبير ، وكشف عن معابد وجبانات ، وكان من أهم مراكز أبحاثه منطقة سقارة ، حيث كان أول مكتشف لمقابر العجل أبيس المعروفة بالسرايوم ، ولكثير من مقابر الدولة القديمة هناك .

وعقب وفاة مارييت تولى رئاسة المصلحة جاستون ماسبيرو (١٨٤٦ - ١٩١٦) ، وكان أكثر سخاء فى منح تصاريح الحفر لكل من الحفارين الأجانب والوطنيين ، وقابل المكتشفات بتعويضات مجزية . . وقد جرى بالآثار كلها إلى القاهرة ، ثم تم توزيعها قبل إعداد تسجيل واف لها .

وفى سنة ١٩٠٥ بدأت الحفائر على نطاق واسع فى وادى دير المدينة ، تحت إشراف أرنستو كاباريللى (١٨٥٦ - ١٩٢٨) ، أمين المتحف المصرى فى تورين ، الذى نزع من الآثار المصرية الكثير - صناعات الخلود ص ١٤٦ - ١٦٤ .

وفى سنة ١٩٠٧ زار المنطقة العالم والمؤرخ الأمريكى بريستيد ، وقام بجولة طويلة دخل خلالها السودان .

وفيما بين ١٩١٠ و ١٩١٢ قامت بعثة أكسفورد بحفائر طويلة على الحدود

بين مصر والسودان ، كشفت عن بقايا من كل العصور ، منذ ما قبل الأسرات .
وفيما بين ١٩١٢ - ١٩١٤ عثر الألمانى شتايندوف - فى منطقة عنيبة على
مقابر كثيرة مهمة .

وفى سنة ١٩١٦ نشر سومرز كلارك دراسة عن القلاع المصرية فى النوبة .
* وبعد فحص عام للآثار الموجودة فى النوبة - فى المسح الأثرى الأول -
نظم السير جاستون ماسبيرو مجموعة من الأثريين ، مكونة من الفرنسى هنرى
جوتيه ، والألمانى جوتنر رودر ، والإنجليزى إيلوارد بلاكمان ، لتخطيط ونقل
النقوش التى على المعابد .

ولما كان أرثور ويجال كبير مفتشى الآثار فى الوجه القبلى جعل المسح الأثرى
للنوبة فى أيدي ليونز المدير العام لمصلحة المساحة ، الذى عين بدوره الدكتور
جورج ريزنر على رأس بعثة النوبة ، وقد استعان ريزنر بثلاثة مسّاحين ، هم ،
سيسل فرث ، وإيلوارد بلاكمان ، وأوربك بيتس ، وقد احتل هؤلاء الرجال -
فيما بعد - مكانة مرموقة فى علم الآثار المصرية .

وكان بكلية الطب فى القاهرة استرالى اسمه جرافتن إليوت سميث ، يعمل
أستاذا لعلم التشريح ، وكان عالما فى المخ وفى تطور الإنسان ، كما كان عضوا
فى الجمعية الملكية البريطانية ، وقد وافق على العمل مع بعثة النوبة ، وعاونه فى
فحص المومياوات الدكتور وود جونس ، والدكتور درى الذى قام بفحص موميا
توت عنخ آمون سنة ١٩٢٣ .

ويلاحظ أنه قبل العثور على مقبرة توت عنخ آمون كان قانون الآثار فى مصر
يقضى بأن المنقب يجب أن يعطى نصف حصة ما اكتشفه ، وكان هذا شرطا حيويا
فى تنظيم بعثات أجنبية ، وكان هذا القانون - دون شك - من عمل هذه
(العصابة) التى تولت أمر (مصلحة الآثار المصرية) .

وقد تنبه تجار الآثار فى الأقصر إلى وجود مصادر مواد قيمة لأسواقهم التى
كانت مشغولة حينئذ بسد مطالب المتاحف المتكاثرة ، وطلبات جامعى التحف
والسائحين .

وكان أن أرسلت مجموعات من المنقبين (غير الشرعيين) إلى الجنوب ، حيث استطاعوا تجميع ما أرادوا ، دون خوف من تدخل مفتشى الآثار ، الذين كانوا يعملون بدورهم فى نفس المجال ، هذا إلى أن مجالات التنقيب كانت فى مناطق شاسعة غير أهلة بالسكان ، لاتسهل مراقبتها ، وإن كانت المراقبة يمكن أن تتم عند (التصدير) ، لكن من يراقب من ؟!

وفى سنة ١٩٢٩ جعلت (الجمعية المصرية للتنقيب) تعمل فى (المسح الأثرى الثانى) ، تحت قيادة وولتر إمرى الذى عينته مصلحة الآثار فى منصب مدير المسح الأثرى فى النوبة ، ولم يكن يعرف شيئا عن هذا الجزء من وادى النيل - بإعترافه - إلا من خلال الكتب فحسب ، وكانت هذه هى حالة بقية أعضاء البعثة المرافقين ، ومعظم المائة والخمسين من العمال المصريين المرافقين .

وعين كروان الذى صار مدير الجمعية الجغرافية الملكية مساعدا لإمرى ، كما عين لأول مرة مصريون فى البعثة ، وهم نجيب مكرم الله ، وعبد الباقي ، وعبد المنعم ، الحاصلين على درجة الدبلوم من جامعة القاهرة ، ثم خلف مكرم الله زكى يوسف سعد ، وانضم الدكتور أحمد البطراوى للتشريح ، ومحمد حسنى مهندس مساحة ، ومحمد حسنين كاتب أعمال .

وفى أكتوبر ١٩٢٩ اتجهت البعثة إلى وادى السبوع لبدية المسح الثانى ، من حيث انتهى فرث من المسح الأول سنة ١٩١١ ، وقد اعتمدت الحكومة المصرية ثلاثة وثلاثين ألف جنيه للرف على أعمال تستغرق ثلاث سنوات .

ثم اتخذت البعثة من (عنيبة) مركزا للبحث ، لأن بها بقايا حصن المدينة الكبير .

وفى هذه الأنحاء كان دونبار أحد موظفى الحكومة السودانية يستغل أعماله وواجبه فى النقل باليد ، وتصوير النصوص التى لاحظها ، والمناظر التى وجدها على الصخور على شاطئ النيل ، وسجل كشوفه التى لاتقدر بثمن فى أحد سجلات مصلحة الآثار المصرية .

* انتهى بناء خزان أسوان سنة ١٩٠٢ ، وقد بدأ تشييده عند الجندل الأول

سنة ١٨١٩ ، وامتد البناء أكثر من ميل طولا ، يعلو مائة قدم ، وتمتد بحيرته مائة وأربعين ميلا .

وبين سنتي ١٩٠٧ و ١٩١٢ زيد في ارتفاعه ستة عشر قدما ، وامتدت البحيرة مائة وخمسة وثمانين ميلا .

وبين سنتي ١٩٢٩ و ١٩٣٤ زيد في ارتفاعه ثلاثين قدما ، وامتدت البحيرة مائتين وخمسة وعشرين ميلا حتى وادى حلفا وكانت المنطقة خلف السد غنية بآثارها وبأراضيها الخصبة . . كانت (بلانة) تحيط بها مناطق واسعة من الأراضي الخصبة المزروعة ، وفي بلانة وقسطل كانت مقابر عدد من ملوك النوبة ، وفي بلانة تم تحويل مناطق كبيرة مجدية - عن طريق الرى الحديث - إلى مناطق زراعية خصبة . . وفي (الدر) كان معبد رمسيس الثانى المنحوت فى الصخر ، والذي يختفى خلف أشجار النخيل والجُمُيز . . وعند (توماس) كانت جزيرة ذات أرض خصبة ، كما كان بالشاطئ الغربى غابة كثيفة من النخيل ، ذات ثمر له شهرة كبيرة ، وكانت (عنية) ذات سهول خصبة ، كما كانت (بو سمبل) ذات رقعة زراعية واسعة على الشاطئين ، وعلى الضفة الغربية - أمام معبدى رمسيس الثانى - كانت رقعة واسعة من الأرض الزراعية ، ومن أخصب الأراضي ما يعرف بمنطقة وادى حلفا على الضفة الشرقية ، من دبيرة حتى الشلال الثانى ، وهى مقر عدد كبير من السكان ، غير التجار والموظفين والمهندسين الذين يعملون فى ورش السكك الحديدية .

* وفى ٨ مارس ١٩٦٠ ، قال المدير العام لليونسكو ، السيد فتورينو فيرونيز ، فى افتتاح (الحملة العالمية لإنقاذ آثار النوبة) بباريس : (لقد بدأ العمل فى سد أسوان العظيم ، وفى مدى خمس سنوات ستصبح منطقة وادى النيل الوسطى بحيرة كبيرة ، وسوف يترتب على ذلك أن تصبح آثار رائعة ، تعدّ من بين أعظم ما على الأرض ، معرضة لخطر الزوال تحت المياه ، إن السد سيجلب خصوبة لأراضى صحراوية واسعة ، ولكن خلق مجالات جديدة لعمل الجرافات ، وتخزين قوة كهربائية لمصانع المستقبل تهدد بدفع ثمن رهيب) .

(ومقابل مساعدة العالم ستفتح حكومتا القاهرة والخرطوم كل بلادها

للحفائر الأثرية ، وستعطى نصف القطع الفنية التى سيكشف عنها علميا أو بالصدفة للمتاحف الأجنبية ، وستوافق أيضا على نقل بعض الآثار النوبية ، وهكذا سيفتح عهد جديد من حقل الآثار الأجنبية) .

كانت مدة السنوات الخمس لإتمام سد ارتفاعه مائتين وخمسة وعشرين قدما ، وطوله أكثر من ثلاثة أميال ، يحقق خزاننا يصل طوله إلى ثلاثمائة ميل - سابقا خطيرا بين أجهزة مدربة على النهب والاستلاب ، أعطاه اليونسكو كل الحقوق (الشرعية) باسم حكومة تستعد لصناعة الأناشيد التى ستغرق بها كل شئ ، كل شئ .

وكان لبعثة جامعة القاهرة - خلال (هوجة) التخريب التى لحقت بشعب له عراقا وأصالة وأمجاد - حفائرها الواسعة فى (عينية) ، حيث فحصت جبانات من كل عصور التاريخ النوبى ، واقتنت معلومات جديدة ذات قيمة تاريخية ثمينة .

وقد سبقت البعثة المصرية للتنقيب نداء اليونسكو ، فكانت حفائرها فى (بوهن) قبل أن تبدأ الحملة العالمية لإنقاذ آثار النوبة بثلاثة أعوام . . ويلاحظ أن (إمرى) كان رئيس البعثة المصرية !!

وظهر أن أوصافا ومعالما دفاعية كانت تعد من ابتكار أوروبا فى القرون الوسطى ، عرفها المصريون فى الدولة الوسطى ، منذ أربعة آلاف سنة .
وقد كشفت الحفائر فى (بوهن) :

- ١- أن المدينة كانت مستعمرة مصرية بحتة ، فمع وجود علامات لحضارة المجموعة الثانية النوبية نجد أن ٩٥٪ من بقايا الفخار مصرية .
- ٢- أن النحاس كان أحد صناعات هذه المدينة .
- ٣- كانت هناك طريقة مراسلة منظمة مع مصر خلال الأسرتين الرابعة والخامسة ، بدليل كمية البردى وأختام الأوانى التى عثر عليها .
- ٤- حملت الأختام وقطع الفخار أسماء عدد من ملوك مصر .

وفى (أبريم) وجدت مقاصير منحوتة فى الصخر ، نقرها تحوتمس الثالث ، وأمنحوتب الثانى ، ورمسيس الثانى ، وسجلت كل نقوش هذه المقاصير فى رسوم بالحجم الطبيعى ، بطريقة (الشّف) ، وتم فحص أكثر من ثلاثمائة مقبرة ، وأكثر من نصف ما حوته المقابر والمقاصير من تحف أعطى للندن ، وبعد عرضها فى معرض عام قسمت بين متاحف بريطانيا والكومنولث

وعلى بعد ثمانى كيلو مترات جنوبى أسوان ، كانت جزيرة (فيله) وما عليها من أبنية - قبل بناء الخزان فى بداية هذا القرن - تحيط بها أشجار النخيل والنباتات الخصبية ، بحيث كانت من غير شك من أجمل المناظر فى العالم كله .

وقد استقر رأى فى سبتمبر ١٩٦٨ على نقل معابد (فيله) إلى جزيرة (أجيلكه) - التى تقع على جانبها الغربى - بعد تسطيحها ، وزيادة مساحتها - مصر وبلاد النوبة ص ١٠١ - ١١٩ .

* نكتفى بهذه الإشارة إلى ما أصاب الآثار المصرية من سرقات (مشروعة) ومباركة من الحكومة المصرية ومن اليونسكو ، وغير مشروعة ، وإن كان الانتهاك الأكبر لتاريخ النوبة هو فى إغراق أرض النوبة جميعا ، بالرغم من معارضة كثير من الخبراء المصريين الذين سبقوا إلى دراسة بناء السد العالى وسلبياته قبل سنين من قيام ثورة ١٩٥٢ ، ولولا أن (الثواربنى الثوار) لم يكونوا يجرءون على التراجع عن قرار ، ولو كان فيه القضاء على خصوبة أرض مصر التى حرمت من مواد الإخصاب السنوية التى يحملها الفيضان ، وكانت هناك بدائل فى فرع جديد للنيل يشق وادى الواحات إلى منخفض القطارة ، ويروى أكثر من ثمانية ملايين فدان^(١) ، بالإضافة إلى مزيد من السدود على المجرى الأصيلى لنهر النيل .

ومما يدل على التفريط فى الآثار المصرية خارج النوبة والأقصر والجيزة هذا البيان الذى قدمه الأستاذ سليم حسن (مصر القديمة ج ٥ ص ٣٤٧) عن مصير لوحات تل العمارنة :

(١) أخيراً أخذنا نعمل على تعمير (الوادى الجديد) عن طريق قناة توشكى ١١

١٩٤ لوحة فى متحف برلين	٨٢ لوحة فى المتحف البريطانى
٥٠ لوحة فى متحف القاهرة	٢٣ لوحة فى متحف (أشموليان)
٧ لوحات فى متحف اللوفر	٨ لوحات ملك جمعية الحفر
٤ لوحات فى حيازة روستوفيتز	الإنجليز
١ لوحة عند أوبرت	٢٠ لوحتان فى متحف متروبوليتان
١ لوحة فى متحف بروكسل	١ لوحة فى متحف القسطنطينية

وهذا بيان تقريبي ، لأن اللصوص لا يكشفون عن جميع أوراقهم ، بل كثيرا ما يخفون عن شركائهم كثيرا من الأسرار ، (ويابخت من بات مغلوبا) !! .

٢٦ أغسطس ١٩٩٥

الفهرست

الصفحة	
١٣	البداية
٣١	تخرصات
٦٠	إرهاصات
٧٦	أخناتون .. إعادة التقييم →
٨٤	الطغيان
٩٦	الكهنة
١٣٥	شعائر وطقوس
١٤٣	التعاويد
١٥٥	فكرة القانون
١٦٢	ديانة عالمية
١٧٤	الحضارة المصرية
٢٣٦	الفنون والآداب
٢٧٣	النوبة كنز الآثار الضائع

مصادر ومراجع

- ١ - معالم التاريخ الإنسانية - ه. ج. ويلز ٤ مجلدات
- ٢ - قصة الحضارة - ول ديورانت ٤٢ جزءاً
- ٣ - مصر القديمة - سليم حسن ١٦ مجلداً
- ٤ - الأدب المصرى القديم - سليم حسن جزءان
- ٥ - مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة - طه باقر مجلدان
- ٦ - مختصر دراسة التاريخ - توينبى ٤ أجزاء
- ٧ - فجر الضمير - بريستيد
- ٨ - الغصن الذهبى - فريزر
- ٩ - الفلكلور فى العالم القديم - فريزر
- ١٠ - كتاب الموتى - والسن بدج
- ١١ - فكرة القانون - دينيس لويد
- ١٢ - البدائية - أشلى مونتاجيو
- ١٣ - الحياة اليومية فى مصر فى عهد الرعامسة - بيير مونتيه
- ١٤ - الموتى وعالمهم فى مصر القديمة - م. ج. سبنسر
- ١٥ - ديانة مصر القديمة - أدولف إرمان
- ١٦ - مصر الفراعنة - ألن جاردنر
- ١٧ - مصر الفرعونية - أحمد فخرى
- ١٨ - أساطير العالم القديم - صمويل كريم
- ١٩ - شخصية مصر - جمال حمدان
- ٢٠ - تكوين مصر - شفيق غربال
- ٢١ - مصر ورسالتها - حسين مؤنس
- ٢٢ - صناعات الخلود - موريس بيربراير
- ٢٣ - على هامش التاريخ المصرى القديم - عبد القادر حمزة
- ٢٤ - المعتقدات الدينية لدى الشعوب - جفرى بارنرد
- ٢٥ - آلهة مصر - فرانسوا دوماس
- ٢٦ - مصر وبلاد النوبة - وولتر إمرى

- ٢٧- الفلسفة الشرقية
٢٨- التشريع والقضاء فى العهد الفرعونى
٢٩- تاريخ الكتاب
٣٠- أبو الأنبياء
٣١- الله
٣٢- حضارة مصر
٣٣- أخناتون
٣٤- أبو سمبل
٣٥- نشأة الكون ووحدة الخلق
٣٦- أهرام مصر قلاع لاقبور
٣٧- الجزيرة المسحورة
٣٨- الأعمدة السبعة للشخصية المصرية
٣٩- حياة الروح فى ضوء العلم
٤٠- رمسيس الثانى
٤١- تاريخ مصر
٤٢- كنوز الفراعنة
٤٣- التراث المسروق
٤٤- تقدم الإنسانية
٤٥- فى العقائد والأديان
٤٦- الديانات القديمة
٤٧- مجلة الهلال
- محمد غلاب
- عطية مصطفى مشرفة
- ستييتشفيتش
- العقاد
- العقاد
- سليمان حزين
- فؤاد شبل
- محمد فتحى عوض الله
- محمد فتحى عوض الله
- زهير على شاكر
- منير مجلى
- ميلاد حنا
- إدمونت سينوت
- كنت أ. كتشن
- جيمس بريستيد
- ت. ج. ه. جيمس
- جورج جيمس
- جوردون تشيلد
- محمد جابر الحينى
- رشدى عليان
- عدد مايو ١٩٩٧ سيد كريم



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)

Bibliotheca Alexandrina

رقم الإيداع : 99 / 1721

الترقيم الدولى : 977-5936-00-4

